محمد عبد المنعم خفاجي

الإسلام
دين الإنسانية الخالد

١٣٧٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م

تصدير

هذا النور الإلهى العظيم ، الذى انبثق من السماء ، وأضاءت شعلته الأرض ، وحمل رسالته محمد بن عبد الله ، ونشرها فى الخافقين خلفاؤه وأصحابه ؛ هذا النور هو شريعة الإسلام المطهرة ، ودين الإنسانية الخالد ، وعقيدة الأحرار والأبرار من كل جنس ولون .

وما أجل الإسلام شريعة رفيعة الأركان ، وعقيدة كتابها المنزل هو القرآن ، ودينا إنسانيا عاما ، دان به المشرق والمغرب ، وسعدت به الحياة أحقابا طوالا .

والإسلام ليس دين رهبنة وكهانة وطلاسم ومعميات ، ورسوم وألغاز . ولكنه قبل وبعد كل شىء دين الحياة والحضارة والنهضة ، دين شعاره العمل ، ودعوته الجهاد من أجل تقدم الإنسانية ، وارتقاء الحضارة ، وأصوله الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة والسلام ، وجميع شعائره تهدف إلى خير الحياة والإنسان والمجتمعات والشعوب ، وفى كل عمل من أعماله ، وواجب من فروضه ، تذكير بالله ، وإيقاظ للضمير ، وتمجيد المثل العليا ، والمبادىء الكريمة ، والأخلاق الفاضلة ، والآداب المهذبة .

دين يوحد بين الناس ، ويجمع بين الشعوب ، وينظر إلى البشرية كافة نظرته إلى أمة واحدة ، وجماعة متحدة ، دين يسع كل رأى ، وتحترم أصوله كل فكرة ، ويوفر لكل إنسان كرامته وحريته ، وحقوقه الطبيعية فى الحياة .

كان ولا يزال ثورة عامة على الجمود والرجعية والفساد والجور والاضطهاد والاستعباد ، وشهابا ثاقبا يرمى به أعداء التقدم والرقى والإنسانية ، وخصوم الإيمان والسلام ، وأعوان الشر والظلم والظلام .

نزلت رسالته المقدسة على أشرف إنسان فى الوجود ، وفى أرض الصحراء العربية البعيدة عن الحضارة والعمران والمعرفة ، ودعى إليه ـ أول ما دعى إليه ـ قوم كانوا يعيشون فى ظلمات الجاهلية الأولى وأوثانها وأباطيلها ، وبعد قليل ، حينما امتلأت نفوس المسلمين بآدابه وشريعته وأصوله وأحكامه ، إذا البركان ينفجر ، والثورة تشتعل . وهذا العربى القح الذى كان يعيش فى عزلة تامة عن الحياة ، يحمل فى يمناه الرسالة ، وفى قلبه حرارة الإيمان ، وفى روحه ثورة الحرية ، ثم يندفع ليخلص الشعوب من جور الحكام ، وليحرر العبيد من رق أبدى لا مسوغ له ، وليعلى كرامة المرأة فى الحياة ، ويعتبرها إنسانا ذا روح له إرادته وكرامته ورأيه فى المجتمع ، وليرتفع بالفقير إلى مصاف الغنى ، وبالعامل إلى مستوى صاحب العمل ، وبالفلاح والخادم وأمثالهما إلى نطاق من الكرامة الإنسانية وحق الحيــاة .

ثم إذا هذا العربى الذى انطلق من الصحراء ، يؤثل للحضارة والمعرفة الصروح السامقة ، ويبنى المدنية أركانا قوية ، يدعمها الفكر والعقل والروح والبدن ، وإذا هو الذى تستعز به الشعوب المغلوبة على أمرها ، لينقذها من الجور والظلام ، وإذا هو منشىء الجامعات ، ومحرر العقول ، وواضع أصول المدنية ، والداعى إلى الإنسانية الرفيعة وكل شىء ، ثم يصير سيد الدنيا ، وحاكم الأرض ، ومدمر عروش الطغاة من الملوك والقياصرة .

الإسلام وما أعز الإسلام فى الأرض ، وأعذب لفظه فى الأفواه ، وأجمل معناه فى القلوب ، هو هو المعجزة الخالدة ، وخاتم الرسالات إلى الأرض ، وهو الذى نتحدث عنه فى هذا الكتاب ، حديثا يجمع بين الدراسة والتحليل ، نشرح أصوله ، وننبه إلى مبادئه ، ونفصل الكلام فى دعواته التجديدية الكبرى ، للبناء والإصلاح والإحياء والنهضة .

وها هو هذا الكتاب ، « الإسلام دين الإنسانية الخالد » ، وبالله التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير ...

تصدير

قضايا الحرية والاصلاح وتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس هى الشغل الشاغل اليوم للشباب فى مصر والعالم العربى ، لاتصالها الوثيق بحياة الشرق وآماله ومشكلاته ، وبالتفكير العالمى الراهن . والحديث عنها جميل محبوب . لأنه ينبع من النزعات الانسانية المتأصلة فى قلوبنا وأرواحنا ، ولأنه مقدمة للاصلاح الذى لايمكن أن ينهض مجتمع لايؤمن به ، ودينننا الكريم الذى نسعى بدوافعه الروحية العميقة فى نفوسنا هو أحفل الشرائع بمبادىء الأصلاح والخير والحرية والعدالة والتعاون بين الناس .

وبين مواكب الشباب الساعية لخير الحياة ومجدها ، نرى البعض قد انحرف عن الجماعة ، وترك التفكير فى أهداف الدين ومراميه وأصوله ، وآمن بمبادىء أخرى تخالف ديننا وتقاليدنا الموروثة .

والذين يؤمنون منا بهذه المذاهب الغريبة عنا ينسون أنها مذاهب مادية استعمارية ، وأن الدول التى تدعو اليها تقصر خيرها على نفسها وتوزع شرورها بين الناس .

أما الأسلام فقد سبق المذاهب عامة إلى تقرير كل ماهو حق وعدل وخير وجميل ، وإلى تطبيقه تطبيقا عاما على الناس كافة ، دون نظر إلى أجناسهم وعناصرهم وأديانهم ، لقد سبق فلاسفة الاجتماع المحدثين إلى وضع أصوله ، وسبق بيكون إلى المذهب العلمى ، وديكارت إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد والإيمان بما يؤدى اليه الدليل ، ووضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق والبحث والتفكير ، ولم يجعل للمعرفة الأنسانية حداً ، وكفل حقوق المرأة والعامل والزارع والخادم ، وأقام مبادئه على سمو الغاية فحسب ، دون النظر إلى التفسيرات الاقتصادية المادية التى هى أساس الحياة الراهنة .

ولقد سبق الاسلام الحضارة الغربية إلى توطيد دعائم العدالة والمساواة بين

الناس ، وإلى النظم الديمقراطية الشورية ، وتقرير مسؤلية الحاكم ، وإلغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان . وسبق إلى محو الأمية ومجانية التعليم والعلاج ، وتقرير مبدأ الضمان الاجتماعى للعاجزين عن الكسب : مسلمين وغير مسلمين ، وإلى محاربة الجشع الاقتصادى والاحتكار والربا والاستغلال . ولقد فكر بعض المسلمين على عهد الرسول صلوات الله عليه فى تأجير أراضيهم الواسعة التى لا يزرعونها للفقراء فنهاهم قائلا : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وحجر عمر على الأشراف أن يهاجروا إلى البلاد المفتوحة لاحتلال أرضيها حتى لا يضيقوا على الناس قائلا : « ألا فإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » .

إن حقوق الانسان لم تعلنها الثورة الفرنسية ولا هيئة الأمم المتحدة ، وإنما أعلنها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . وما بالكم بدين حمى حق الإنسان فى الأمن والحياة وفى الكرامة الإنسانية وفى تكوين الأسرة وفى السعى فى الحياة والمعيشة المطمئنة ، وفى مساواته بغيره مساواة كاملة شاملة أساسها العدل والاخاء ، وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع فى خدمة الفرد ، ووضع أصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وأيقظ الروح الإنسانى العام ، ودعا إلى أخوة الانسانية كافة ، وحمى الفقير وجعله أخا للغنى ، وأوجب له من الحقوق مالم توجبه له شتى المذاهب الحديثة التى يرنو الشباب ببصره اليوم إليها ، ولم يطلق للغنى الحرية يفعل مايشاء ، بل طالبه بشتى الالتزامات المفروضة عليه يقدمها طواعية واختياراً تلبية لنداء ضميره ودينه ، وحذره أشد التحذير من الضن بالمال وعدم إنفاقه فى المصالح العامة ، « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم ، يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون »

والحرية والسلام ورعاية حقوق الانسان ، ثلاثتها هى عماد النهضة ، ووسيلة التقدم ، وصمام الأمان فى الجماعات والشعوب .

فالحرية هى الغذاء الروحى ، والتراث الانسانى ، للانسان فى الأرض ،

وبدونها تصبح الحياة جحيما لايطاق ، وشرا لايحتمل ، وبلاء لاتتحمله مقدرات الأمم .

والسلام هو وليد المحبة والتعاون والإخاء والعدالة والحق والأيثار والخير . وهو خلاصة فلسفة الأديان ودعوات قادة الفكر البشرى ودعاة الأصلاح . وبدونه يهدم الأنسان بيده مايبنيه أخوه الأنسان ، ولا تتقدم الحياة خطوة واحدة إلى الأمام ، ويعود ابن حضارة القرن العشرين إلى حياة الغابات ، ووحشية الجاهلية الأولى . ورعاية حقوق الأنسان هى الوسيلة الفعالة لاحترام الكرامة الأنسانية . ومحاربة المبادىء الهدامة ، ولقد أقرت الأمم المتحدة حقوق الأنسان منذ أعوام ، بعد أن حددها وعرفها كبار الفلاسفة والمشرعين ، ووضعت فى ميثاق دولى اعتمدته الدول الكبيرة والصغيرة على السواء .

والسلام الذى يبكى عليه معسكرا الشرق والغرب ، ويدعون الى توطيد دعائمه ، لم يهدده شىء أخطر من الاستعمار ، الاستعمار الجاثم فوق صدور الملايين من البشر يذيقهم العذاب والآلام والشقاء ، ويهددهم بالتشريد والفناء .

الاستعمار هو الذى يحطم السلام ويهدد مستقبل العالم والشعوب : وهو أينما كان وحينما وجد العدو اللدود للانسانية . والحروب الكبيرة فى تاريخ العالم إنما قامت بسبب الاستعمار ، وتنافس الدول الكبرى على استعمار الشعوب الضعيفة.

إننا نمقت الاستعمار ، ونزدرى أساليبه فى مقاومة التقدم وفى القضاء على مقومات الناس والشعوب . والاستعمار تحاربه كل قوى الخير فى الحياة لأنه شر محض ، وتحاربه كذلك الأديان السماوية ، ويقف منه الاسلام موقف العداء الشديد ، فهو لايقر تحكم أمة فى أمة . ولا استغلال شعب لشعب بالبغى والعدوان والظلم . وعصر الاستعمار يجب أن ينتهى ، فلقد قاسى العالم من الاستعمار الآلام ، وعليه الآن أن يهب للدفاع عن حريته وحياته .. ونحن ننذر الشعوب المستعمرة بالحرب التى لاهوادة فيها ، إذا لم تغير من عقليتها العتيقة البالية . فالاستعمار هو عدونا وعدو السلام والانسانية .

إننا سنبذل دماءنا وأرواحنا فى سبيل الحرية ، ومع ذلك فنحن ننشد أن يتمتع كل إنسان بحقه الكامل فى الحياة ، فى الغذاء والكساء والتعليم والعلاج والتأمين الاجتماعى والخدمات العامة ، وغيرها من الحقوق التى يكفلها الاسلام والنهضة الحديثة .

إننا ندعو إلى الحرية والاصلاح ، ونؤمن بهما ، لأنهما السبيل إلى النهضة والتقدم والحياة الكريمة ، ولأن ديننا الخالد جاء للدعوة إليهما . ونريد أن تشيع روح الحق والعدل والحكمة والتعاون والإخاء والمساواة والديمقراطية فى جوانب بلاد العروبة العزيزة ، حتى يشعر كل مواطن بأن حكومته منه وإليه وله ، وأنها إنما قامت لخدمته وتهيئة أسباب التقدم له ، وأنه مطالب أن يعمل من أجل المجموعة الانسانية العامة ، ومن أجل وطنه وبلاده ، ومن أجل أهله وقومه وعشيرته .

إن فى ديننا كل أسباب العزة والقوة والاصلاح . وكل طرق الخير والمعرفة ، وفى معرفته ودراسته تهذيب لعقولنا ونفوسنا وأفكارنا ، وكبح لجماح الشهوات ، ودفع للعمل من أجل الجماعة والمجتمع .

ونحن فيما سجلناه ودوناه فى هذا الكتاب ، إنما ننشد أن يفهم الناس حقائق هذا الدين وأصوله ومراميه وأهدافه ، إذ هو دين الانسانية المثلى . وان يعملوا من جديد على إحياء مجدهم الغابر ، وتراثهم الخالد ، وعلى خلق يقظة قومية عامة فى شتى أرجاء العالم العربى والاسلامى . . وما ذلك على الله بعزيز ؟

مقدمة



العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، العزة لله لأنه العزيز أبدا ، بقدرته القاهرة ، وإرادته المسيطرة ، وحكمته المهيمنة على كل شيء ، وعلمه النافذ إلى أعماق الكون ، سبحانه تفرد بالبقاء والوحدانية ، لاشريك له ، ولاعبودية إلا له وحده ، عز فى السماء والارض ، وهو الحق ذو القوة المتين

والعزة لرسوله ، فى حياته وبعد حياته ، عند الله والملائكة والناس أجمعين ، بما بلغ من رسالة ، ونشر من دين ، وأدى من أمانة تؤود الجبال الراسيات ، ويشرق جمالها وجلالها على الارض والسموات ؛ والعزة له بمواقفه الخالدة ، وبطولته المثلى ، وتضحياته التى حولت مجرى التاريخ ، وغيرت اتجاه الانسانية ! وبدلت الظلام نورا ، والحرب سلاما ، والفزع أمنا ، واليأس رجاء وأملا فى الحياة ؛ فما أعزه وأروعه يوم وقف يقول لعمه : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ، ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .. والعزة له يوم حارب قريشا والمشركين فانتصر فى بدر وخيبر وحنين وفتح مكة ، وغيرها من المواقع التى سار ذكرها على وجه الزمان ومرور الأجيال

ثم العزة للمؤمنين ، المؤمنين الصادقين ، الذى وصفهم الله عز وجل فى كتابه الحكيم فقال : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ، والذين كانوا هم المثل الأعلى للإنسانية المهذبة الكريمة ، المطبوعة على الإيمان والحرية والعدل والبر

والرحمة والنبل والرجولة والبطولة ؛ العزة لهؤلاء المؤمنين ، يوم وقفوا مع الرسول الاعظم ، ينافحون عن دينه ودعوته ، ويؤيدون مواكب الحق والتوحيد والنور ، ويمهدون للإنسانية طريق النجاة والفوز والنصر المبين ، والعزة لهم يوم خاضوا المعارك فى قلب الجزيرة وفى الشام ومصر وفارس والعراق وفى كل مكان أشرق فيه نور الإسلام ، وخفقت فوقه رايته المظفرة ، فانتصروا على جحافل الوثنية والشرك والطغيان والاستبداد ، وحرروا الطبقات والمجتمعات والشعوب من العبودية ، ونشروا كلمة الله فى الأرض ، وركزوا راية الإسلام فوق كل ربوة ومعقل ومدينة وقرية وقطر ، والعزة لهم فى كل حين خرجت فيه مواكبهم المظفرة غازية فاتحة لايردها جبل ولاسهل ولابحر ، ولا يقف أمامها جيش ولا حصن ، مواكب النصر والعلم والحرية والنور ، من حملة المشاعل . ودعاة الحقيقة ، ورعاة الذمم ، والموفين بالعهد ، والبانين لصروح الثقافة والحضارة والمدنية ، فسلام عليهم فى الأولين ، وسلام عليهم فى الآخرين

والعزة للمؤمنين ماعملوا بكتاب الله ، وتمسكوا بشريعة رسوله المطهرة ، واستقاموا على الحقيقة ، ونهجوا مناهج الرشد ، ونبذوا الخلاف والشقاق ، وتعاونوا على البر والتقوى ، وطهروا نفوسهم من الشرك ، وقلوبهم من الرياء ، وأرواحهم من الضعف ، ومشوا إلى الغايات الكريمة ، والمثل الرفيعة فى الحياة ، وأخلصوا لله ، وأدوا فروضهم كاملة ، فصلوا وصاموا وزكوا وحجوا واعتمروا ، يريدون بذلك وجه الله ، وينشدون مثوبته ورضاه

البَابُ الأوَلُ

بين الإسلام والشيوعية

لايمكن لباحث منصف أن يوازن بين مبادىء الإسلام والشيوعية ، بين شريعة إلهية ونظم وضعية ، بين إصلاح خالص وثورة متطرفة ، بين دين روحه السلام والأخاء والحرية والتعاون الانسانى لخير البشرية والحضارة ، ومذهب يؤمن بالطغيان وصراع الطبقات والالحاد والمادية ، ويثير الاضطراب فى الحياة ، ويعزل معتنقيه عن الشعوب المحبة للحرية والسلم والديمقراطية .

ومع ذلك فسنحاول البحث والموازنة ، وشرح موقف الاسلام من هذه المبادىء الوافدة ، وبيان رأيه فى جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، وتفصل منهجه فى الاصلاح ، ومايدعو اليه من اشتراكية عادلة ، وديمقراطية حقة ، ومساواة لاحيف فيها ، وإيمان بحقوق الانسان وحماية لها .

ولاشك أن مبادىء الشيوعية معروفة ، ومصادرها كثيرة متعددة ، وأن محاربة النشاط الشيوعى فى العالم الحر لايعنى الجهل بهذه المبادىء أو التزوير عليها .. ومن البدهى أننا هنا حين نتحدث عن الاسلام ننظر الى مبادئه نفسها ، بصرف النظر عن مدى تطبيقها اليوم فى العالم الاسلامى .

وعلى هدى هذا المنهج نسير الآن فى البحث والموازنة .

الحضارة بين المادية والروحية

— ١ —

للشيوعية رأيها فى أسس الحياة والوجود والحضارة ، الذى يتجمع فى فلسفة مادية عجيبة ، لاتؤمن بالمثل ولا الروحيات والمعنويات .

فهى ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر ، مستقلة عنه ، والمادة أولا ، ثم يتلوها العقل .. ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية ، التى هى عندهم انعكاس الوجود . ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادىء العقل البشرى المجردة ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى (١) ، ويقول انجلز : إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليست المادة من إنتاج العقل بل إن العقل ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة (٢) » .

وهى تذهب إلى أن العالم بطبيعته مادى وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة (٣) ، « فهى تؤمن بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله (٤) .

ويرى كارل ماركس أن امتداد هذا إلى دراسة الحياة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع يؤتينا نتائج على جانب عظيم من الأهمية لأنه يفسر تطور المجتمع ، ويرجع

---

(١) الدستور السوفيتى لفؤاد محمد شبل

(٢) ٣٣ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨

(٣) ٣٠ الدستور السوفيتى (٤) ٥٣ الشيوعية فى الميزان

حوادثه إلى أسباب مادية بحيث لا يترك شيئا منها للمصادفة أو للارادة الإلهية أو للأسباب العليا الخارجة عن الطبيعة (١) .

ومن ثم ترجع الشيوعية كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة إلى انعكاسات الأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية ، وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة (٢)... وتاريخ ارتقاء المجتمع هو عندهم قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج (٣) ، وتهتم بتفسير الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا (٤) ينكر الدين (٥)

والفلسفة الشيوعية إلحادية بطبيعتها ، معادية لكل مايمت بصلة إلى الدين ، وكان ماركس زعيمها الروحى وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثــل ولا يدين إلا بالمحسوسات ، ويقول : لا إله والحياة مادة (٦) ، ويقول : رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين وعلى الداعين إليه (٧) ، ويقول (هوبز) إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة لنا ، وأنا لاأستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، إن وجودى الخاص بى هو وحده الأمر المؤكد أما ماعداه فخيال لا أصدقه » (٦) ، ويقول إنجلز : (٧) لامحل مطلقا لوجود خالق » ، ويقول زعيم لهم : الحزب الشيوعى لا يمكن أن يكون محايدا تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه (٨) » ، ويصرون على أن « الدين هو مخدر الشعوب (٢) .

وللمذهب المادى دعاة فى القديم والحديث ، ويناقضه المذهب المثالى والإرادى والحيوى ، ومن أنصاره هيجل وديكارت وشوبنهور ونيتشه وبرجسون وسواهم . وينقده كثير من الباحثين

وهو على أى حال ينكر العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية

---

(١) ٣٦ و٣٧ نقد النظرية الماركسية (٢) ٦٧ إنجلز
(٣) ٧٩ المذاهب السياسية المعاصرة لعلى أدهم ، و١٧ إنجلز
(٤) ٣٢ الدستور السوفييتى (٥) ٥٢ الشيوعية فى الميزان
(٦) ٥٢ المرجع (٧) ٥٣ المرجع
(٨) راجع ١٤٢ الدستور

والجوانب الانسانية والمعنويات الكريمة من فنون وآداب وديانات وسواها ، بما هو دعامة الحضارة ، والذين يعترفون بها من الشيوعيين يمسخونها ويردونها إلى عوامل مادية .

— ٢ —

ان هذا المذهب المادى الذى ينتهى إلى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض أسس الاسلام ومبادئه أبعد مناقضة . وينكره الإسلام ويحاربه .. والذين يؤمنون بمثل هذه المبادىء الهدامة هم فى رأى الاسلام مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا الى دين الله ، لانهم يعملون على مسخ الفطرة الإنسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ، ويهدمون الأسس التى بنتها البشرية على مر الاجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية .

وفلاسفة الفكر الحديث يصرون على الاعتراف بالله والايمان بالدين ، يقول شوبنهور : إن فكرة الاله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية . وهى تلك الافكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء ، ويقول رينان : من الممكن أن يضمحل كل شىء تحبه الاالتدين ، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . وكان تولستوى المبشر الروحى بالشيوعية مؤمنا بالدين ، وكان يقول : إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة ؛ ويقول : انى لا أعيش اذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولو أنى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمن بعيد . عش باحثا عن الله واذن فلن تعيش بدونه . واذن يقوى اعتقادك فى الكمال الخالق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة .. ان البشر لا يزالون فى فجر عصر العلم وكلما ازداد ضياء العلم سطوعا جلا لنا شيئا فشيئا صفة خالق مبدع . وان التواضع والايمان القائم على العلم يدنوان بنا رويدا رويدا الى معرفة الله (١) .. ويؤكد علماء الذرة والفلك والحياة والرياضة وجود الله لان لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له (٢) .

---

(١) راجع المختار عدد فبراير ١٩٤٧ من مقالة لرئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك عن كتاب الانسان ليس وحيدا (٢) راجع المصرى عدد ١٩٥١/٨/٢٣

والاسلام يدعو الى الدين والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والثقة بالمثل العليا والاعتزاز بالفضائل الانسانية وبالقيم الروحية .. وأساس الحياة عنده هى الروح والمادة تبع لها والروح هى التى ناجت الله فى الأزل وعاهدته على الايمان بالدين كما يقرره القرآن الكريم(١) . ثم خلقت المادة ، وحلت الروح فى الجسم وبدأت الحياة تنمو ، وبعد هذه الحياة الدنيا يفنى الجسم ، وتنطلق الارواح ، وتبقى مخلدة ، حتى يأذن الله بالبعث وإحياء الأجسام من جديد .. فالاسلام لا ينكر المادة إطلاقا وإنما يثبتها ويجعلها مسخرة لخدمة الروح .

وكل هذه الأفكار الاسلامية تهدم الأساس الأول الذى بنيت عليه الشيوعية .

وجميع الحضارات القديمة والحديثة على السواء لم تقم على أسس مادية محضة ، إنما كان للعوامل الروحية أثرها البعيد فى قيامها ونموها ، والاسلام يدعو إلى بناء الحياة على الروح : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا(٢) » .. ويدعو إلى التحرر من أسر المادة والعيش فى رحاب التأمل والحرية والملأ الأعلى الفسيح ، ليتم وجود الانسان وكماله وحريته فى الحياة .. وذلك كله هو الأساس الأول للحضارة فى رأى الإسلام .

---

(١) راجع آية ١٧٢ الأعراف (٢) راجع آية ٧٧ القصص

الحرية الدينية

فى ظل الاسلام والشيوعية

— ١ —

والحرية الدينية هى أعظم حق من حقوق الانسان ، وقد أيدتها المذاهب الفكرية الحديثة ، ونص عليها ميثاق الامم المتحدة .

والاسلام يدافع عن الحرية الدينية إلى أبعد مدى ، وينتصر لها ، ويأذن للمؤمنين الذين يضطهدون فى دينهم بالدفاع عنه بالسيوف ، وهو لا يبيح لأنصاره أن يتحكموا فى الحريات الدينية . ويأمرهم أن يحترموا الأديان : « لا إكراه فى الدين (١) » ، « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه » (٢) وأن يبروا أهلها ويقسطوا إليهم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٣) » ، ووصايا رسول الله وخلفائه فى احترام الحريات الدينية مشهورة .

ولكن الشيوعية الحديثة تتنكر لهذه الحريات تنكرا شديدا .. وأعمال دعاتها وزعمائها فى بلادهم شاهد صدق على ما نقول .. ففى روسيا نجد أن الثورة الشيوعية فيها قد بدأت بحملة قاسية على رجال الدين ، فقتل عدد كبير منهم ، وحرم عليهم الظهور فى المجتمعات العامة ، وأغلقت بيوت العبادة ، وصودرت أوقافها ، وحرم الشيوعيون تدريس الدين ، وألغوا القسم به وألفوا الجمعيات للدعاية اللادينية ، وأصدروا مجلة أسبوعية اسمها « بلادين » . وفى عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر بموسكو لوضع الخطط الخاصة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الالحاد فى المدارس والجيش ، وأخذ « اتحاد الالحاد » فى النشاط حتى بلغ عدد فروعه فى ١٩٣٥ سبعين ألفا تضم الملايين .. وفى عام ١٩٢٩ صدر قانون يحظر الدعاية الدينية ويعتبرها عملا

---

(١) من آية ٢٥٦ البقرة (٢) ٦٧ الحج (٣) ٨ الممتحنة

(١) ١٣٩ الدستور السوفييتى

غير مشروع ، وبذلك عطلت مادة الدستور التى تنص على أن الدعاية الدينية مكفولة كالدعاية اللادينية .. وفى مايو ۱۹۳۲ صدر قانون يهدف إلى القضاء على الهيئات الدينية خلال خمسة أعوام جاء فيه : فى أول مايو ۱۹۳۷ لن يبقى فى كافة البلاد أى مكان للعبادة ويجب القضاء على فكرة الآله بحسبانها من بقايا القرون الوسطى (۱)، ونصت قوانين عام ۱۹۳۹ على حظر الاجتماعات الدينية الخاصة وعدم السماح للهيئات الدينية بالاحتفاظ بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم فى المراسيم الدينية ، وحظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية . . . وإذا كانت روسيا قد أطلقت الحريات الدينية خلال الحرب ، فإنما كان ذلك ذرا للرماد ودفعا للشعب إلى تحمل مرارة الكفاح وكسبا لعطف شعوب العالم لتساعد روسيا فى محنتها ، ولا يعنى هذا إيمان الشيوعيين بالدين ، فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل فى صفوفها إنسانا يؤمن بدين من الأديان (۱) ، ومنزلة الدين فى روسيا خلال الحرب وبعدها لا تصل إلى عشر ما كانت عليه قبل الثورة الشيوعية (۲) ، والتعليم فيها ينشر الألحاد ، والجماعات كلها تنفر من الدين ، وتأثير رجال الدين على الشباب قليل .وهم يخضعون لتوجيهات الدولة خضوعا مطلقا

— ۲ —

وللشيوعة موقف خاص من الاسلام يمثله قول مولوتوف : لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين

ولقد عادى زعماؤها فكرة الجامعة الاسلامية لقوميات المسلمين هناك ، ولم يأت عام ۱۹۳۳ حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعت صلة هذه القوميات بالعالم الاسلامى ، وفى عام ۱۹۳۷ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية ، مع أن روسيا أباحت للارمن والجورجيين — وهم أقل من المسلمين فى بلادها — الاحتفاظ

(۱) ١٤٢ المرجع

(۲) راجع كتاب روسيا السوفيتية لمؤلفه دالن

بحروفهم الهجائية الخاصة ، ولم ترغمهم على اتخاذ الحروف اللاتينية أو الروسية (١)

وبهذا أصبح المورد الثقافى للمسلمين هو اللغة الروسية وآدابها وثقافاتها عوضاً عن اللغة العربية والثقافة الاسلامية .

وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية للمسلمين ، إذ لا تجيز الشيوعية أن تكون لأية قومية أو أقلية عنصرية فى بلادها ـ ومن بينهم المسلمون ـ علاقة روحية أو ثقافية بقومية أخرى تماثلها فى العقيدة أو الثقافة خارج نطاق بلادها (٢) . وبهذا حيل بينهم وبين الاتصال روحيا وثقافيا بالعالم الاسلامى الحر ، وحرم عليهم الحج إلى بيت الله .

وقد اضطهدت الشيوعية المسلمين فى تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة وخوارزم ، ونفت الكثير منهم إلى مجاهل سيبريا .

وظهر شعورها حيال المسلمين فى تأييدها المطلق للصهيونية ، وفى خذلانها للقضايا العربية فى هيئة الأمم .

إن الحرية الدينية فى ظلال الشيوعية لا وجود لها . وهذا هو ما يأباه الاسلام وتنكره مبادئه السمحة .

---

(١) ١٨٩ الدستور السوفييتى

(٢) ١٩٠ المرجع .

السلام

الاجتماعى بين الاسلام والشيوعية

— ١ —

وفكرة السلام الإجتماعى مبسوطة فى القرآن الكريم بسطاً واسعاً ، وقد دعا اليها الإسلام ورسوله ، وتناول أطرافا منها التشريع الإسلامى وحرص على تطبيقها الخلفاء والولاة المسلمون ، ويمثل بعض مظاهرها قول الرسول : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، والقول المأثور : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به

وليست فكرة السلام الإجتماعى أمراً مندوباً يدعو اليه الاسلام . ولكنها فرض واجب وعمل حتم ، وهى جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، وأن على كل إنسان فيه أن يؤدى الواجب عليه للآخرين بنفس الشعور الذى يشعر به نحو أسرته ، وأن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يشعر روحه تلك المعانى ويعتقد أنه لا يتم إيمانه بدونها ، وأن عليه أن يضحى من أجل غيره ، ويؤمن بالايثار ، ويبذل المال والروح فى سبيل أخيه الإنسان ، ولذلك حرم الاسلام الرذائل الاجتماعية ، ونهى عن الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، وأوجب الزكاة ، وحث على الصدقة والإحسان وتفريج كربة المهموم ومساعدة المحتاج . . وأوجب العدل بين الناس ، وحارب الأهواء والشهوات والمحسوبية ، وحتم التكافل الاجتماعى بين الناس ، وجعل أساس العلاقة بين الانسان والانسان وبين الجماعة والجماعة هو السلام ، وأوعد المخالفين أشد الوعيد .

أما الشيوعية فتؤمن بمبدأ اجتماعى عجيب . هو « صراع الطبقات (١) » . . يقول

---

(١) ٧٧ الدستور السوفييتى

ومارکس إنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات . .
ويقول ماركس زعيم الشيوعية الروحى : لن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولا النهوض بنفسها مالم تنسف جميع طبقات المجتمع المتراكمة فوقها ، ويقول : إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة ... ويدعو ماركس إلى الثورة والانقلاب الشامل كضرورة للاصلاح .. ويؤثر عن لينين : من غير نظرية ثورية لن تكون حركة ثورية .. ويقول ستالين من رسالته فى المادية الجدلية : تحرير الطبقة العاملة لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط .

هذه النظرية نقدها علماء الاجتماع نقدا عادلا (١) ، وهى ولا شك تبذر بذور الحقد والبغض والكراهية بين الناس ، وتعمل على نشر الثورات والحروب ، وتقضى على التعاون والسلام فى المجتمع .. مما ظهر أثره فى الثورة الشيوعية فى روسيا واضحاً ملموســـاً .

وهى نظرية لا يقرها عقل أو دين ، ويحاربها الاسلام حربا شعواء ، لأنها تفسد الأمن والسلام ، وتقضى على الاخاء الانسانى ، وتجعل بعض الناس أعداء لبعض ، وتولد البغضاء والشقاق فى المجتمع .

وفى عصور الجاهلية الأولى لم تدع جماعة أو أمة إلى « صراع الطبقات » . .
ويسير الأصلاح العام فى الدول المتحضرة بالوسائل السلمية دون سواها ، ولقد أوجب الاسلام أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض أخوة متحابين متعاونين فى الحياة ، وكذلك سائر الطبقات . « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

---

(١) ٧٤ — ٨٢ نقد النظرية الماركسية

السلام العالمى

فى الاسلام والشيوعية

السلام العالمى دعوة إلى التعاون بين الأمم والشعوب ، وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية ، وتحريم الحروب التى تقوم للاستعمار والاستغلال ، بل تحريمها لغرض نشر الدين أيضا : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك (١) » والاسلام بنظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السلام ويدعو اليه ، ويجعله هدفا من أهداف الانسان ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها (٢) » : ويؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا (٣) » . ولذلك ألغى الاسلام العصبيات وفوارق الألوان والأجناس داعيا إلى الوحدة الانسانية ، وإلى أن يعيش الناس كما بدأوا أمة واحدة : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا (٤) » ، « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (٥) » ، ولم يشرع الاسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

أما الشيوعية فتؤمن بالحرب وتدعو إليها ، وتقضى على السلم العالمى : بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية (الكومنترن) التى تحدد أهدافها فى نشر الشيوعية فى العالم وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات والقلاقل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الدول تمهيدا لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية ، وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقربا للديمقراطيات ، فقد حل محلها

---

(١) ٦٧ الحج (٢) ٦١ الأنفال (٣) ١٢ الحجرات (٤) ١٩ يونس

(٥) ١٤ الشورى

مكتب الاستعلام الشيوعى « الكومنيفورم » ، « وموسكو وإن تظاهرت بحل الدولية الشيوعية لا تزال توجه الحركات الشيوعية فى جميع أنحاء العالم (١) » . ولا يترك ستالين فى كتابه « مشا كل الليفينية » أثرا للشك فى اعتقاده الذى لا يتزعزع فى أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لاشعالها ، وجاء فى مقدمة الكتاب : إن دراسة تاريخ الحرب لتقوى الاعتقاد فى النصر النهائى للهدف الجليل الذى عمل له لينين وستالين وهو انتصار الشيوعية فى العالم كله (٢)

وهذه الأفكار كلها تهدم صرح السلام العالمى ، وتناقض ما يؤمن به الاسلام ويدعو اليه ، والاسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون الانسانى ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستتره ، والجاسوسية المتخفية ، والتمرد على النظام العام فى الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو فى الفلسفات القديمة والحديثة على السواء ؟ لقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران أن العلاقة بين الدول هى علاقة العداء والمنافسة ، ويقرر أرسطو أن غير اليونانيين أعداء خارجون على القانون ، وإخضاعهم واجب سياسى ، فأين هذا من سماحة الاسلام وجلال مبادئه وأهدافه ؟

---

(١) ٦٤٢ آثرت الحرية لكرافتشنكو
(٢) ٦٤٨ المرجع

السر فى قيام الإسلام

إن السر فى قيام الشيوعية وظهورها هو هـــذا الخداع الغريب الماكر الذى تتراءى فيه للفقراء والمحرومين والطبقات المظلومة فى مظهر المنقذ المختار لنشر الغنى والسعادة بين الناس ، وما تؤمن به الشيوعية من صراع الطبقات ، وعملها فى بيئة كانت المرتع الخصب لها ، والظروف الدولية التى كانت تحيط بالعالم عقب الحرب الكبرى ، وطغيان زعماء الشيوعية طغيانا لم يعرف له نظير ، مما ظهر فى المجازر البشرية القاسية وعدد الضحايا الهائل لها فى روسيا ، وسجون الاعتقال ، والتشريد والنفى إلى مجاهل سيبريا ، والبطش بخصومها فى الرأى ، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ، والقضاء على الطبقات المعارضة لها فى بلادها ، وأخيرا هذه الشيوعية الدوليه التى يؤيدها الذهب والدعاية والنفوذ

وهذه كلها وسائل لا يؤمن بهـا دين ؛ ولا يقبلها ضمير ، ولا يوافق عليها عقل ، وما أضل عقول الجماهير الجاهلة التى تفهم أن الشيوعية تدعو بنفسها لنفسها لأنها حلم الساعة .

أما الاسلام فعلى العـكس من ذلك ، وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم على العكس من ذلك .

لم يكن الاسلام ثورة ولم يدع اليها . ولم يبن خططه على حرب العصابات وصراع الطبقات ، ولم يخدع محمد المحرومين ، ولم يدع إلى مبادىء تافهة يعجز عن تنفيذها ، ولم يؤيده ذهب ولا فضة ولا نفوذ أو سلطان ولا جاسوسية أو لصوصية . إنما كان الاسلام رسالة إلهية للاصلاح ، وهى رسالة الحرية والاخاء والمساواة والعدالة الدينية ، والعلم إلى العالم كافة والبشرية بجميع طبقاتها : ولم يكن السر فى قيامه وانتشاره لا لما حواه من مبادىء الحق والقوة والخير والجمال (١)

---

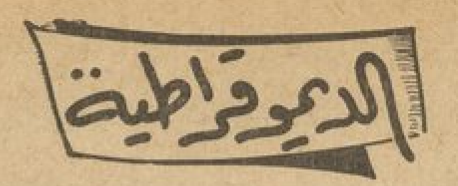
(١) راجع كتاب السر فى انتشار الاسلام - محمد عرفة - ط ١٩٣١ ، وراجع ٢١٧ رسالة التوحيد لمحمد عبده - ط ١٣٦١

لقد جمع الاسلام اليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من لاثين سنة ، وتناول من بقية الأمم ما بين المحيط العربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وكان قيامه فى الجزيرة العربية أثرا للدعوة اليه واقتناع العرب به ، اذ لم يفرض عليهم بقوة السلاح ، ولا بتأييد من عصبية أو سلطان .

ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعا عن حرية العقيدة التى كان الشرك يريد القضاء عليها ، وعلى نور الله الذى انبثق من الصحراء على يدى محمد . وكانت مبادىء الاسلام نفسها ، وروح العدالة المطلقة والاخاء والمساواة التى سادت المسلمين الاولين بإيحاء قوى من دينهم ، هى السبب الاكبر فى انتشاره : لقد دعا الاسلام بنفسه لنفسه ، ولم يؤمر محمد بشىء إلا بالدعاية لرسالته « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم (١) » ، ويحق الله الحق بكلمته ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

---

(١) ٦٧ الحج



بين الاسلام والشيوعية

— ١ —

تصريف شؤن الدولة على أساس نظام نيابى صحيح ، أوحكومة الشعب للشعب ، أو تكافؤ الفرص ، هو الديمقراطية التى لا يتحقق لها وجود الا بالمساواة التامة بين الناس ، والاعتراف الكامل بحقوق الإنسان ورعايتها ، والايمان بالحرية الفردية ، وبأن الدولة وجدت من أجل الفرد ، وبضرورة إنماء شخصية الانسان فى الحياة .

والديمقراطية لاوجود لها فى المجتمع الشيوعى ، فالحريات مصادرة ، والمساواة معدومة ، حتى فى الاقتصاد وأجور العمال ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لاحد له ، والحكومة تسير على النظام الفردى الاستبدادى (١)، ولست تجد هناك ، مجتمعا عماليا ، حتى ولا ديمقراطية اقتصادية (٢) .

أما فى الاسلام فالامر على النقيض : حرية ومساواة وعدل بين الناس والحكومة شورية دستورية أساسها مشيئة الشعوب ، والحاكم مسئول عن أعماله ، وحقوق الانسان فى الحياة والحرية والامن والتعليم والتامين الاجتماعى وسوى ذلك مصونة ... إن الاسلام يؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبحكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد وللعمل على رفاهيته ، وبالحرية الاقتصادية . روحه التسامح وحرية الرأى للافراد والجماعات ، ومحاربة شتى ألوان التمييز بين الناس .. وذلك هو أساس الديمقراطية الحقة .

---

(١) ٤٢٣ الدستور السوفييتى (٢) ٤٨٠ آثرت الحرية

والحرية ـ وهى دعامة الديمقراطية والحياة الانسانية المتحضرة ـ ليس لهاقيمة كبيرة عند الشيوعيين ، لأنها فى رأيهم تلهى الجماعات عن الالتفات إلى الظلم الاقتصادى (١) ، الشيوعية تحاول تحقيق المساواة المزعومة بالغاء حرية الانسان ، فهى لكى تطعم الفرد تسلبه حريته

حرية الفكر معدومة ، فالناس يفكرون على النمط الذى يعجب الحزب الشيوعى ، وليس هناك مجال لتفكير مستقل . وحرية الصحافة والنشر مقيدة ، ولا يباح دخول صحيفة أو كتاب أجنبي معاد فى فكرته للشيوعية (٢) . والحرية السياسية مفقودة ، إذ ليس هناك إلا حزب واحد وحاكم واحد وانتخابات صورية لاتنافس فيها . . والحرية الدينية معطلة . .

والحرية الاقتصادية لاوجودلها ، فالمصانع والمزارع وأدوات الانتاج ومرافق الثروة ملك للدولة ، والفرد أجير عندها نظير إطعامه ، لارأسمالية ولكن هناك الرأسمالى الأكبر الذى لايقاوم وهو الدولة ، مما ينعدم معه التنافس الاقتصادى الذى هو أساس الحرية الاقتصادية ..

والحرية الشخصية محجور عليها ، لأن الحزب الشيوعى يهيمن على حريات الناس ، وسلطان البوليس السرى لاحدله ، وللقاضى أن يحكم باعدام من يرى أنه خطر على الأمن العام ولو لم تقم الأدلة على ذلك ، والعامل فى المصنع لايملك أية حرية ، وعليه أن يعمل ، لأن « من لايعمل لايأكل » ، وفى عام ١٩٣٠ صدر قانون ربط العمال بمصانعهم ، ومنعهم من مغادرة مكان عملهم إلا باذن خاص ، وبعد ذلك بعامين صدر قانون بطرد العمال الذين يتأخرون عن العمل ولو يوما واحدا دون سبب كاف (١) . وجاء فى قانون ١٩٣٩ للعمل أنه إذا تأخر العامل عن عمله أكثر من عشرين دقيقة فانه يقدم إلى النيابة المحلية ويحاكم ، فاذا أدين حكم عليه بالسجن أو السخرة (٢) ، ونص على عقوبة الذين يتسترون على مجرمى التأخير ، ويجب على الفرد الحصول على إذن خاص لقضاء إجازة ولو يوما واحدا بعيدا عن بيته ، والرحلة خارج البلاد

---

(١) ١١٩ المذاهب السياسية المعاصرة (٢) ٩٤ الشيوعية فى الميزان

(١) ٩٨ الشيوعية فى الميزان

ممنوعة ولا يصرح بها إلا للمبعوثين فى مهمة رسمية ، وفرض عام ١٩٣٢ نظام البطاقات الشخصية التى تتضمن شتى المعلومات عن كافة الشئون التى يهم البوليس السياسى معرفتها عن الفرد ، والستار الحديدى مطبق حول البلاد التى تدين بالشيوعية ، والشعب فى عزلة تامة . وقد قام الشيوعيون فى روسيا بحركات تطهير عامة كثيرة ، لابادة خصومهم فى الرأى ، وذهبوا بزعماء ومفكرين وكتاب إلى مجاهل سيبريا وسجون الأورال ومعتقلاتها ، ولكى تعرف كيف يعامل الشيوعيون معارضيهم فى الرأى ، اقرأ ما يقول دافيدج تيقوليفسكى فى كتابه «لاشىء سوى سلاسلهم» : إن فى روسيا اليوم ١٤ مليونا من العبيد فرضت عليهم السخرة، ويعيشون فى حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة ، ويحرسها رماة يرابطون فى أبراج مزودة بالأنوار الكشافة القوية، وأسراب من الكلاب لمطاردة الفارين من الأرقاء، وهم يؤدون أشق الأعمال وأخشنها وأفدحها ، وهؤلاء من الذين يعارضون الشيوعية أو ينقدونها أو يشتبه فى أمرهم ، ومن رجال الدين الذين يعرقلون دعوة الالحاد .. (١) - وما أصدق ما يقول أندريه جيد : إن الشيوعية لا تؤمن بشىء اسمه الحق

فأين هذا من حماية الاسلام للحريات ، وإطلاقه لها وتحريمه الحجر عليها : لحرية الفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية والحريات العامة ، وحرية الاجتماع والخطابة ، والحرية الثقافية والسياسية والدينية ، كل هذه الحريات قد قررها ودعا اليها وحماها الاسلام وكتابه الكريم ، وأبطل الاسلام الحكم الاستبدادى ، وأن الحاكم أو الدولة ظل الله الأرض ، وليس للحاكم فيه أكثر مما للمحكوم , يقول عمر لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ويقول : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، إن رأيتمونى على باطل فقومونى ، ويقول الرسول : الأمام راع ومسئول عن رعيته .

ولقد حرر الاسلام الانسان من الجهل والجمود والفاقة ، وحرر المرأة من جور الرجل ، وسواها به فى الحقوق والواجبات ، ودعا إلى تحرير الأرقاء ورفعهم إلى منزلة السادة ، وحرر الطبقات من طغيان المستبدين ، وحرر الروح الانسانى من الشهوات والترف والمادة .. إنه بحق دين الحرية والكرامة الانسانية فى الحياة .

---

(١) ٩٨ الشيوعية فى الميزان

والمساواة ركن من أركان الديمقراطية ، والشيوعية تزعم أنها تؤمن بالمساواة وتطبقها ، وتتخذ من ذلك وسيلة لدعايتها الجوفاء ، وتسرف فتدعى أنها تحقق للانسان المساواة الاقتصادية ، ولعل كلام ستالين فى خصومه عام ١٩٣٤ خير رد على ذلك ، قال : إن هؤلاء القوم يحسبون أن الشيوعية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد فى المجتمع ، ألاما أسخفه من رأى يخرج عن فكر مشتت ، وإن المساواة التى نادوا بها هى التى أضرت بصناعتنا أكبر الاضرار ، ... وبينما كانت الشيوعية تعمل لإلغاء الطبقات والمساواة فى الأجور ، إذا نحن نرى اليوم فى روسيا عدة طبقات متفاوتة الدخل ، وهى طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣ ٪ من السكان ولها نحو ٣٢ ٪ من دخل الدولة ، وطبقة الصناع وعددها ٢٤ ٪ ولها من الدخل القومى ٣٢ ٪ ، وطبقة الزراع وعددها ٥٤ ٪ ولها ٣٣ ٪ من الدخل ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا عن الشيوعية وعددها ٩ ٪ ولها فى الدخل ٣ ٪ . أما المساواة الاجتماعية فتتلاشى هناك رويداً رويدا ، فقد فرضت التحية العسكرية وأعيدت الرتب فى الجيش ، وأعيد لقب وزير ومجلس وزراء ، وزادت ألقاب ستالين وخلفاؤه . وسيطرة طبقة واحدة هى طبقة العمال على سائر طبقات المجتمع تفنيد لآرائهم النظرية فى المساواة .

أما المساواة فى الاسلام فحدث عنها ولا حرج ، مساواة كاملة بين الناس جميعا ، بين المرأة والرجل ، والصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات بين الأغنياء والفقراء ، مساواة يحميها الاسلام وكتابه ورسوله وخلفاؤه ، ولا تعرف أى لون من ألوان التمييز بين الناس ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده معه راكب ، وولى رسول بلالا الحبشىَ على المدينة وفيها سادات الأنصار والمهاجرين وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وقال : ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ؛ وأذن الخليفة عمر لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل سادة قريش ، وألغى الاسلام الفوارق والامتيازات ، ووزع الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحاكم والمحكوم جميعا على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، ويؤيد مبدأ المساواة فى الاسلام عدالة اجتماعية قوية أيدها ودعا اليها ، وتقوم على الأخوة

والتكافل العام ، وأساسها التحرر الوجدانى ، وتتخذ من الضمير البشرى والتشريع القانونى وسائل لتحقيقها وإذاعتها بين الناس . فأين هذا من الفلسفات الحديثة التى تتنكر لمبدأ المساواة ؟

— ٤ —

والشيوعية — التى تنزل خصومها فى الرأى منزلة العبيد ، وتحبذ الثورة وصراع الطبقات ، وتعمل على آثارة القلق والاضطراب فى الجماعات والشعوب — لا تعرف معنى الاخاء ، فاين هذا من الاسلام الذى أكد الاخوة الانسانية ، والغى نظام الطبقات والعنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء ، وجعل المؤمنين إخوة فى الدين ، والناس جميعاً إخوة فى الانسانية ، حتى الخدم جعلهم الرسول إخوان المخدومين فقال «اخوانكم خولكم» .. كل هذا فى عصر كان يرى — كما يرى أرسطو وأفلاطون من قبل — حرمان الموالى والصناع من الحقوق المدنية لانحطاط ما يمارسون من مهن ، وكما رأى أرسطو من أن الله اوجد البرابرة ليعيشوا أرقاء ، وسلب ثروتهم من الأعمال الشريفة .

كل هذا دليل على أن الاسلام أثبت قدما فى الديمقراطية ، وأصلح مذهبا وأعدل رأيا فيها ، وأقوم سبيلا إلى الاصلاح العام ، وأنه ما من دين أو مذهب يبلغ فى ذلك الباب ما بلغه الاسلام .

الإسلام شريعة التقدم والنهضة

حقوق الانسان فى الاسلام الشيوعية

حقوق الانسان عند الشيوعيين مستمدة من الجماعة ، وإرادته جزء من إرادتها ، وليس للفرد كيان مستقل عنها

تقرر الشيوعية للانسان حق العمل ، ولكنها تحجر على العامل وتربطه بصنعه ، وتمنعه من تغيير العمل والمصنع .. وقوام نظام الاجور فى بلادها ، الأجر بالقطعة، الذى تنفر منه نقابات العمال فى العالم .. والاسلام الذى شرع المضاربة والشركة والمساقاة والمزارعة والاجارة وسواها من أبواب العمل ، وحمى العامل ورعاه ، وحافظ على حريته وأجره ، وحث الناس على العمل إنما يهدف إلى القضاء على البطالة والفقر بين الناس .

وتقرر الشيوعية حق الراحة الأسبوعية للمواطنين . ونحن نعلم أن يوم الجمعة عيد أسبوعى للراحة والاستجمام فى الاسلام ، الذى يحـــترم أيام الراحة كذلك عند غير المسلمين .

وتقرر حق الضمان الاقتصادى بالحصول على تأمين مادى .. عند الشيخوخة أو المرض ، أو العجز عن العمل ، وقد سبق المسلمون إلى تطبيقه فى بلادهم منذ عهد بعيد ، فكان عمر يصرف للفقراء مسلمين وغير مسلمين حاجتهم من بيت المال - وكان يعتبر الاطفال عاجزين عن العمل ويفرض لكل مولود مائة درهم ، فاذا ترعرع بلغ به مائتى درهم ، فاذا بلغ زاده ، ويجعل أجرة رضاع الطفل ونفقته من بيت المال وكان يقسم ما فى بيت المال على الناس بحسب بلائهم فى الاسلام ، حتى استغنى الناس وأبوا أخذ الصدقات ، ولم يوجد فقراء فى عهد عمر بن عبد العزيز يأخذون الزكوات ، فاشتريت بها رقاب وأعتقت ، ورأى ابن الخطاب فى طريقه إلى دمشق قوما

بجذومين من النصارى فأمر أن يجرى عليهم القوت من بيت المال . على أن نظام الضمان الاجتماعى لم يبلغ فى روسيا ما بلغه فى شمال أوربا وامريكا

وتقرر الشيوعية للانسان حق التعليم ، وقد سبقها الاسلام إلى ذلك منذ أجيال ، ويؤثر عن رسول الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكان التعليم مجانيا فى شتى مراحله فى بلاد الاسلام ، مع صرف الغذاء والكساء للطلاب .

وتقرر حق المرأة فى التساوى مع الرجل وهو حق سبق به الاسلام

إن الاسلام ليحمى حق الانسان فى الحياة والحرية والعدالة والانصاف والمساواة والأمن وحقه فى التعليم وحقه فى الحكم الدستورى ، وفى كل جانب عادل من جوانب الحياة .



فى الاسلام والشيوعية

— ١ —

يستخدم لينين الاشتراكية والشيوعية بمعنى واحد ، أما ماركس فيطلق على نظام الانتاج الموزع — مع توزيع حصيلته وفقا لنوع وكمية العمل المنجز — المرحلة الأولى للشيوعية ، ولم يسمه بالاشتراكية ، وأطلق على النظام نفسه الذى توزع حصيلته وفقا لحاجات الأفراد المرحلة العليا للشيوعية .

والاشتراكية — اقتصاديا — تنادى بالملكية المشتركة لادوات الانتاج مع مع اعترافها بدور النقود والأجور ، شعارها : « من كل وفقا لمقدرته وإلى كل وفقا للعمل المنجز » .

أما الشيوعية نظريا فمبدؤها « من كل وفقا لمقدرته وإلى كل وفقا لحاجته » .

فالشيوعية تقول بحصول الفرد على نصيب فى الانتاج طبقا لحاجته ، والاشتراكية تجعل ما يخصه جزاء على الخدمات التى يؤديها (١) . وينكر الاشتراكيون « صراع الطبقات » وفكرة الثورة كوسيلة لتحقيق مبادئهم (٢) ، من حيث يؤمن بها الشيوعيون و بمبدأ إلغاء الملكية الفردية وتأميم جميع المؤسسات ووضع أموال الأمة فى يد الحكومة ، والقضاء على التجارة الداخلية ، وقيام نظام السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجات معيشته ، وتطبق نظام الأجور الذى وضعه لينين ، وتحتكر الدولة وحدها التجارة الخارجية ، وتهيمن على النظامين النقدى والمصرفى ، وتطبق

---

(١) ١٩٦ النظام الاشتراكى — راشد البراوى ١٩٥١

(٢) ١٩٨ المرجع

الملكية المشتركة بمنح الفلاحين الارض على سبيل الاعارة المؤبدة يستغلونها على أساس تعاونى ، والعمل وحده له حق الحصول على دخل . ولما فشلت الشيوعية فى توزيع الأجور وفقاً للحاجة أخذت توزعها وفقاً للانتاج . . وهذه المبادىء فيها مغالاة شديدة ، مما يجعلها جوراً اقتصادياً لاحدله ، وخنقاً للحريات قاتلا .

— ٢ —

إن الاشتراكية أنجح من الشيوعية فى علاج الفقر والبطالة ، وهى تؤمن بالديموقراطية وحرية الفرد ، مما يتلاقى مع مبادىء الاسلام الكريم الذى هو دين اشتراكى حقا ، بل هو المثل الأعلى للاشتراكية السليمة .

الاشتراكية فى الاسلام هى العدل والتعاطف والتكافل الاجتماعى ، وهى الايثار والتضحية لخير الجماعة ، وهى من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية ، وتؤمن بالضمير الإنسانى ، ومن الجانب الاقتصادى تهدف إلى مقاومة الاستغلال فى شتى صوره ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الديموقراطية والشورى وحرية الرأى والمساواة ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط بها حقوق يجب أن تؤدى ويجب على الدولة أن تراقب أداءها ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة وصراع الطبقات وتحرص على الأمن والسلام بين الناس ، ولا تجعل الملكية والمال وسيلة للتمييز بين الناس ، وتحمى حقوق العامل والفقير والرقيق والخادم والمرأة ، وتعمل للاصلاح العام والتعاون المثمر وتقرر التأمين الاجتماعى للفقراء والعاجزين ، وتفرض الزكاة ضريبة لمحاربة الفقر ، وتحرم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره والترف والاسراف ، وتحد من غلواء الرأسمالية ، وتكره التفاوت المادى بين الناس ، حتى لقد آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، ووزع فىء بنى النضير على المهاجرين الفقراء ، وتوصى بالاحسان والصدقة ، وتفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء القادرين على الكسب ، وتشرع نظام الوقف والوصية والقرض والهبة والوديعة والاعارة ، وتقرر فريضة الميراث ، وتنهى عن الكسب الحرام ، وتجعل الزوج مسئولا عن زوجته والأب عن أولاده ، وتحض على العمل وعلى إيجاده ، وتحترم العامل وحقوقه وتسوى بينه وبين صاحب

العمل ، وتحافظ على الملكية الخاصة وتقيم بجانبها ملكية عامة كما فى أرض الوقف والأراضى الخراجية ، وتوصى بالفقراء وبالتكافل الاجتماعى ، يقول الرسول : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى ، وقال ابن حزم : فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات بهم ولافىء سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم ،

وتسلم اشتراكية الاسلام بمبدأ الضرائب التصاعدية ، عما يظهر لك فى نسب ضريبة الجزية ، وترعى صاحب الأسرة ، فقد جعل الرسول للأعزب سهما من الغنيمة وللمتزوج سهمين (١) ، ومنع على ابن أبى طالب الحجز على الضروريات وفاء للضريبة (٢) ، وتسلم برقابة الدولة على الملكية بتقريرها مبدأ « من أين لك هذا ؟ » الذى طبقه العمران ، وأبى عمر أن يقسم أرض العراق حتى تبقى ملكا عاما للمسلمين.

هذه هى الاشتراكية بأوسع معانيها وأصدق مدلولاتها .

---

(١) ١٧ الادارة الاسلامية - كرد على - ١٩٣٤ القاهرة

(٢) راجع ٣٨ المرجع



في الاسلام والشيوعية

— ١ —

الاشتراكية لا تدعو إلى إلغاء الملكية الفردية ، وإن كانت ترى تأميم المرافق المتصلة بالخدمات العامة (١) .

أما الشيوعية فلا تقر الملكية الفردية ، وكان ماركس يرى أنها أساس النزاع بين الطبقات ، وقد قام الشيوعيون بإلغاء الملكيات الخاصة ، وتأميم مصادر الثروة فى روسيا ، ونفذوا ذلك بالقوة والعسف ، وجميع موارد الانتاج والثروة فى يد الحكومة تنتج وتوزع ، فهى صاحبة المصانع والمزارع والمتاجر والمناجم ومنازل المدن ، ويمنع القانون الشيوعى امتلاك سيارة للاستغلال التجارى ، وفى المادة الخامسة من الدستور السوفييتى : الملكية الاشتراكية إما أن تأخذ شكل تملك الدولة فتكون الثروة للشعب عامة ، أو شكل الملكية التعاونية أو الجماعية . . . ومحاربة الشيوعية للملكية الفردية استتبع محاربتها للارث وتحريمها له .

إن مبدأ إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ينافى الفطرة الانسانية ، وغريزة التملك فى الانسان ، ويدعو إلى الخمول والكسل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان . وقد طبق ذلك فى المجتمع الشيوعى فى روسيا بقوة السلاح ، ثم أخذت الحكومة فى التراجع ، فأباحت للمواطنين الامتلاك الشخصى للدخل الناتج عن عملهم ومدخراتهم ولأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ، وأجازت للفلاح فى المزرعة المشتركة أن يملك حديقة حول منزله .

---

(١) ٢٠٠ النظام الاشتراكى .

أما الاسلام فقد شرع وحمى الملكية الفردية ، وأجاز لمن أحيا أرضاً مواتاً بإذن الامام ولو ذميا أن يملكها إذا كانت بعيدة عن العامر ، على أن يعمرها خلال ثلاث سنين ، وإلا أخذت منه ودفعت لغيره .

ولا شك أن فى حماية حرية الملكية أمام الانسان تحريرا له من قيود الوصاية الاجتماعية ، واعترافا بشخصيته وكرامته الانسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ، ودفعا له على تحمل مسئوليات الحياة .

لقد بعث محمد صلوات الله عليه إلى الناس كافة ، ومعه رسالة تضىء ظلمات الحياة ، وشريعة تقضى على الأغلال والعبودية ، وبين يديه دستور خالد يهدى إلى النور والحق والحرية والمساواة والعدالة والاخاء .

ولقد حرر الاسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين فى الأرض ، ومحا الاستعباد السياسى والاجتماعى ... وقرر مسئولية الحاكم وأنه خادم الشعب ؛ وأن لا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله .

وقرر أن أول واجب عليه كذلك حماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ؛ وألغى الألقاب ونظام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس ، فكلهم لآدم وآدم من تراب ؛ ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ؛ وحرم الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل ، وجعل لكل فقير حقا فى بيت المـــال ؛ فان لم يكن فى بيت مال المسلمين ما يسد حاجات الفقراء فحقوقهم يجب أن تؤخذ من أموال الأغنياء ؛ التى كره الله كنزها ، وأنذر من يكنزها لانفاقها فى غير مرضاة الله بعذاب شديد : «والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ! فبشرهم بعذاب أليم ؛ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» .. وفرض الاسلام الخراج والجزية وزكاة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء . ودعا إلى الورع والزهد فى مال الناس . وإلى ترك الاسراف فى التملك لأنه مدعاة للترف والهلاك والخروج عن حدود الفضيلة والعفة والدين ، وأعلن وحمى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعاً .

كل هذه المبادىء الكريمة تنبئنا برأى الاسلام فى الملكية :

فهو لا يعترف بملكية اقتطعها الحاكم من مال الأمة ومنحها لمن يشـــاء دون حساب ، ولا يعترف بملكية آلت إلى صاحبها نهبا واستغلالا للنفوذ أو سرقة خفية

من أملاك الدولة ، أو تحت ضغط الحاجة الملحة المصنوعة ، ولا يعترف بملكية ملكها صاحبها بمال جمعه بشتى الوسائل غير المشروعة ، دون أن يؤدى منه حقوق الله والفقراء وزكاة المال .

وكل ملكية لا يعترف بها الاسلام يجب مصادرتها وضمها إلى بيت المال ، ومن باب أولى يجوز ردها إلى الدولة عن طريق الشراء ، ليعاد توزيعها على الفقراء توزيعا عادلا . والفقراء هنا ليسوا عددا قليلا حتى لا يحسب لهم حساب ، وإنما هم الأغلبية العظمى من الشعب ، ان لم يكونوا الشعب كله ، ممن لا يجدون الغذاء والكساء وثمن الدواء .

ولقد أباح الاسلام مصادرة الأموال التى جمعها أصحابها من دماء الناس ظلما وبهتانا ، وهذا عمر بن الخطاب قد صادر أموالا كثيرة من ولاته على الأقاليم : كعمرو بن العاص وأبى هريرة والنعمان بن عدى وعامله على اليمن وعلى مكة والكوفة والشام ، ولقد كان خلفاء المسلمين وولاتهم وعمالهم يتعففون عن مال الدولة لا يمسونه ولا يقربونه فضلا عن أن يمتلكوا أرض المسلمين ، وكان رسول الله يحاسب ولاته حسابا عسيرا ، يسألهم من أين لكم هذا ؟ وولى مرة رجلا على أموال الزكاة ، فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فقال الرسول الكريم : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى اليه أم لا ؟

وهذا عمر بن عبد العزيز لما ولى خلافة المسلمين نزل عن أملاكه التى انتقلت اليه من أبيه بالإرث الشرعى ، ومزق كتب الاقطاعات بالضياع والنواحى ، وأبطل قطائع أهله وهم أولاد الخلفاء من بنى أمية وضمها الى بيت المال ، ومزق ما معهم من وثائق بملكيتها . وكان أبوه عبد العزيز والى مصر للخليفة عبد الملك بن مروان ، فأهداه الخليفة أرض حلوان اقطاعا ، فلما ولى ابنه عمر بن عبد العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطالبه برد أرضه التى أخذها أبوه منه ظلما فى حلوان ، فقال عمر : تعال نحتكم إلى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله فان لى فيها شركاء اخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض ، وقام معه إلى القاضى فقعد الخليفة بين يديه ، وتكلم بحجته وتكلم المصرى ، فقضى القاضى للمصرى على الخليفة ، فقال

عمر بن عبد العزيز : قد أنفق عليها الف الف درهم ، فقال القاضى : لقد أكلتم من غلتها بقدرهذا ، فاطمأنت نفس عمرو ، قال : وهل القضاء إلا هذا ؟ والله لو قضيت لى ماوليت لى عملا .

وهناك كثير من الملكيات قد امتلكت من الفلاحين الفقراء المدينين بطريق المزايدة ، وهو ملك فيه إثم وشبهه ، ولقد كان على بن أبى طالب وهو خليفة المسلمين ينهى عماله أن يبيعوا حاجيات الفلاح وأدوات زراعته ومايعيش عليه هو وأولاده لسداد ماعليه من دين أوخراج .

هذا حديث الملكيات التى يجب أن تصادر فى رأى الاسلام ، أما الملكيات الكبيرة الأخرى التى قد نتجوز فيقول قائلنا : إنها ملكت بطرق مشروعة لا دخل فيها للاستغلال ولالمجاملة الأقوياء ، فان ردها الى الدولة لتوزعها على الشعب وإن لم يكن واجبا لكنه جائز بحكم الدين ، فان الله تعالى قد كره أن تكون الأموال ومصادرالثروة فى أيدى طبقة خاصة من الشعب ، وهم الأغنياء وحدهم دون الفقراء . أفلا ترى إلى قوله تعالى : « ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ، فنظام الثراء الفاحش والفقر الشديد لايقره الاسلام شريعة المدنية المهذبة والانسانية الرفيعة .. إن الاسلام لايبيح إثراء أفراد بافقار أمة ، ولااسراف طائفة فى التملك باشقاء مجتمع بأسره ، بل انه يجيز الحجر على الأقوياء حتى لا يسرفوا فى تملك الأرض ، فهذا عمربن الخطاب يحجر على أعلام قريش من المهاجرين ، حتى لايخرجوا إلى البلاد المفتوحة يمتلكون أرضها دون الناس ، وكان يقول : « ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا » .. وهذا معناه الواضح تحديد الملكية

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حديث ينص بصراحة تامة على ان مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه . وإما أن يتنازل عنها ولو بالهبة لغيره من الناس ، قال جابر : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول ﷺ : « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه » ،

أى ليزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها ولو بالهبة لاخيه المسلم ، ولا يعطيها إياه مؤاجرة لأن ذلك مظهر للتعاون بين المسلمين .

إن الاسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ، ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله اخوانا . وليتعاون الفقراء والاغنياء على خير الامة وسعادتها ومجدها ، ولتتقارب الطبقات ، وتزول الفروق الواسعة بين الناس ، ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعرى ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعى بأنهما كغيرهما من الناس ، لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وأن الحكومة التى تقوم عن شئون الشعب تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق ما يقول الرسول الكريم « أيما أهل عرصة ـ أى محلة ـ أصبح فيهم امرؤ جائعا ، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ...

— ٣ —

وتقول لجنة الفتوى بالأزهر : « إن من مبادىء الدين الإسلامى احترام الملكية ، وان لكل امرىء أن يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة لاكتساب المال ، وتنمية ما يحبه ويستطيبه ، ويتملك بهذه السبل ما يشاء .. هذا وقد ذهب جمهور الصحابة وغيرهم من الفقهاء المجتهدين إلى أنه لا يجب فى مال الاغنياء إلا ما أوجبه الله من الزكاة والخراج والنفقات الواجبة بسبب الزوجة أو القرابة أو ما يكون لعوارض مؤقتة وأسباب خاصة كاغاثة ملهوف وإطعام جائع مضطر ، وكالكفارات ، وما يتخذ من العدة للدفاع عن الاوطان وحفظ النظام إذا كان ما فى بيت مال المسلمين لا يكفى لهذا ، وكسائر المصالح العامة المشروعة .. هذا هو الواجب ، غير أن الاسلام يدعو كل قادر من المسلمين أن يتطوع بما شاء من ماله ، يصرفه فى وجوه البر والخير » ... وذهب أبو ذر إلى أنه يجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من مال مجموع عنده فى سبيل الله أى فى البر والخير ، وأنه يحرم ادخار ما زاد عن حاجته ونفقة عياله ..

ويقول المغفور له الشيخ الشناوى شيخ الازهر الاسبق (١) : القرآن الكريم قد احترم الملكية الفردية وصانها ونظم انتقالها إلى الأبناء والمستحقين ، وفصل

---

(١) من حديث له مع صحفى أمريكى ـ مجلة الازهر المجلد العشرون ١٣٦٨

القول فى قواعد المواريث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون ، قل منه أوكثر . وفى بيان الوصية التى للمالك فى ماله لمن شاء .. بما يدل الدلالة الواضحة على حق الملكية لكل مالك وانتقال هذا الحق من بعده الى وريثه من أبنائه وأقربائه. ولقد حمى الاسلام حرية التملك ودعا إلى احترامها ، فلكل فرد أن يقتنى من المال ماتمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلاأن يؤدى الزكاة ، وله أن يتصرف فى هذه الأموال بمايراه وتبقى بعده تركته لورثته ، وحكم الاسلام فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها معلوم وهوأخذه بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ والدعوة إليها ، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض »

ويقول الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الازهرالأسبق (١) : « الاسلام لايتعرض للملكيات ولايحد منها ، بل يفرض على هذه الملكيات للدولة من الحقوق المالية مايراه كفيلا بقيام بيت المال لرعاية مصالح الدولة وحقوق للشعب »

(١) راجع المصرى ١٩٥١/٥/٢٧



فى ظل الاسلام والشيوعية

— ١ —

للمرأة فى النظام الشيوعى حقوق ، مساوية لحقوق الرجل فى كافة ميادين الحياة العامة : الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، لها ماله من حقوق ، وعليها ما عليه من التزامات ، فهى مجبرة على العمل لتأكل ، لأن «من لا يعمل لا يأكل» ، وهى على قدم المساواة معه فى المنزل وخارجه ، ولها مطلق الحرية فى سلوكها الشخصى دون رقابة الزوج ، وتعمل فى المزارع والمصانع ، وهى نائبة وموظفة

والزواج سهل ميسور ، يكفى أن يقيد الزوجان اسميهما فى سجلات الزواج المدنية ، وهما يعملان فى الصباح ، وتسلم الأم أولادها إلى ملاجىء الطفولة ، وعند عودتها للمنزل مساء تأخذهم معها ، ويشترك الزوجان فى شئون المنزل ، ولها إجازتها من العمل قبل الوضع وبعده ، ولكل منهما حرية الانفصال عن الآخر متى شاء .

وكل فتى راشد أو فتاة : مسئول عن نفسه ، لا يعتمد فى معاشه على أحد ، يقبض أجره ويتصرف فيه ، وله أن يحمل اسم أمه أو اسم أبيه أو يستقل باسمه .

— ٢ —

هذا هو منطق الشيوعية ، أما الاسـلام فآراؤه فى الأسرة مثل أعلى فى الاصلاح .

فقد كفل للمرأة جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وأطلق لها حرية الرأى والتعبير والحرية فى التعلم والتعليم وخدمة المجتمع وقرر حريتها الشخصية وكيانها المعنوى ، وساواها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، والاسلام يجيز اشتراكها فى الشئون العامة ، وأن تشير وتستشار فيها ، وإن كان لا يخصصها لذلك

وحده حفظا للانوثة وواجباتها .. وقد حرم الاسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة كالزنا والبغاء ، وجعل صلتها بالرجل قائمة برباط مقدس هو الزواج ، الذى لايتم إلا برضاها ، وجعلها راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الأساسية هى رعاية المنزل وتربية الأبناء والتعاون مع الرجل فى الحياة .. ونفقة المرأة على أبيها أوولى أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده غنية كانت أوفقيرة ، فان لم يكن لها عائل فنفقتها من بيت المال .. ولها مهرها ، وحقها فى الميراث للانثى نصف الذكر .. وقيد إباحة تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة لأهداف اجتماعية سامية .

وآراء الاسلام فى المرأة والأسرة تنافى ماتذهب اليه الشيوعية ، فهو لايبيح خروج المرأة للعمل لأن مملكتها البيت ، وهى ليست مسئولة عن معاشها فى نظر الاسلام ، وهو يجعل الزوج رقيبا على سلوكها ، ويعهد اليها ـ لاإلى دور الحضانة ـ بتربية الأطفال ، ويخلق من الاسرة وحدة اجتماعية سليمة قوية . وآراؤه فى ذلك تتفق والعقل والدين والفطرة الانسانية وأصول الاجتماع .

الباب الثاني

محمد رسول الله الى الناس كافة



وبشارته بمحمد

كان إبراهيم عليه السلام رجلا ، وكان بطلا ، وكان صديقاً نبيا ، وكان أمة وحده وكان مثلا أعلى فى قوة العقيدة ، وعظمة اليقين وجلال التضحية وطول الجهاد فى سبيل الله والتوحيد والدين الحق ، دين الهدى والنور ، وشرعة السماء البارة بالأرض وبالإنسانية جميعها ، وليس هناك أروع من وصف الذكر الحكيم له : «إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» ، ويؤكد الذكر الحكيم مكانته عند الله فيقول : «ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين» ، ويصفه الله جل جلاله فى آية أخرى فيقول . «إنه من عبادنا المؤمنين» وفى آية أخرى يقول الله عز وجل .«واتخذ الله إبراهيم خليلا» .

وهذا أعظم مايصل اليه بشر ، ويتطلع اليه إنسان ، ويسمو اليه بإيمانه وأعماله مؤمن كريم .. سلام على إبراهيم ، لقد وقف فى ظلمات الحياة وضلال البشرية ، وانحراف الناس عن كلمة التوحيد والحق يعيد للارض صلتها بالسماء ، ويبعث فى النفوس معانى السمو بالنفس والترفع عن عبادة الأوثان والتحرر من قيود الشرك والأهواء ، ويوقظ روح الإنسانية الوسنى التى تاهت فى مجاهل الحياة وبيداء الأوهام ، فنطق بكلمة الحق والناس غافلون ، ونادى بدعوة الخير وهم لاهون ، ورفع منارة التوحيد عالية بعد أن جاهد جهاد الأبطال .

كان إبراهيم من سلالة الأنبياء المطهرين ، من ذرية آدم ونوح ، وكان يرث هذا النور الأبدى الخالد ، نور السماء الذى أشرق على الأرض أحيانا ثم انطفأ ، ونشأ

تعلو وجهه سمات الشخصية الفذة والبطولة المرجاة والنبوة المرتقبة .

وعاش فى الحياة ، لكا كريما بأخلاقه وآدابه وشممه وإبائه وطموحه ، وحبه للخير وعمله له ما استطاع .

ولكنه كان فى شقاء بعيد بقومه وبالناس جميعاً ، يتلفت فلا يرى إلا ضلالا وشركا وآثاما ، وأهواء جامحة وأوثانا معبودة ، وانحرافا تاما عن دعوة الحق وتراث النبيين من قبل : آدم ونوح .

كان يحب أن يرى الإنسانية تسير بل تطير إلى غاياتها المنشودة فى الحياة الفاضلة الكريمة ، وفى العقيدة الكاملة المثلى : عقيدة التوحيد والإيمان بالله ، ولكنه لم ير إلا الإثم والوثنية والشر والشرك ، وكلمة الشيطان المستجابة المحبوبة من دون كلمة الله ، فشقى بحياة الناس وبأهوائهم وضلالاتهم وجنح هو إلى التفكير الطويل فى الدين والقوة العظيمة المسيرة للحياة وفى مصير الانسانية وحاضرها الذليل ، ومستقبلها المرموق

رأى والده « آزر » عاكفا هو وقومه على عبادة الأصنام فلامه وضلله ، « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ، لأنه كان يؤمن إيمانا ثابتا أن لا إله إلا الله ، وأنه لا يستحق العبادة من دونه شىء .

ولا عجب فقد رباه الله على العقيدة الصحيحة ، ونشأه على الايمان الحق ، وغرس فى نفسه كلمة التوحيد المطلق ، وفطره الفطرة الكاملة ، التى فطر الناس عليها .

وكان ابراهيم يفكر تفكيرا طويلا فى الدين بعقله ، وكان عقله دائما يرشده إلى هذه الحقيقة الثابتة الخالدة : حقيقة الايمان بالله وحده ، بل كان يرجع من تفكيره أكثر إيمانا ويقينا بالله .

ورأى الكواكب فى السماء ، والقمر يملأ بنوره الفضى الجميل الكون فى الليل البهيم ، ورأى الشمس بازغة تمنح الوجود الحياة النور وكل مقومات الحياة ، فقال لعقله : ولم لا تكون هذه المظاهر الكونية العظيمة هى آلهة الكون ، وربة الحياة ؟ لكنه رأى الكواكب تغيب ، والقمر يأفل ، والشمس تحتجب عن العيون وقت الغروب ، ومن ثم أرشده عقله ، إلى أنها لا تصلح أن تكون آلهة معبودة . فنطق إبراهيم بهذه الكلمة الرائعة : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين » .

وآمن إبراهيم بنظرية إحياء الموتى إيمانا صادقا حقا ، ولكنه أراد أن يرى هذه الحقيقة بعينى رأسه ، ليطمئن قلبه ، فدعا ربه : « ربى أرنى كيف تحيى الموتى؟ قال : أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

وبلغ إبراهيم مبلغ الرجولة الكاملة ، والانسانية العظيمة المصطفاة ، فأرسله الله جل جلاله رسولا إلى قومه ، ليهديهم إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .

« قال لابيه : ياأبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا ، ياأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » ، ولكن والده لج فى ضلاله ، واستمر على غوايته ، وقال لابنه إبراهيم : « لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا » .

ثم دعا قومه طويلا إلى الله وإلى الحق وإلى شريعة الأنبياء ، وكلمة السماء ولكنهم لجوا وضلوا وغووا وأصروا واستكبروا استكبارا .

قال لهم : اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا .. وقال لهم : انى براء مما تعبدون » .

وجادلهم فى أصنامهم طويلا حتى إذا يئس منها ومنهم ، قال لهم فى حرارة العقيدة وعظمة النفس المؤمنة بالله : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدولى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وأرشدهم إلى إلههم الحق ، وأنه رب السموات والأرض الذى فطرهن .

حتى إذا يئس من أن يستجيب قومه لكلمة الحق ؛ ذهب الى بيت الآلهة الذى نصبت فيه هذه التماثيل والأوثان فحطمها وكسرها ، « وجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » .

وأصبح القوم ، وشاهدوا مصرع الآلهة ، فأيقنوا أن إبراهيم هو الذى حطمها ، وفعل بها هذه الفعلة النكراء ، ومن غير إبراهيم يجرؤ على الآلهة هذا الاجتراء العظيم ؟ فاعتقلوه وحاكموه ، وقرروا أن يعدموه حرقا بالنار ، ولكن الله أوحى إلى النار أن لاتحرق هذا الجسم الطهور « قلنا : يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

نجاه الله فخرج من أرض قومه مهاجراً : « إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين »
وأقام بالشام يدعو الناس إلى الله ، ويهديهم إلى الحق والايمان والعقيدة المثلى ؛
وطفق يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة فى قوة ويقين وجهاد فى سبيل الله ، ويبشر
برسول يأتى من بعد اسمه أحمد » ..

ووهبه الله إسحاق ، وذرية صالحة كريمة ، ومن قبل منحه إسماعيل ، الذى
سعى به استجابة لداعى الله إلى الحجاز ، وأقام إسماعيل مع بعض القبائل العربية
حول مكة ، وتفجرت له عين كريمة من الماء هى عين زمزم . وأخذ قلب إبراهيم
الكبير يرفرف بعطفه على ولده اسماعيل ، فابتهل إلى الله أن يجعل موضع اسماعيل
كعبة للناس : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم
يشكرون » .

وأخذ ابراهيم وإسماعيل يجددان بناء البيت الحرام ، ويطهرانه للطائفين
والعاكفين والركع السجود ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة
مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث
فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم انك أنت
العزيز الحكيم » .. كما أخذ يؤذن فى الناس بالحج الى هذا المكان الطاهر الكريم ،
« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وإسماعيل وهو الابن البار ، والشاب المحبوب ، وفلذة كبد أبيه ، صمم ابراهيم
أن يضحى به وهو صغير استجابة لكلمة رآها فى المنام .

قال له ابراهيم : « يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال ياأبت
افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » .

استجاب الابن والاب لداعى الله « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن ياإبراهيم
قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه
بذبح عظيم » .

أى عقيدة بلغت من القوة والسمو واليقين هذا المبلغ العظيم ، الذى بلغته
العقيدة فى نفس إبراهيم ؟

وهكذا عاش إبرهيم ماعاش مؤمناً قوى الايمان ، مجاهداً فى سبيل إيمانه ، مشرداً عن وطنه ، داعياً الى التوحيد المطلق ودين الانسانية المهذبة ، وكلمة السماء الهادية للأرض ومن فيها .

وبعد فلقد وسع قلب إبراهيم الكبير كل معانى الخير والرحمة ، والبر والحنان والانسانية الكريمة ، كما وسع كلمة الحق والصدق والعقيدة والايمان .

أشفق على أبيه أن تمسه النار ، فدعاه وحذره فأبى واستكبر ، فاخذ يدعو الله له أن ينقذه من عذاب الجحيم ، قال له : « ساستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » ، ولكنه حنان الأبناء ووفاؤهم للآباء ، « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء » ؛ ثم أخذ يضرع الى ربه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » ، « رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ، ولكن الله لا يرحم مشركا : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الاعن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم » .

ثم أسكن ابنه فى الصحراء فاخذ يبتهل الى الله أن يجعل مكان إقامته بلداً آمناً وأن يرزقه وأهله من الثمرات .

وأشفق على قومه فنصحهم نصح المشفق الامين ... ثم أراد أن يطمئن على مستقبل الانسانية ، وعلى أن كلمة الحق والدين ستبقى ؛ وأن شعلة الايمان لن تنطفىء ، فدعا الله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولا منها يطهرها ويزكيها ويصلها بالله ، وبشر بمحمد خاتم الأنبياء فتحققت بشارته .

وبعد فدين ابراهيم دين الحنفية البيضاء وشريعته هى الشريعة المطهرة التى دعا اليها الأنبياء بعده ، ولقد عاش ابراهيم عظيما ، ومات كريما ، وترك ذرية طيبة تعبد الله فى الأرض ، وكان من نسله الكثير من الانبياء والمرسلين حتى لقب « بأبى الأنبياء » ولقد تلقى إبراهيم من ربه كلمات الدين والتوحيد فأتمهن ، وبلغها للناس تامات ، ووفى بعهد ربه ، ونشر كلمة الإيمان فى الآفاق ، وذهب راضيا مرضيا ، « وتركنا عليه فى الآخرين : سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين » .

ثم ورث محمد صلوات الله عليه هذا الميراث الالهى العظيم ، وجاء بعده بأجيال ، ليحقق للانسانية السعادة والأمن والسلام



ميلاد بطل الإنسانية

— ١ —

فى فجر يوم الاثنين لاثنى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل، أو لتسع ليال مضت منه كما يذهب اليه الكثير من الباحثين (وذلك يوافق العشرين من شهر إبريل عام ٥٧١ م).

فى هذه اللحظات الفذة فى تاريخ البشرية، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى، ولد الطفل الذى هتفت بذكره الأرجاء، وسجل مواقفه الرائعة التاريخ، وأنصتت لحديثه الدنيا، واهتزت لأنباء جهاده فى بلاد العرب وماحولها الأمراء والملوك والأكاسرة والقياصرة، وآمنت بمبادئه وكبرت لشريعته الحياة والناس أجمعون.

ولقد ألهم الله أمه آمنة أن مصير العالم سيكون بعد قليل فى يدى طفلها الوليد هذا، وأن اسمه سيحتل الصفحات الأولى فى سجل الانسانية، وأن عصوراً جديدة توشك أن تبدأ ويكون بطلها الأول محمد بن عبد الله فأرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام فأتاه فنظر إليه وحدثته بمافى قلبها وماتزدحم به مشاعرها من شتى البشريات ومختلف الذكريات، فأخذ عبد المطلب طفله ودخل به الكعبة، وقام يدعو لله ويشكر له ماأعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها، وقال لها: لقد سميته محمدا ليحمد فى الارض والسماء ... وفى اليوم السابع لمولده ختنه جده كما كان العرب يفعلون.

والتمس عبد المطلب لطفله مرضعاً من نساء البادية، وكان من عادة العرب أن تلتمس المراضع لأولادها فى البادية، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر، وهى حليمة ابنة أبى ذؤيب، وكان زوج حليمة هو الحارث بن عبد العزى وكان يكنى بأبى كبشة، وكان إخوة محمد من الرضاعة: عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وخذامة بنت الحارث.

وأقام محمد مسترضعا فيهم قريباً من أربع سنين ، وكانت حليمة تحدث أنه ما حملها على أخذ هذا الطفل اليتيم لتقوم برضاعه إلا أنها لم تجد غيره ، وأنها قالت لبعلها وهي في مكة تبحث عن طفل تذهب به : « والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذاك اليتيم فلآخذنه » فقال لها زوجها : « لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » وكانت حليمة ترى الخير والنماء والبركة منذ مقدم هذا الطفل الى حيها ، وكان محمد يشب شبابا حسنا ، وكان رضاعه عامين ، فلما نفذا وفدت به على أمه بمكة ترجو أن ترجع به ليقيم معها في البادية زمنا آخر ، فلما مضت أشهر معدودة من عودته مع حليمة ذهب ليلعب مع أخيه خلف البيوت ، وسرعان ما قدم أخوه الى أمه حليمة يشتد ، وهو يقول لها ولأبيه : « ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه فهما يسوطانه » ، فخرجت حليمة وبعلها نحوه ، فوجداه قائما منتقع الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقالا له : « ما لك يا بني ؟ قال : « جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا شيئا لا أدري ما هو ، فخافت حليمة وزوجها على محمد .

ولما عادت به الى مكة ، قصت على أمه قصته ، فقالت آمنة لحليمة : ان لابني لشأنا ، ولقد رأيت حين حملت به نوراً خرج مني فاضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فو الله ما رأيت من حمل حاملة قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه الى السماء ، دعيه عنك وانطلقي راشدة » .

— ٢ —

وأقام الغلام مع أمه في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته . فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي ابن النجار تزيره اياهم ، فماتت وهي راجعة به الى مكة ، واستمر في كفالة جده عبد المطلب يرعاه ويحبه ، ويجلسه معه على فراشه في ظل الكعبة وبنو عبد المطلب يجلسون حول الفراش ، لا يستطيع أحد منهم الجلوس عليه مع عبد المطلب وطفله محمد ، وكان عبد المطلب يقول : دعوا ابني فو الله إن له لشأناً »

ولما بلغ الغلام ثماني سنين مات عبد المطلب بن هاشم وورث مفاخره ابنه العباس وصار محمد بعد عبد المطلب فى كفالة عمه أبي طالب .

وكان أبو طالب سيداً من أجل سادات قريش وبنى هاشم ، وكان الناس يتنبأون أمامه بمستقبل جليل لهذا الغلام الصغير ، وأنه سيكون له شان وأى شان. ولما سافر بمحمد إلى الشام فى تجارته ، وقابله بحيرا الراهب قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه اليهود فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وحفظ الله محمداً وعصمه من أقذار الجاهلية ، وصار أفضل قومه مروءة ، واحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأوثقهم جوارا ، وأعظمهم حلما . وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش والدنس ، وأكثرهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، واشترك فى حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو فى الخامسة والعشرين من سنى حياته الميمونة ، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها ، واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الاسود فى مكانه ، فكان محمد الحكم بينهم ، وارتضى حكمه الناس جميعا ، وكان إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين ابراهيم وإسماعيل ، ويتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد . فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالته العظمى ، واصطفاه ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة . وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين . ونزل عليه جبريل بالوحى وهو فى حراء يوم الاثنين لسبعة عشر ليلة خلت من رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، قال له جبريل : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال . اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ، وسمع الصوت مجلجلا فى السماء : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

وبلغ محمد قومه رسالة ربه . فآمن من آمن ، وجحد من جحد ، وظل يدعو الى الله سرا وهو فى قومه ، ثلاث سنين ، أجابه فيها عدد قليل من الرجال والنساء .

والأطفال والمستضعفين ، ثم جهر بالدعوة ، وصمد لإيذاء قريش عشرة أعوام أخرى ، ثم هاجر من مكة الى المدينة مبشراً بدين الله ، وداعياً الى شريعة الاسلام والحق والخير والمساواة.

— ٣ —

وانتصر محمد فى المدينة فى معارك كثيرة : انتصر فى حربه مع المنافقين واليهود والذين يعملون على وأد الاسلام : دعوة الحرية والطهر والسلام ، وانتصر فى حربه مع الشرك والوثنية ، ففتح مكة وحطم الأصنام والأوثان وجعل كلمة الله والتوحيد هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، وانتصر فى الحروب التى فرضتها عليه القبائل العربية ، فمزق الحصار تلو الحصار عليه وعلى جيشه الظافر ، وانتصر فى الميدان السياسى انتصاراً باهراً ، فجمع العرب كلها فى وحدة وتحت ظلال سياسة إسلامية كريمة واضحة الأهداف والنزعات الإنسانية العالية ، وانتصر فى ميادين الاصلاح والاجتماع ، فألف بين القلوب ، وداوى المزمن من الأمراض ، وأطفأ نزغات القلوب ، واستل ماطويت عليه من حقد وخصومة وإحن .

أقام اشتراكية بارعة تجمع بين الغنى والفقير برباط المحبة والتعاون والاخاء ، ويشارك الفقراء فيها الأغنياء ، والأغنياء الفقراء ، مشاركة فعالة ملهمة حافزة على العمل لخير المجموع الانسانى وسعادته . وأقام المجتمع الاسلامى على أصول متينة قوية لا يعتريها الضعف والوهن ، أصول تجمع بين النظام والحرية والشورى والإيثار والتضحية وحب الجماعة وتقديس حقوق الفرد ، وبين العدالة والإنصاف والحرص على كرامة الناس وطمانينتهم ورفاهيتهم وتقدير كل ذى كفاية وموهبة وكل عامل يعمل الواجب ويشعر بالمسئولية ويقدس مصالح الناس وحقوقهم . وحارب محمد الفقر والجهل ، ودعا الى أنبل الأخلاق وأسمى الفضائل وأكرم الأعمال ، وقضى على الفساد فى مختلف ألوانه ، وطهر الحياة من الأدران والآثام والفوضى والاستغلال ، ونشر دين الله وبشر بكتاب الله ورسالته ، ووجه العرب لدعوة الأمم الى هذه الشريعة المطهرة ، وتلك العقيدة الكريمة . فلم تمض أعوام قلائل بعد وفاته . حتى فتحوا الشام ومصر العراق وبلاد الفرس ، ثم أخذوا يسيحون فيما وراء هذه الأقطار داعين

الى كلمة الله ، محطمين للأغلال والوثنية والشرك والاستعباد ، ناشرين العدالة بين الأمم كافة ، مضحين بكل عزيز لديهم فى سبيل الله وإنقاذ البشرية وهداية الانسانية ، كل ذلك بدافع الأخلاص لله ولرسوله الكريم ولكتابه الحكيم .

فما أعظم هذا الرسول العربى الأمى الذى بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحياة ، وقضى على عصور الوحشية والجاهلية المظلمة ، وحارب كل استغلال جشع ، واقطاعية مفترسة ، وهمجية متنمرة ، ووثنية مضللة .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه . ما أضاء النهار وأظلم الليل ، وهدى به أمته الى خير الأعمال والعقائد ، والى سعادة الأولى والآخرة ، انه أكرم مأمول . وأجل مسئول . وما توفيقنا إلا بالله ...



مازال يهدى الانسانية

تلك الانسانية الحائرة المضللة ترنو ببصرها إلى السماء . تنشد النور والهدى والحق والسلام ، وهذه الحياة الموحشة الكئيبة تتنسم روائح الحرية والعدالة والاخاء . بعد أن عافت رؤية الدماء والأشلاء واستبداد الأقوياء بالضعفاء ، وملت سماع أنغام العبودية والرق والاستعباد والسيطرة على الناس ، والاستهانة بحريات الأفراد والجماعات والشعوب . وهذه الأرواح والقلوب والمشاعر الظامئة إلى نبع الروحية والايمان والأمان تحوم فى أجواء السماء ، باحثة عن الصوت السماوى الخالد الذى دوى فى اسماع البشرية حينا بعد حين ، وجيلا بعد جيل ؛ ليبلغها رسالة الكمال الانسانى الأعلى ، وليرشدها إلى الحقيقة الكبرى التى قامت عليها الأرض والسموات والكون .

واتجهت الآمال والأبصار كلها إلى جزيرة العرب ، إلى قلبها النابض بالحياة : مكة . وإلى ذؤابة العرب كلها فى قريش ، وإلى ميراث النبوة الخالد من آل عبد المطلب ابن هاشم . وإلى بيت عبد الله بن عبد المطلب وزوجه الطاهرة آمنة بنت وهب . واستقر الالهام الصادق على أن رسولا جديدا يوشك أن يظهر فى الكون ليحدث أعظم ثورة إنسانية أرادها الله وعرفها التاريخ وباركتها السماء ؛ وليقود الناس من جديد إلى الحرية الكاملة والمساواة التامة والمدنية الباهرة والحضارة الزاهرة والسلام المنشود .

وأخذت الأحبار والرهبان والكهان تهتف من أعماق قلوبها فى صمت عميق وعجب عجيب : لابد من ميلاد النور الأعظم ، الذى سيضىء الآفاق ويحرر العالم كله من إسار الظلام والظلم والعبودية ، لابد من ذلك فالأمل قريب والبشرى توشك أن تتحقق ، والنشيد الخالد الذى طالما ظمئنا إلى لحنه الرائع قد بدأت أنغامه الموقعة وكأنها صيحة البعث والحرية ، لابد من أن تتحقق نبوءة موسى وعيسى بمولد

« روح الفهم والمشورة ؛ وروح الحكمة والقوة ، وروح الخوف والمحبة ، وروح التبصر والاعتدال ، والعدل والتقوى والرحمة ، فما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم »(١) كله .

ومات عبدالله شابا ، وترك النورمتألقا فى هذا الجنين الطاهر المطهر ، المودع فى مجمع الأصلاب الطاهرة ، وسلالة أشرف من فى الوجود من أهل الدنيا والآخرة ، ومسحت آمنة دموعها ؛ وأقامت على الإيمان والصبر والعزاء الكريم ؛ ولكنها كانت تسير وتقف وتنام وتستيقظ وتصبح وتمسى وتعيش فى كل لحظة لتسمع هتافا أبديا خالدا تردده الأجيال من أعماق الزمن وأغوار الانسانية : بشراك يا آمنة فإنك تحملين النور الأعظم الذى سيضىء على الآفاق وسيملأ الدنيا ذكرا وبشرا وخيرا وبرا وأملا وسعادة وحيوية وحياة ، بشراك يا آمنة بميلاد خاتم النبيين وآخر المرسلين ، بشراك بما بشر به يسوع بابتهاج قلب : وإنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ؛ بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها ؛ فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله » . وهى رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث »(٢) .

ثم جاء فجر الميلاد النبوى الكريم (٣) . فرأت آمنة نورا أضاءت له قصور بصرى بالشام ، واهتز إيوان كسرى معلنا قرب زوال العبودية من على ظهر الأرض ، وكبرت الكعبة إيذانا بميلاد نبى السلام والإسلام والتوحيد ، ورأى هرقل أن ملك الختان قد ظهر فأيقن أن دولة الرومان ستصير أثرا بعد عين ، وأخذت الملائكة تفد على مكة ، تحيى الميلاد الكريم والطفل العظيم روح الله ، والإنسانية . وقائد الناس إلى السمو والخير والاخاء والحرية : « قدوس القديسين الآتى بالبر الأبدى . وهو القرآن المحفوظ إلى يوم القيامة » ؛ و « روح الحق الذى يرشد إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه . بل كل ما يسمع يتكلم به »

---

(١) من إنجيل برنابا إصحاح ٤٤

(٢) إنجيل برنابا إصحاح ١٦٣

(٣) كان ذلك فى ليلة الإثنين اليوم التاسع أو الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل الموافق ٢٠ ابريل عام ٥٧١ م

ثم نما الطفل وكبر ، فرأى من آيات ربه ما رأى ، وأصبح شابا ، وأصبح حكيما يومى إليه بالبنان ورجلا تهتز لحديثه المشاعر ، وتصغى إليه الناس ، وتهتف به الحياة ، وتردد ذكره الدنيا .

ثم نزل عليه الوحى من ربه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجدد معالم الوجود وغير مجرى الحياة والحضارة ، وحارب الوثنية والشرك ، كما حارب العبودية والرق والطغيان ، والاستغلال والباطل والزور والبهتان ، وقضى على الرأسمالية والاقطاعية التى كانت تسعى فى الأرض لتفسد فيها وتهلك الحرث والنسل ، وحرر الرقيق والعامل والمرأة والخادم . وحمى حقوق الفقراء والضعفاء . وأقر حقوق الانسان ورعاها ، وأقام الحياة على أصول تجمع بين الحق والواجب والخير والرحمة والعدالة والمساواة والإخاء والحرية والكرامة والشرف والروحية والمادية المهذبة . ومحا الجهل وحارب الفقراء وقضى على الظلم والجور والظلام ، وهدى الناس كافة إلى دين الله وبعث الأمن والسلام والسعادة والرفاهية فى الأرض ، وأيقظ القلوب الغافية التى تحجرت فى الصحراء فأصبحت تبكى لدموع اليتيم . وتهتز لمرأى المسكين والمحروم وابن السبيل ، وتسعى فى الأرض تطلب المجد والذكر والعظمة ، وآثرت حياة البطولة والتضحية والشرف على كل شىء ، وضربت أروع الأمثال للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، ونشرت هدى الله ونور الاسلام فى كل مكان وطئته أقدامها .

انقلاب كان معجزة المعجزات فى تاريخ الحياة ، وثورة كانت ظاهرة فذة فى نواميس الاجتماع . ورسالة ليس لها نظير فى الدنيا كلها . وآيات بينات كلها هدى ونور أضاء الآفاق وغمر الأكوان ، وملأ العالم بهجة ومرحا ونشوة وشعورا عميقاً بالسعادة ، هدى هذا النور الدنيا أجيالا طوالا . ومع ذلك كله فما يزال هذا النور يهدى الإنسانية . ولن يزال كذلك أبد الآباد حتى تقوم الساعة باذن الله .



النـــور الأعظم

— ١ —

ذلك النور السماوى العظيم ، الذى كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة ، فيها خير الحياة والوجود ، لابد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات ، ويمحو ماران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل وعصبية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذى كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبل ، لابد أن ينزل على رسول كريم من جديد : ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقاً لبشارة الأنبياء والكتب السماوية بظهور إمام الأنبياء وخاتم المرسلين .

ومرت الأيام بطيئة مسرفة فى بطئها . والظلام يشتد ، والظلم والاستبداد والطغيان ينتشر ، والوثنية والشرك يصبحان عقيدة الناس فى الحياة ، وتوالت البشارات تجدد الأمل ، وتحيى الرجاء ، وتؤمن الناس على مستقبل الإنسانية ، وتنبئهم بقرب بزوغ نور الفجر الجديد .

لابد أن ينهار ملك كسرى وقيصر ؛ لأنه يقوم على أسوأ النظم والشرائع والعقائد ، ولأن عهد استعمارهما للعالم لابد أن ينقرض ، والحرية الكبرى منذا يصد تيارها الزاخر القوى المندفع بقوة الله ؟

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى . ورقة بن نوفل الأسدى ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وعثمان بن الحويرث الأسدى ، وعبيد الله بن جحش . يجتمعون فى الجزيرة العربية فى يوم عيدلهم ، فيقول بعضهم لبعض : تعلمن والله ماقومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ماحجر نطيف به لايضر ولاينفع ، ياقوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ماأنتم على شىء ... وذهبوا يطوفون فى البلاد ، يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يامعشر قريش : والذى نفس زيد بيده ماأصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : والله لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته .

وفى مكة فى صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، تسبقه إرهاصات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات ، وتسير معه يوما بعد يوم بشريات وأى بشريات ، ويحفظ الناس ماذاع من ذكريات مولده ونشأته الكريمة المعطره ، وبدأ النور الإلهى فى الأفق وأخذ الناموس السماوى يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب الغلام ونما ، نبيلا شريفا وسيدا سريا ، وفتى زكيا ، والتقى قومه وقوم مرضعته النماء والخير على وجهه الأغر ، وقدمت به حليمة السعدية على أمه بعد فصاله ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها ، متعللة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت به حليمة فرحة مستبشرة .

وبعد شهور كان الغلام محمد يلعب ومعه ابن حليمة خلف الرحال ، وبعد قليل جاء أخوه يشتد ، وهو يقول : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه : فخرجت حليمة وزوجها نحوه ، فوجدته قائما منتقعا وجهه ، فالتزمته هى وزوجها ، وقالت : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى رجلان ، عليهما ثياب فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا شيئا لا أدرى ماهو فتخوفت عليه حليمة ، وقدمت به على أمه ، وقصت عليها القصص ، فقالت آمنة : إن لبنى لشأنا أفلا أخبرك خبره؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به انه خرج منى نور أضاء لى به قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالارض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقى راشدة ، وما أصدق مايقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى

ورأى بحيرا الراهب محمداً الغلام ، فى بصرى بأرض الشام ، مع عمه أبى طالب فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ثم قال لعمه : اذهب

يا ابن أخيك إلى بلده واحذر عليه فان له لشأنا عظيما

وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ، وكان عالما بالديانات والكتب السماوية ، فقال لها: لئن كان هذا حقا ياخديجة إن محمداً لنبي هذه الامة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الامة نبي ينتظر ، هذا زمانه . وجعل ورقة يستبطىء مرور الايام ، ويقول : حتى متى رسالة الله ؟

— ٢ —

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، يبلغه رسالة الله ، ويحمله أمانته ،

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى ، وسمع الصوت الإلهي يناديه من كل مكان : يامحمد أنت رسول الله وهذا جبريل ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لارجو أن تكون نبي هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الامة ، ولقيه ورقة في الكعبة وهو يطوف بها فقال : ياأخي والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الأبطال ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمي حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيانهم :

وقبيل الهجرة ، بينما رسول الله صلوات الله عليه نائم في بيت أم هانىء عمته ، إذ جاء جبريل وملائكة معه ، فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به الى بيت المقدس فصلى بالأنبياء والرسل إماما ، ثم أتى بثلاثة آنية : من لبن وخمر وماء ، فأخذ إناء اللبن فشرب منه ، فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يامحمد ، ثم عرج الى السماء ، فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى اذا كان بالأفق الأعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوي العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم ، فذاعت في كل مكان ، ودعا إليها الناس كافة ، وأرسل بنبئها الرسل إلى الأمراء والملوك والأقيال.

ثم اختاره الله إلى جواره الكريم ، بعد أن أنشأ أمة ، وأسس دولة ، ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله .

صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات الله عليه كلما ذكره الذاكرون ، وحمده الحامدون .

— ٣ —

وخفقت أعلام الاسلام وبنوده فى كل مكان ، وانطلق هداته ودعاته فى كل قطر ، يبشرون الانسانية بهدى الله ، ويحررون العقول من جمود التقليد والجهل والخرافات ... يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الامم من إسارها ، ويرفعون عنها الأغلال التى قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون ، ويمحون ظلال الاستعمار والاضطهاد من الأرض ؛ ويبطلون ما تعارفت عليه الأجيال من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقاليد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله فى الأرض ، وليست الامم ملكا لملك ، وليس الحكم مغنما لأمير ، وليست هناك وصاية على أمة ، ولا حجر على جماعة ، ولا استغلال أو نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب طائفة أخرى .. الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. العدالة والانصاف والمساواة والإخاء والحرية حق لكل إنسان فى الحياة .

— ٤ —

وبعد قليل كانت الجامعات الاسلامية فى قرطبة وطليطلة ، وغرناطة ، وفى القيروان والمهدية ، وفى الفسطاط والقاهرة ، وفى دمشق وحلب ، وفى بغداد والبصرة والكوفة ، وفى بخارى وخوارزم وقزوين ، وفى كل مكان .. كانت تعج بالطلاب والاساتذة ، وتنشر العلم والثقافة والنور فى كل ناحية ، وتقوم على حرية البحث والفكر والرأى ، وعلى الإخلاص فى خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الانسانى بين شتى العناصر والالوان والاجناس والشعوب ، لخدمة الانسانية والرقى بالحياة

بينما كانت أوربا تنام فى الظلام ، وتعيش على الاوهام ، وتحيا على الجهل

والجمود والقذارة والحجر على الحريات ، وتنتقل من عصور الرق البائدة إلى عهود الاقطاع القاسية المستبدة .

فمن مثل محمد فى عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟ ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح فى رسالته ذلك النجاح المنقطع النظير ؟ ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله وقومه ، ويجاهد لتحطيم رؤوس الضلال ، وشياطين الظلام فى كل مكان ؟ ومن مثله كان مع هذا السلطان العظيم والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ، ويحيا مع المساكين ، ويعمل فى مهنة أهله ، ويأكل التمر ، ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة والأدب والتواضع والرحمة والرأفة والوفاء وحسن العهد وصلة الرحم والعدل والعفة ، والأمانة والصدق ، والاخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم رؤوس الاستعمار فى كل مكان . وهدم الاستبداد فى شتى صوره وأشكاله ، وأقام للحرية مناراً عالياً يفىء إلى ظله كل إنسان ؟

إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبى البشرية الذى أنقذ الدنيا من ظلمات الجاهلية الاولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة . وخاتم الانبياء والمرسلين .. وصدق الله العظيم : « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما »



عندما يشرق فى الأفق هلال المحرم الوليد ، ويسطع فى الكون نور فجره الجديد ، تعبق الذكريات الخالدة المجيدة ، وتضىء أنوار المعجزات النبوية الكريمة ، ونتذكر من بين هذه المعجزات معجزة الهجرة الباقية على وجه الزمان ، هجرة محمد صلوات الله عليه من وطنه مكة إلى المدينة ، وهى التى اتخذها عمر بن الخطاب مبدأ التاريخ الإسلامى ، وافتتح بذكرها الطيب شهور السنة العربية . وهى حادث فذ فى تاريخ الإنسانية ، وحديث عذب فى سلسلة أحاديث السيرة المحمدية ، ومثل عظيم من أمثلة الدفاع عن الحق والحرية .

إن يوم الهجرة لهو يوم البطولة والكرامة ، ويوم المعركة المجيدة العنيفة التى نشبت بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والنور والظلام ، والإيمان والكفر والرشد والغى ، والشرف والفساد . فهو يوم التاريخ والسلام ، وإنقاذ البشرية من الاستبداد والطغيان والأهواء والأوهام . بل هو عيد البشرية الاكبر ، وعيد الاخاء والمساواة والحرية والتضحية والمثل الرفيعة فى حياة الناس .

تلقى محمد صلى الله عليه وسلم رسالة ربه وهو فى سن الأربعين ، فصدع بالأمر ، وأخذ يبلغها قومه وعشيرته ، ويكافح قوى الشرك والوثنية والجمود والطغيان فى مكة ، ويجاهد فى سبيل الله والحق ونشر كلمة التوحيد جهاد الأبطال ، جهادا لم تعرف الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما ، دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور ، والرحمة والخير ، والمساواة والإخاء والعدالة ، وإلى الحق والحرية والطهر والشرف واحترام حقوق الإنسان والضعفاء والفقراء .

ولكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل ، وامتدت يد الطغيان إلى محمد وأصحابه ومن آمن به بالإيذاء والتهديد والبطش والوعيد ، وحاول المشركون

فى مكة أن يكموا فم الرسول وأفواه أصحابه ودعاته ، حتى لا يفتنوا الناس عن دين آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من آمن منهم بمحمد بالعذاب الشديد ، ووقفوا يحولون بين الرسول وتبليغ رسالته بكل ما يستطيعون من وسائل ، منعوه أن يلقى القبائل ويقرأ عليهم القرآن ، ونشروا حوله دعايات كاذبة أثيمة ، فقالوا : هو شاعر ، وهو ساحر ، وبه جنة ، وهى أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . ومحمد صامد فى موقفه يهزأ بهم ويسخر مما يقولون ، ويقول فى إباء وشمم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

واتتمرت قريش والمشركون بمحمد ، وهددوا عمه أبا طالب بالحرب ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته ، وقاطعوهم أعواما ثلاثة ، واضطهدوا أنصاره وشردوهم ولاحقوهم فى البلاد ، وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، وماتت خلال هذه المعركة الدامية خديجة زوج محمد ، وأبو طالب عمه . وأقاموا حوله نطاقا من حديد ، ولكن الله أراد لرسوله النصر ، ولدينه الفوز ، وللمؤمنين الغلبة ، فانتشر الإسلام خفية فى المدينة عن طريق حجاج بيت الله العتيق من الأوس والخزرج . وعقد الرسول معهم حلفا ، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان فى ذلك هلاك الأموال وقتل الأشراف . ولهم الجنة ، وأذن الرسول لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، وهو خلال ذلك هادىء النفس رابط الجأش ، يقول لهم : « أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم فاذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة »

وأجمعت قريش والمشركون فى مكة على قتل محمد ، بيد فتيان أقوياء من أبناء القبائل العربية جميعا ، حتى يذهب دمه هدرا . ونبأ الله رسوله بالشر المدفون فى قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبى بكر فى حر الظهيرة اللافح ، يعلمه بالأمر ، وينبئه أن الله قد أذن له بالهجرة إلى المدينة ، لينجو من الشرك وأهله ، ومن ظلم ذوى القربى ، وليجد حرية الرأى والعقيدة فى مكان أرحب ، وعند قوم أشربت قلوبهم حب الإيمان ، وملأت مشاعرهم آياته ، واستعدوا للدفاع عن حياض الحق ، ومحاربة الباطل ، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله . فبكى أبو بكر ، وأخذ يعد للأمر عدته ، ويهيىء له أهبته .

ولنترك عائشة أم المؤمنين ، تحدثنا حديث هذا اليوم الخالد ، وماسبقه من أيام عظيمة خالدة ، قالت عائشة فيما رواه البخارى عنها : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة - وهو سيد من سادات العرب - فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال ابن الدغنة فإن مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف الرجل عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لايخرج مثله ولايخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، فلم تكذب قريش بجواره ، وقالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذنا بذلك ولايستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .. فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ فى غير داره . ثم . بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لايملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك(١) ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإنى لاأحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فانى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .. والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة ؛ (وقد) هاجر من هاجر قبل

---

(١) أى ننقض عهدك

المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة الى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة - للهجرة اليها - فقال له رسول الله : على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى - أى بالهجرة إلى المدينة - فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه ،

قالت عائشة : فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحو الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . فجاء رسول الله ، فأستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال لأبى بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبى أنت يارسول الله ، قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى يارسول الله ، قال رسول الله : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين .. قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز - أى أسرعه - وصنعنا لهما سفرة — أى زاداً — فى جراب . فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها — أى حزامها — فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين

بات فى تلك الليلة الموعودة « على » مكان رسول الله وخرج محمد صلوات الله عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة على خفية ، بين العيون والأرصاد ، والسيوف والأحقاد ، والفتيان المتراصين حول بيته الشريف لسفك دمه فى آخر الليل . وسار معه أبو بكر حتى وصلا غار الجبل ثور — وهو قرب مكة على مسيرة ساعة — فدخلاه ومكثا فيه ثلاث ليال وقريش يكاد يذهلها الجنون ، ويقتلها الغيظ ، وقصاصو الأثر فى كل مكان وطريق يبحثون عن محمد وصاحبه ، ليردوهما إلى مكة سالمين أو مقتولين حتى وصلوا إلى الغار . والصديق يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول للرسول : لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنى أخاف عليك ، فانك إن قتلت هلكت الامة ، وإن تصب اليوم ذهب دين الله . فقال له الرسول : لاتحزن إن الله معنا وما ظنك باثنين الله ثالثهما ، ويقول : اللهم اعمم أبصارهم .. قالت عائشة : وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ، فيدلج — أى يخرج — من عندهما بسحر . فيصبح مع قريش بمكة ، فلا يسمع أمرا إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث .

وبعد أن خف طلب المشركين لهما جاءهما رجل أمناه ، براحلتيهما ، صبح ثلاث

ليال ، وأخذ طريق الساحل إلى المدينة ، وكان كفار قريش قد جعلوا فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فخرج سراقة بن خثعم بفرسه ورمحه سائرا فى الصخر يبحث عن الرجلين ، حتى سمع قراءة رسول الله وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت يدا فرسه فى الأرض فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى جاء رسول الله وأبا بكر ، فقال : يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وقص عليهما قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض سراقة عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا شيئا وقالا له : اكتم عن الناس خبرنا ، وكتب له الرسول كتاب أمن ، وسار رسول الله ، فلقى الزبير بن العوام فى ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام بتجارتهم ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابا بيضا ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج محمد من مكة ، وهجرته إلى بلدتهم الطيبة ، فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فرجعوا يوما إلى بيوتهم بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم اطلع رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم لأمر من أموره ، فشاهد محمداً وصاحبه قادمين نحو المدينة فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا رسولكم وجدكم - أى حظكم - الذى تنتظرون ؛ فهب المسلمون وأخذوا السلاح يتلقون رسول الله خارج المدينة ؛ فوصل اليها يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول والنساء والأطفال والرجال ينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وأقام رسول الله فى حى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ؛ وصلى فيه رسول الله ؛ ثم ركب راحلته وسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مكان يصلى فيه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هذا ان شاء الله المنزل ؛ واشترى الأرض من صاحبيها وكانت لغلامين يتيمين ، وبنى فوقها مسجده النبوى الشريف ؛ وما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأخذ يؤلف القلوب ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ويحالف سكان المدينة من اليهود . ليفرغ لبناء أول دولة إسلامية قامت على ظهر الأرض ، فأعزه الله وأيده بروح من عنده .

وهكذا صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم المشركين والمفسدين والمتآمرين وحده ، إذ نجى محمد فى هجرته ، وحاطه بتأييده ورعايته ،

وأيده بالملائكة لحمايته ، وصدق الله العظيم حين يقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذهما فى الغار ، إذيقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم .

عاش محمد بعد الهجرة كما كان ، رسول رب العالمين ، ومثال الإنسانية الرفيعة ، ومطلع العلم والمعرفة والحكمة ، ومشرق النور الألهى العظيم ، ورئيس الدولة الاسلامية العادل الحكيم ، والمثل الكامل للناس جميعا ، يعلم العلماء أسمى نظم الكون ، والمصلحين أكمل نظم الاجتماع ، والمشرعين أصلح قواعد التشريع ، ويضع أساس دولة ليس لها نظير بين الدول على وجه الأرض ؛ كان هو قائدها المحنك المدرب العظيم ، وبطلها المرجى المحبوب الشجاع .

حقا لقد كان الرسول جنديا شجاعا ، وبطلا موهوبا وقائدا عظيما ، يثق فيه جنوده ، ويطيعونه طاعة عمياء ، يخوضون معه المعارك دما ولهبا ، حتى قال له المقداد ابن عمرو يوم معركة بدر : يارسول الله امض إلى ما أمرك الله فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، بل نقول إنا معكما مقاتلون .. وقال سعد بن معاذ يجيب الرسول نيابة عن الأنصار : قد آمنا بك يارسول الله وصدقناك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً : وإنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك : فسر بنا على بركة الله : وكان عمير بن الحمام فى جند رسول الله وكان حدث السن : وبيده تمرات يأكلها فسمع رسول الله صلوات الله عليه يقول : والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فنهض عميرة ، وهو يقول : بخ بخ ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ثم قذف الثمرات وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل

ولقد جمع نبينا محمد صلوات الله عليه صفات الزعامة الحربية : كما جمع صفات الزعامة الدينية والسياسية : فكان شجاعا بطلا ، ومحبوبا مطاعا من جنوده ، سبق إلى ابتكار أصول العسكرية وآدابها العالية الرفيعة ، فكان يؤلف مجالس الحرب قبل المعارك ، ليدرس هو وأصحابه من أركان حربه خطط المعركة ، والمواقع الاستراتيجية ، ويستشيرهم

ويستأنس بآرائهم : وكان قبل المعركة يبث أذكى الرجال لمعرفة أسرار العدو ، على نمط ماتفعل أقلام المخابرات العسكرية فى الدول الراقية ؛ وكان يعنى بالتدريب الحربى عناية فائقة : وقد وضع محمد قاعدة السرعة والسرية فى حركاته الحربية : ومفاجاة العدو فى مأمنه ، ومطاردة العدو بعد هزيمته فى الميدان لتصير الهزيمة فشلا كاملا ، وتشتيتا تاما ، حتى لايستطيع الأعداء التجمع من جديد لأعادة الكرة وخوض معركة أخرى ، وكان يلجأ أحيانا إلى حرب الأعصاب ، وإلى حرب الدعاية ، ويعقد المعاهدات العسكرية مع بعض القبائل العربية ، ويستعين ببعض على بعض ، ولماهزم جيشه فى معركة أحد أخذ يرسل الكتائب لتهدد أعداءه وتغير عليهم ، ليعيد للجيش الإسلامى هيبته فى نفوس المشركين والمنافقين ويهود المدينة ، وليحيي فى نفوس المسلمين القوة المعنوية ، ووضع الرسول الأكرم الدولة وأمنها وسلامتها فوق كل اعتبار ، كما وضع آداب الحرب ، فكان ينهى عن حرق الثمار وقتل الأطفال والنساء واليتامى ورجال الدين من اليهود والنصارى ، وينهى عن التخريب والتدمير ، ويأمر بحسن معاملة الأسرى وبدفن القتلى من أعدائه ، ويأمر بالوفاء ورعاية الحقوق والعهود والمواثيق .

وكان إذا اشتد الكرب به وبجنوده يلجأ إلى الله ، يدعوه ويتضرع إليه ، ويسأله النصر والتأييد والمعونة . فما أجله من رسول كريم ؛ وأعظمه من قائد عظيم ... لقد كانت ثورة محمد بن عبدالله ثورة على الفساد والاستبداد والظلم والوحشية والفجور والأهواء ؛ وللقضاء على الفوضى والمحسوبية ، والخيانة ؛ والاستهتار بحقوق الشعوب المقدسة ؛ وحقوق الأفراد والجماعات والفقراء ، والمستضعفين فى الأرض

ولقد نجح محمد بن عبدالله فى ثورته ؛ لأنه لم ينشد الزعامة ولا السلطان ولا المال ولا الحكم ؛ وإنما آمن بالحق ؛ فأعزه الله وأعز به العدل والحق ؛ وراية الإسلام ، وجند المسلمين ؛ وصدق الله العظيم حين يقول : ولينصرن من ينصره إن الله لقوى عزيز .

معجزة الهجرة

فى القرآن الكريم

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم : إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

هى معجزة وعاها الزمن ، ورددتها الأجيال ، ووقف التاريخ حيالها معجباً مشدوهاً ، يتدبر ليفهم آياتها الكبرى ، ويمعن ليدرك أسرارها الخالدة ، وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية .

هذا الرسول النبى الأمى يتلقى الدعوة من الله ، فيصدع بما يؤمر ، ويجاهد فى سبيل نشر كلمة التوحيد ، ويكافح قوى الشرك والوثنية والجمود والطغيان ، كفاحا لم تر الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما ، دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور والرحمة والخير والحرية والإخاء والسلام ، ولكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل ، وامتدت يد الطغيان بالإيذاء والبطش والتهديد والوعيد إلى محمد صلى الله عليه وأصحابه ، وحاولوا أن يكموا أفواه دعاة الرسول حتى لا يفتن الناس عن دين آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من أسلم بالامتحان والعذاب الأليم ، ووقفوا يحولون بين محمد صلوات الله عليه وتبليغ رسالته بكل مايستطيعون ، منعوه بالقوة أن يلقى القبائل ويقرأ عليهم القرآن ، ونشر المشركون دعايات أثيمة لتنفر الناس منه ، فقالوا : هو شاعر وساحر وبه جنة وهى أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، واشتمرت قريش بالرسول وهددوا عمه أبا طالب بالحرب ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته وقاطعوهم أعواما ثلاثة واضطهدوا أنصارهم وشردوهم ولاحقوهم فى البلاد ، وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، ومحمد صامد فى جهاده سائر إلى غايته ، يضحى بنفسه لإنقاذ البشرية وتغيير مجرى الحياة ، وهو يقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وأخذ الرسول يصدف عن قريش والمشركين إلى أهل المدينة من حجاج بيت الله العتيق ، يبلغهم الدعوة ، فآمن به من آمن ، ثم عقد معهم حلفا ، وبايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان فى ذلك هلاك الأموال وقتل الأشراف ولهم الجنة ، وأذن لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، حتى لم يبق منهم إلا القليل .

لكن قريشا والمشركين لم يكفوا ، فأجمعوا أمرهم على قتل الرسول ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه رابط الجأش ، مطمئن الايمان ، ينشر على من حوله السكينة والطمأنينة ، ويقول : «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فإذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة » .

ونبأه الله بالشر المدفون فى قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبى بكر فى حر الظهيرة اللافح ، يعلمه الأمر ، وأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة ، وأنه اختار أبا بكر صاحبه فى هجرته ، فبكى أبو بكر رضى الله عنه من الفرح ، وأخذ للأمر أهبته ، وبات على فى مكان الرسول الأعظم فى الليلة الموعودة ، وخرج محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه فى ظلمات الليل من مكة على خفية ، بين العيون والأرصاد ، والسيوف والأحقاد ، والفتيان المتراصين حول بيته الشريف اسفك دمه فى آخر الليل ، وسار معه صاحبه حتى وصلا غاراً بجبل ثور ، وهو دون مكة على مسيرة ساعة فدخلاه ، ومكثا فيه ثلاثا ، وقريش كادت بعد يذهلها الجنون ، ويقتلها الغيظ ، وقافة الأثر فى كل مكان وطريق ، يبحثون عن محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه ، ليردوهما إلى مكة سالمين أو مقتولين ، حتى وصلوا إلى الغار والصديق يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول للرسول : لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ولكنى أخاف عليك ، فإنك إن قتلت هلكت الامة ، وإن تصب اليوم ذهب دين الله ، فقال له الرسول : «لا تحزن إن الله معنا ، وما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ويقول : اللهم أعم أبصارهم »...

حقا لقد نصر الله عبده ، وأعز رسوله وهزم الشرك والمشركين ، حين نجى محمدا صلوات الله وسلامه عليه فى هجرته ، وأحاطه بتأييده ورعايته ونصرته

وحفظه ، وأيده بالملائكة يذودون عنه ويحمونه وهو فى الغار ، كما أيده بهم من بعد فى بدر والأحزاب وحنين .. ولقد أذن الله تعالى له بالهجرة والخروج من مكة بعد أن جعل المشركون الدعوة إلى الإسلام ضربا من المحال ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، ولكن الله لم يتركه ، بل كان معه ، ينصره وينصر دينه ، ويحمى دعوة السلام والحق والإيمان ، ويذود المشركين عن محمد وهو وصاحبه فى الغار ، ثم وهما سائران فى الطريق إلى المدينة ، وأنزل عليه وعلى صاحبه السكينة والأمن والطمأنينة ، وحفه بجنود الله من الملائكة ، وجعل كلمة الذين كفروا وما أجمعوا عليه من الشرك والكفر والطغيان والاثم ، وما دبروه من كيد لقتل محمد وخنق رسالته ، جعل كلمتهم هى السفلى ، وكلمة الله ودعوة التوحيد ورسالة الحرية والسلام والإسلام دائما أبدا هى العليا ، لا يخفت لها صوت ولا ينطفىء لها نور ، ولا تنكس لها راية ، ومهما ارتفع صوت الكافرين والماديين من أولى الحضارات التى تتنكر للاسلام ، فإلى أمد وحين ، والغلبة والعزة لله ورسوله وللمؤمنين .

حقا إن كلمته هى العليا . ولقد بنى لها محمد صرح الخلود والعزة والمجد والجلال ، من يوم أن خلصه الله من أيدى الكفار ، ونجاه فى هجرته إلى المدينة .. فالهجرة كانت المبدأ فى إعزاز كلمة الله ونشر دعوة الإيمان والإسلام . وهى نصر من السماء ما بعده نصر ، وتأييد ليس يعلوه تأييد ، والله عزيز فى حكمه لا يغلبه ، غالب وحكيم فى تدبيره لا ينقضه إنسان .

فكيف بكم أيها المسلمون تتأخرون ، إذا دعا الرسول للجهاد فى ساعة العسرة . حين عزم على غزو الروم فى تبوك عام عشرة من الهجرة ، وقت قحط وقيظ ، ومع بعد الشقة وكثرة العدو وأخطار الجهاد ؟

كيف بكم لا تلبون داعى الله ، وتخلدون إلى الارض والهوان : أآثرتم الدنيا وزينتها على حب التضحية والكفاح فى سبيل الله والدين ؟ ، إلا تنصروا الله ودينه ورسوله حينئذ ، فإنه ناصره ومؤيده وراعيه ، وقد نصره فى مواطن كثيرة : يوم هجرته ، ويوم بدر ، والاحزاب ، وحنين ، حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، وأعز الإسلام ، وكتب المجد والفخار والخلود والعزة للمسلمين .

رسول البشرية

مضى على انتقال رسول الله محمد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى نحو أربعة عشر قرنا ، ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع ، وذكراه نشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة ، والعظمة الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا النبي الأمي تقديسا للرسالة التي حملها ، وبلغها عن الله ، ونشرها في الخافقين ، وإيمانا بسمو ما جاء به من عقيدة وتشريع ... فان الإنسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم ، والعلم المفرد في تاريخها الخافل المديد .

إن عظمته عليه السلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه ، وجلال شخصيته ، وكمال خلقه ، وسعة أفقه ، وإنه المثل الأعلى للانسان الكامل ، وأنه عاش مجاهدا ، ومات مجاهدا ، في سبيل الله والحق والهدى والنور ، فحسب .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه الرسول المبعوث الذي اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ رسالة الله إلى العالم . على فترة من الرسل . ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء . التي بشر بها الانبياء والمرسلون . وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون دين البشرية عامة ، وعقيدة الناس قاطبة ، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها ، فقد دعت إلى التوحيد المطلق ، وقررت مبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ؛ وكانت دين البشرية بسمو روحها ، وجلال نزعاتها ، ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الانسان في الحياة ، وديمقراطيتها الحقة وما سنته من حب ورحمة وتعاون ، وبما تدعو اليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسئولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، ونشر للعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك ، والضلال والفساد ، والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة ، والاوهام الضارة ، والشهوات الجامحة ، والخرافات الكاذبة ، والتقاليد البالية .

وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية ، والزمالة البشرية ، وأنه

حرب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله

ثم لم يمض إلى جوار ربه ، إلا وقد جمع العرب عليها ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر ، وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وماأجل مايقول فى رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين — عامة الشعب — يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم ، وتحرير الإنسانية ، فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل عقيدة كثير من الأمم والشعوب ، ولن تزال حية بما فيها من حرارة وحياة ونمو وتجدد ولقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة ، وبأياديه الجليلة على الحضارة ، يقول تولستوى : « مما لا ريب فيه أن النبى محمدا من أعاظم الرجال المصلحين ، الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمة إلى الحق ، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام » ، ويقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال : « إن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا لأكثر من مائتى مليون من البشر ، وإن رجلا كاذبا لا يستطيع أن يوجد دينا وينشره ، عجبا والله . وعجيب وأيم الله أمية محمد ، فلم يقتبس من نور أى انسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية » . وصدق الله فيما يقول : « يا أيها النبى : إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .

عيد السلام والحرية

يوم الهجرة الكريم عيد الإنسانية والحضارة والمثل الرفيعة فى حياة البشر كافة ، وعيد الإخاء والمساواة والسلام والإسلام والحرية .

فقد كتب سيدنا محمد صلوات الله عليه فيه أروع الصفحات فى تاريخ العالم كله ، وضرب أعظم الأمثال فى البطولة والتضحية .

هاجر صلوات الله عليه من وطنه ، حيث الاضطهاد الدينى والروحى ، والجمود الفكرى والاجتماعى ، والتعصب للجهل وتقاليد الآباء الضالة ، ومحاربة دين الله والحق ، هاجر بعد جهاد شاق ، وتضحيات كبيرة خالدة على الأيام ، وبعد أن لاقى أنصاره مالاقوا من تعذيب وتشريد . ودخل المدينة هو وصاحبه أبو بكر ، فنشر الرسالة وأدى الأمانة . وحارب الوثنية وحرر الناس من الأهواء والأوهام والخوف والجهل والعبودية ، وساوى بين البشر كافة ، فعرفوا من جديد ماهو الأمن والعدل . وصارت العرب أمة واحدة أخذت تسود الأمم ، وتقود الانسانية إلى الهدى والخير وأكرم الغايات .

وهكذا هاجر الأنبياء والرسل قبله فرارا من الإضطهاد والحجر الظالم على حرية الفكر والعقيدة . هاجر من وطنه مكة إلى المدينة بعد أن أوذى وشرد وعذب المؤمنون به . وصد المشركون الناس عن سبيله ، وائتمروا على سفك دمه .. هاجر تحدوه آمال واسعة فى إنقاذ الانسانية من ضلالها . والسعى بها إلى الهدى والايمان والحرية والمدنية .

وكانت هجرته إيذانا ببدء عهد جديد فى تاريخ العالم ، وحداً فاصلا بين الظلام والنور ، والوحشية والحضارة ، والجهل والمعرفة .

لقد صنع محمد المعجزة التى لم يصنعها أحد قبله : بهجرته . وبما تلا هجرته : من جهاده الخالد العظيم فى سبيل الله ، لبعث يقظة روحية جديدة تغمر العالم كله ،

وللدعوة إلى مبادىء حية لم يسمع بمثلها سمع الزمان . والتبشير بحياة مثلى تسودها المساواة والعدالة والمحبة والتعاون والإخاء والاشتراكية الحقة والديمقراطية الصحيحة والشعور بالمسئولية فى الحياة

يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم فى قصة الهجرة ونصره لرسوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ، وقال فى شأن الأنصار : واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وكانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .

فنى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الانسان ، يرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ماللحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد .. ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها ـ طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله وسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » ..

والطائفة الثانية ـ هم الذين أحبوا الرسول ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والاشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله : والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة ـ يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون، لابد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم فى وثيقة سياسية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها .

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، بين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهم إخاء فريدا فى تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرى والانصارى ويقول : « تآخيا فى الله أخوين أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول الله بين المهاجرى والانصارى فقال تآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى هؤلاء وهؤلاء .

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الاخوة بآخر من الانصار ، وصار لكل أنصارى أخ من المهاجرين يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه ـ فى العقيدة لافى النسب ـ إلى أن نزلت آية الميراث ، فجعل الإرث بين ذوى الأرحام والقرابة .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف مايملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدت مشكلة اخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لاعهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى أصابتهم؟

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم . فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعمر وعلى وسواهم . وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيبا ، كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله: إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب : سبحان الله ولم تخافون عليه؟ كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة . بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ؛ حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والايثار والصدقة والاحسان وإطعام الجائع ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف : وشرع فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال فى خدمة الفقراء . وكان الرسول يضرب فى ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه

قالت عائشة : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا .

وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب ، فقال السلام

عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟ قالت أصبحت والله وجعة ، وزادني وجعا أني لست أقدر على طعام آكله ؛ حتى أجهدني الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال : لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإني لأكرم على الله ، ولو سألت ربي لأطعمني ، ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة .

وحمل إليه صلوات الله عليه في يوم تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها ، وعاد لا يمسك منها درهما

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل دائما كريما في فضيلة الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفيء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم ».

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه في الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة ؛ اذهبوا بها الى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة : فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون ، اذهبوا بها الى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة .

وحرم رسول الله الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، ودعا الأغنياء إلى التنازل لإخوانهم الفقراء عن بعض ما يملكون من أرض أو مال .

رسول الإخاء الإنساني

****
****

يذكر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، كيف نشأ محمد فى مكة فقيرا يتيما أميا ، وكيف قضى أيام طفولته وشبابه يقلب بصره فى السماء ! حائرا يلتمس الهدى والنور ، معذبا يرثى لهذه الانسانية التى أضلتها الأهواء والأوهام ، يقيم فى مكة فيجد الاوثان والأحجار آلهة تعبد دون الله . ويسافر إلى الشام حيث شعب المسيح فيرى التوحيد ينقلب شركا ، والرحمة التى دعا إليها المسيح تصير ضعفا وهوانا عند قوم ، وبغيا وعدوانا عند آخرين ، ويفكر فى حاضر الإنسانية فلا يبصر بصيصا من نور ، ولا بارقة من أمل ، فالناس يعيشون فى ظلمات من الجهل ، ويرسفون فى أغلال ثقيلة من العبودية ، وأى امتهان لكرامة العقل الإنسانى أخطر من الحياة بين الجهل والعبودية والطغيان ؟ الناس طائفتان : طائفة ترتفع إلى صف الألوهية وأخرى تهوى إلى الحضيض ، والعقل البشرى فى جمود وخمول ، يتخذ منهج الآباء شريعة ، ويرى تقليدهم واجبا مقدسا ، وأى حياة للحرية بين الجمود والتقليد ؟ ثم يذكرون بعد ذلك كيف دارت الأيام ، وصار محمد الشاب الفتى رجلا حكيما ، ثم نبيا مرسلا ، وداعية للطهر والتوحيد والحق والعدالة والحرية ، وهاديا للبشر كافة يجمعهم على كلمة واحدة ، ويدعوهم إلى شريعة سماوية طاهرة فيها الهدى والنور والأمل والخير والطمأنينة والسعادة والحرية للناس جميعا ، لا فرق بين عنصر وعنصر ، ولا بين جنس وجنس ولا بين أمة وأمة ، الجميع عباد الله وأبناؤه ، كلهم من آدم ، لا فضل لعربيهم على أعجميهم ، وأكرمهم عند الله أتقاهم .

ويذكرون كيف حارب محمد الوثنية فانتصر عليها ونشر مكانها التوحيد والحرية والإخاء والمساواة ، وكيف قامت على مبادئه دولة لم تكن الشمس تغيب عنها ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة استظل العالم بظلالها أحقابا طوالا ، وكانت نواة حضارة الغرب الحديثة ، وكيف قامت هذه الدولة على تقديس حرية الفكر والرأى والعقيدة ، حتى لقد تجاورت الأديان الثلاثة فى أملاك امبراطورية

المسلمين فلم نسمع إلا عدلا ورحمة وتعاوناً وحباً وتقديسا لحرية الدين ، ولا بدع فقد كان التسامح الدينى ، واحترام أهل الديانات السماوية والأخرى ، حقيقة واضحة فى سياسة الرسول وخلفائه ، فلقد أمن محمد صلوات الله عليه نصارى نجران على حرياتهم الدينية كما فعل الفاروق عمر بن الخطاب مع نصارى الشام ، ولقد حارب الرسول الأكرم فى حياته الجمود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك الإنسانية والعالمية بأوسع معانيهما ، عالم تعرفه أوربا إلا فى القرن العشرين ، وقرر أن أصول الأديان ثابتة ، وان الله شرع لعباده فى الإسلام ما وصى به نوحا وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى .

ويذكرون ما سوى ذلك من ذكريات المجد التليد والعظمة الخالدة ، والعبقرية الحقة والزعامة الصحيحة ، فيستبد بهم الإعجاب ، ويزدهيهم الفخار ، ويقولون سبحان الله ! ! إن هذه أيادى محمد الكريمة على الإنسانية لايكاد يعيها العد ، وتنوء الحياة بدين محمد الفادح عليها ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا الأمى العربى قد بدل سير التاريخ ، وحول مجراه ، وغير مجرى الحضارة ، ونهج للانسانية مناهج لم تعرفها من قبل ولا من بعد ، لأنها خلاصة المثل العليا فى الأخـــلاق والفضائل والآداب وفى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وفى جميع شئون الحيـاة والتفكير ، وبحق إن محمداً لرسول الإخاء الانسانى ، ونبى البشرية كافة ، والعبقرى المفدى الذى لم يلد التاريخ له مثيلا طول الأجيال والقرون التى تعاقبت على الحياة والناس .

كان ميلاد محمد ميلاد الحضارة والثقافة والمدنية والنور والهدى والخير والرحمة والحرية والإخاء والمساواة والتعاون بين الناس كافة .

وبحق ما يقول « بوسورث سميث » : كان محمدا موفقا توفيقا فريداً فى بابه لم يحدثنا التاريخ عن مثله ، فقد جمع بين زعامات ثلاث ، هى زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الدولة ، وبرغم أنه كان أمياً ، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، وهو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم كمعجزة هى دليل العقل والحكمة أكثر من أى معجزة سواها .

ويقول لامرتين الشاعر الفرنسى المشهور :

« أترون محمدا كان أخا خداع وتدليس ، وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعدما وعينا

تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين : كل أولئك من نفاق العقائد ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق ، وإذا كانت قوة الصعود والرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الرسمى الذى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه الحدث ، فى علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية ، هو المقياس الصحيح لمقدار الوحى وقوة القلب والوجدان والفكر السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد ، وتبقى زمناً طويلا ، وتمشى فى الحياة أبدا . وهى بلاريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى ، ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق . ولابد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه . فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته ، وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الاوثان ، وثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته فى وسط أعدائه وخصومه فى قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها . وتقبله سخرية الساخرين ، وهزؤه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وتوافره على السعى فى إظهار دعوته ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر . وإعلاء كلمته واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم . وأناته وصبره حتى يحرز النصر وطاعيته وتطلعه إلى إعلاء الكلمة الإلهية وتأسيس العقيدة الاسلامية ، لافتح الدولة وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ، ونجواه التى لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره ، مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ومين : بل كان وراءه عقيدة صادقة ويقين مضىء فى قلبه . وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة : الأولى تدل على من هو الله ؟ والثانية تنفى ما ألصق الوثنيون به ، الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة . والاخرى فتحت طريقا جديدا إلى الفكر ومهدت سبيلا للنظر .

« فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ، ورواد الانسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشيء عشرين دولة في الأرض ، وفاتح دولة واحدة في السماء من ناحية الروح والفؤاد : ذلكم هو محمد فأي رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الانسانية وكان أعظم منه ؟ وأي انسان صعد هذه المراقي كلها فكان عظيما في جميعها غير هذا الرجل ؟ » .

نبي السلام والحرية

المؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيمانا بالسلام : وحرصاً عليه لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الإنسانية : وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها ، وعرف أنها سبب العزة والحياة ، وباب التجديد والأمل والتقدم والمدنية .

وما أروع مواقف سيدنا محمد صلوات الله عليه فى تقرير هذه المبادىء الكريمة والدفاع عنها .

ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيرا فى حلف الفضول : مع بنى هاشم وزهرة وتيم ، يتعاهدون بالله المنتقم « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه » ، وكان يقول : « لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار ابن جدعان ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » ، ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش ، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة ، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

كانت سياسته ـ صلوات الله عليه ـ اللين والشفقة والتواضع ، وتحيته « السلام عليكم ورحمة الله » ، عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والعاون والإخاء ، آخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة فى الدين وأن البشر جميعاً إخوان فى الإنسانية ، وألغى الحواجز والفواصل بين الأمم ، ونزل القرآن الكريم يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره فى أشد المواقف وأحرج الأزمات ، أرأيته حين طارده المشركون فى الطائف ، وقد أقبل يدعوهم لدينه ، كيف يجلس إلى ظهر بستان ، ويتوجه إلى ربه قائلا : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » .

لم يمش محمد إلى الحرب ، إلا دفعا للعدوان . ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً للسلام والحرية ، حتى وقف وهو حدث السن . يذود عن حرية قومه فى حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط النفوذ والسلطان . أو الفساد والاستغلال والطغيان

ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الإقناع والبرهان . وقال له ربه : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ».

وشريعة محمد صلوات الله عليه التى نزلت عليه ، وهى الإسلام ؛ اشتق اسمها من السلام ، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على النفس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة ، حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ؛ يشكون ويضجون ، فقال له : ياعم كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، : تقولون « لا إله إلا الله » وتخلعون ماتعبدون من دونه ، فسخروا منه . وقالوا : تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلم ، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه ، أما محمد المدافع عن الحريات فان أمره لعجب ، أحب الحرية ، منذ طفولته ، ورثها عن قومه وبيئته ، ورباه الله عليها ، ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريما أبيا وفتى حرا عربيا ، يتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم ، وغضبه للحق ، وإسراعه لنصفة الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ومقاومة المعتدين والغاصبين ، وزياده عن شخصية الإنسان وحقوق المستضعفين ، والذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد جلس إليه خباب وعمار وبلال ويسار وأشباههم ، هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لوكان ماجاء به خيرا ماسبقونا إليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا إليه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ».

قرر محمد وحمى الحرية الشخصية ، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة : ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم ، وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لايظلم أو يعتدى على أحد ، مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع المخالفين له من يهود يثرب خير تقريرا لحرية العقيدة والرأى . وحرمة المدينة والمال كما يقرر الباحثون .

حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق . وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة . وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم ،

كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى » . وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب ، وألغى العصبيات والامتيازات والفروق الطائفية والعنصرية ، فالناس سواء كأسنان المشط . لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى . ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح . وليس هناك شعب له حقوق فى السيادة على غيره من الناس .

هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية . والذى لم يلبس مسوح السلام ليخدع الناس ويغرر بالشعوب . والذى حطم الشرك والوثنية ، وهدم عروش الطغيان والجبروت . وألغى الرق البشرى ، وأبقى أسرى الحروب المشروعة فى نطاق واسع من الشرف والكرامة . والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة ، تخضع لأسمى المبادىء ، وتؤمن بأكرم الأهداف وتطبقها ، والذى نفخ فى أورواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ، ليس هناك سيد ومسود . إنما السيادة لله ولرسوله ، ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة .

يوم خالد ..!

ذلك هو يوم ذكرى الإسراء والمعراج الحية الباقية أحاديثها العاطرة على مر الأيام .. إن هذه الذكرى الإسلامية المحمدية الخالدة ، وتلك الليلة النبوية الكريمة الزاهرة ، وهاتيك المعجزة التى لم يع مثلها سمع الزمان ؛ ولم تسجل شبيها لها أسفار الخلود ، إن هى إلا معجزة كبرى ، ومنقبة عظمى ، وآية باقية ، للرسول الأعظم ، محمد صلوات الله عليه ، ولمن آمن به وصدق برسالته .

ولايزال نشيدها الرائع ملء القلوب والأرواح والأسماع ، لأنها من صنع الله وقدرته ، ومعجزة دونها المعجزات ، وكرامة يحار الفكر فى فهمها ، ولايزال العلم مع ما وصل إليه من ازدهار عاجزا عن إدراك كنهها . حائرا حيال روعتها وجلالها . . لأنه هكذا شأن المعجزات .

لقد خص الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بكرامه ملؤها الكرامات . هى كرامة الأسراء ، وإمامة الأنبياء ، والعروج إلى ملك الله وسماواته ، ورؤية المولى جل جلاله ومناجاته ، والوقوف بسدرة المنتهى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى ، واحتفاء الملائكة والكون والأنبياء به ، ودعواتهم الصالحات له فى كل خطوة خطاها ، كما خص الأنبياء والرسل قبله بكرامات ومعجزات .

وقعت معجزة الإسراء والمعراج فى مكة ،قبل الهجرة ، بعام واحد على الصحيح ، بروح محمد وجسده معا ، وهو فى حال اليقظة التامة ، فى ليلة واحدة هى ليلة السابع والعشرين من رجب ، على ما عليه إجماع جمهور العلماء والمسلمين . . مما تؤيده الأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة ، ومما خلد ذكره القرآن الكريم ، إذ سجل قصة الإسراء فى قوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا . إنه هو السميع البصير» .

كان جهاد الرسول صلى الله عليه حينئذ قد بلغ الذروة فى سبيل الرسالة العظيمة التى بعثه الله بها ، ليبلغها للناس كافة ، وهى رسالة الخير والطهر ، والعزة والسمو والفضيلة ، والمحبة والحرية والمساواة ، والسلام والإسلام . . .

وكان اضطهاد مشركي قريش ومكة والعرب له ولمن آمن به يومئذ قد بلغ الغاية ، وكان الرسول الأعظم يومئذ قلق الفكر ، مشرد الخاطر ، « لا يدرى أيان يأتى نصر الله ، وكيف ومتى توأد الوثنية ، ويضىء العالم نور الإسلام .

وفى ليلة رهيبة ، كتب الله لها العزة والخلود على وجه الزمن ، كان الرسول نائما فى بيت عمته أم هانىء بنت أبى طالب بمكة ، فنزل جبريل عليه من السماء ، فأيقظه ، وأخذ بيده ، ومسح صدره المطهر بيد الأمان والإيمان والطهر والحكمة ، ثم أتاه بدابة فركبها ، وأسرى به ليلا من المسجد الحرام فى مكة ، وأراه الآيات الكبرى فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى المسجد الأقصى فى بيت المقدس ، ثم أذن مؤذن ، فأقيمت الصلاة ، فأخذ جبريل بيده ، فقدمه فصلى بالملائكة والأنبياء إماما ، فلما قضيت الصلاة قال جبريل : هذا محمد رسول الله خاتم النبيين ، قالوا : حياه الله من أخ وخليفة ، فنعم الأخ ، ونعم الخليفة

ثم انطلق به جبريل ، فشق به الحجب ، واخترق الآفاق ، وصعد إلى السماوات ، يخترقها سماء بعد سماء ، والملائكة تحييه ، والأنبياء والرسل تناجيه وتناديه ، والكون يهتف باسمه ، والوجود كله يترنم بذكره ، والحياة ضاحكة مستبشرة .

حتى انتهى إلى البيت المعمور ، فسدرة المنتهى ، تغشاه أنوار الجلال والجمال ، ويخاطبه مولاه الكبير المتعال ، حينئذ رأى النور الأعظم ، وأوحى الله إليه ما شاء أن يوحى ، وخصه بالنعمة والكرامة ، ومنحه الخير والرضاء والمحبة ، وفرض عليه وعلى من آمن به الصلاة ، وجعله خاتم الأنبياء ، والشفيع المشفع ، فى الخلق يوم القيامة

قالت أم هانىء عمة رسول الله : ما أسرى برسول الله صلى الله عليه إلا وهو نائم عندى تلك الليلة فى بيتى ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا . فلما كان قبيل الفجر أهبنا برسول الله ، فصلى وصلينا معه ، وحدثنا الحديث . ثم قام ليخرج حين بزغ ضوء النهار ، فأخذت بطرف ردائه ، فقلت ، يا نبى الله لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : « والله لأحدثنهموه ، وخرج فأخبرهم ، فعجبوا وأنكروا وهزئوا وسخروا ، وارتد منهم كثير ممن كان أسلم برسول الله . وجاء أبو بكر ، وسمع ما سمع . فقال : يا نبى الله صدقت ، أشهد أنك رسول الله ! فسماه رسول الله من يومئذ الصديق

هذا هو حديث الاسراء والمعراج ، وما كان فيه من بلاء وتمحيص وعبرة لأولى

الألباب ، وهدى ورحمة لمن آمن بالله ، وصدق برسالة الإسلام . وكان من أمر الله على يقين . ومافيه من معجزات ناطقات بجلال الإسلام ، وعظمة نبي الإسلام.

والعقل اليوم يجب أن يكون أقرب مايكون إلى تصديق هذه المعجزة الكبرى ، بعد ما بلغت المعرفة الانسانية ما بلغت من ازدهار ، وأدركت ما أدركت من قوى الكون وأسرار الوجود ، فى عصر الكهرباء والذرة .

أنرى الانسان يطير فى السماء بآلة مصنوعة ، ونرى التنويم المغناطيسي وتصرف الروح فى الجسم وائتماره بأمرها، ونقرأ ما أثبته علماء الاسبرتزم والابنوتزم بالتجارب العديدة التى تسلطت فيها خصائص الروح على طبيعة الجسم حتى لم يكن للمؤثرات الخارجية عليها من سلطان ، . ثم لانؤمن بالاسراء والمعراج ؟ . . كلا والله .

والعلماء اليوم يحاولون بقدرتهم الإنسانية المحدودة أن يصلوا إلى المريخ والقمر ، فهل تعجز قدرة الله عن أن تصعد بانسان فى لحظة إلى سماواته ، ليقف خاشعا أمام جلاله وعرشه ؟ كلا والله .

البَابُ الثَالِثُ

كتاب الإنسانية الخالد

كتاب البشرية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ، وقضت على هذه الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية والجهل علما ومعرفة وفنا وأدبا وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى السلام والنور ؛ ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذيع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق ، وأكرم الرسل ، وأشرف من فى الوجود ، محمد صلوات الله عليه . فبلغه الناس ، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى ، فتبارك الله رب العالمين .

« ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان يتناهى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، إذا هى بعد ذلك إطباق السحاب ، توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هو السحر المبين »(١) ، وتصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته

---

(١) ٢٩ إعجاز القرآن للرافعى ط ١٩٢٨

البينة ، وبلاغته المتدفقة، ورأوا هدايته النادرة، وفصاحته الباهرة ، ومافيه من روعة التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير ؛ قالوا : إي والله إنه لشعر شاعر، وسحر ساحر، إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر ؛ إنها لإحدى الكبر ، وماهو بقول بشر ، إن هو إلا وحي يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى ، أشرقت بنوره السماء والارض ، واهتدت بهديه الملائكة والبشر أجمعون .

دستور الإسلام

وآراء مفكرى الغرب فيه

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الإلهى الحكيم ، والذى آمن به كل مسلم ومسلمة ، وهو معجزة محمد الباقية على أمد العصور والدهور ، وهو كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

نزل فى آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، وكانت هدى ونوراً للبشر كافة ، حيث قضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى والهمجية مدنية والجهل علما ومعرفة وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير ، وطمح إلى السلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى ، وتذيع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، وعمران وحضارة ، وحدود محدودة ، وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

وبينما كان الرسول الأعظم ، محمد بن عبد الله ، صلوات الله عليه ، يتعبد فى غار حراء فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ م .. نزل عليه جبريل بالرسالة الالهية العظمى التى اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما فى الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : اقرأ

قال : ما أنا بقارئ.

قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم .

وقد نزل الذكر الحكيم فى أسلوب لايضارعه أسلوب ، فلاهو شعر ولاهو سجع ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . انما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية حصيفة ، وجلال وروعة . جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز .

والمفكرون من الغرب يقفون أمام القرآن الكريم مذهولين مشدوهين متحيرين ، مقرين بعظمته وجلاله ، وعبقرى أثره على الحياة والإنسانية .

يقول الدكتور موريس الفرنسى :

« لقد قلقت نفسى ، واضطربت حواسى لقول المسيو رينان » : إن القرآن غير فصيح ولا بليغ . إذ لو جاز لامرىء غير مسلم أن يرتاب فى صدق القرآن وصحة دعواه ، فلايجوزله أبداً أن يرتاب فى صحة عبارته و وكونه فى الذروة والسنام من الفصاحة والبلاغة . بل لنا أن نقول : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر . فهو قد تضمن أناشيد لإسعادهم خيرا من أناشيد فلاسفة اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه الثناء على مبدع السموات والأرض ، وتمجيد الله سبحانه . . إن مزايا القرآن الأولية ، وأركانه الأساسية ، إنما هى فى صحته وحقيقة مبانيه ، وأنه كتاب لا ريب فيه .

ويقول هنرى دى كاسترى : لولم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه ، وجمال مبانيه ، لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ، ويأخذ بمجامع القلوب . ولقدنزل على محمد دليلا على صدق رسالته ، وهولايزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار ، التى يتعذر فك طلاسمها ولن يسبرغور هذا السر المكنون ، إلامن يصدق بأنه منزل من الله

وقال جبيون :

القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فحسب ، بل وللاحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدارحياة النوع الانسانى ، وترتيب شئونه . وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الاسلامى ، فهوقانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية .

وقال يورروث سميث :

من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور، وجلائل الاعمال . فإنه مؤسس لأمة وامبراطورية وديانة .. ومع أنه أمى فقد أتى بكتاب هو آية فى البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة والدين فى آن واحد ، وهو كتاب مقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، وهو معجزة محمد القوية ، وحقاً إنه لمعجزة

وقال المسيو ليون :

حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشىء .. من أسلوبه الذى لا يزال غضا ، كأن عهده بالوجود أمس .

ويقول جوستاف لوبون :

إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الأولية ، حتى إن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام ، لا يعوقه عائق .

وقال جوته :

إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد . لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بعاداتهم القديمة .

وقال كارليل :

إن علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التى بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة .

ويقول مانويل كنج من محاضرة له :

إذا كان فى عالم الإلهام أمر يدعى وحيا ، وكان للوحى وجود كامل ، فلن يشك فى أن القرآن كتاب منزل .

وقال سديو فى كتابه «تاريخ بلاد العرب» : القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة .

وقال الفيلسوف الفرنسى آلكسى لوازون : خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة ، وسجل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الاسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

وقال الكاتب الامريكى واشنطن ايروينج : يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة وإخلاصاً .

القرآن
هادى الانسانية

طبع القرآن المسلمين الأولين على مكارم الخلق ، ونبل النفس ، وقوة الإيمان ، وجلال التضحية ، وجمال الإيثار ، وبث فيهم الشعور بالمسئولية ، ونأى بهم عن الرذائل والمنكرات والشبهات ، وسار بهم إلى طاعة الله ومرضاته ، وحبب إليهم العدل والانصاف ، حتى لقد قتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد خائن غادر لئيم ، فتكالب المسلمون على ابن ملجم ، فقال لهم عمر وهو فى الرمق الأخير : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، فان أعش فأنا ولى دمه ، إما عفوت وإما قصصت ، وأن أمت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فلم يصيخوا لكلامه فنادى فى أهله : يا بنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضا ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل ، فإنى سمعت رسول الله يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

هكذا كان المسلمون الأولون ، ولو وازنت بين ما قاله عمر ، وبين ما فعلوه فى أمريكا من القضاء على نحو أربعمائة نفس ، انتقاما من أهل جزيرة حاول اثنان من أهلها قتل ترومان لاستبداد حكامه بأهل الجزيرة ، ولو رأيت ما يفعله الحكام بالمحكومين حين يقتل منهم واحد ، لهالك الفرق بين عدالة الاسلام وعدالة الشرائع الوضعية الحديثة ، ولقد بحد المؤتمر الدولى الذى اجتمع فى لاهاى منذ أعوام الشريعة الإسلامية التى قامت على أصول القرآن ، وأشاد بفضلها ، فسجل فى قراراته أن الشريعة الاسلامية ، تحمل العناصر الكافية ، التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن ».

هدى القرآن الإنسانية كلها بما أذاعه من مبادىء سامية ، حاربت الفوضى والطغيان والوحشية والظلم والرق ، ونشرت فى العالم كله راية الأمان والسلام والإخاء والحرية والمساواة والديمقراطية والتعاون والمحبة بين الناس كافة ... اعترف القرآن للمرأة بحريتها وحقها فى الحياة ومساواتها للرجل فى شئون الدين والمال

والحقوق والواجبات ، واعترف بحرية الانسان وكرامته فى الحياة ، وبحرية الجماعات والأمم والشعوب ، وحارب العصبية وحمية الجاهلية حربا لاهوادة فيها ، وساوى بين الناس كافة ، وجعل الناس إخوة ، تجمعهم صلات قوية فى الله : « يأيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى ، وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وحرم الخمر والزنا والبغى والعدوان والظلم والسرقة ونهب أموال الناس بالباطل ، والمنكرات والرذائل ماظهر منها ومابطن ، والميتة والدم ولحم الخنزير ، وأعلن حرية الرأى والعقيدة ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ورفع علم الشورى والديمقراطية والتعاون فى خدمة المجتمع والسلام الإنسانية.

وحارب الترف الذى هو ألد أعداء الحضارة والتقدم ، والذى سجل بيتان خطره على كيان الأمم بعد هزيمة فرنسا فى الحرب العالمية الثالثة بيد الألمان ، فقال : « لقد أتت الهزيمة من الانحلال ، فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية » . . . وحافظ الإسلام على كرامة الأسرة وعفاف المرأة وشرفها ، فأقام الأسرة على أسس سليمة قوية لا يعتريها وهن أو انحلال .. وحث على الإيثار وأن ينصب الفرد نفسه فى خدمة الفرد والجماعة . وأتى بأحدث المعارف فى خلق العالم وشئون الاجتماع وقوانين الصحة ، ونظم الاقتصاد وفى السياسة . وحرر الفكر الإنسانى من جموده ، وكشف مجاهل التاريخ وأحداثه ، ووضع أصول المدنية الفاضلة . وحث على العلم والمعرفة وعدم الشرك والوثنية ، والأهواء والأضاليل والأوهام الفاسدة ، والأساطير الكاذبة ، ووضع أصول العبادات والمعاملات الحسنة بين الناس ، وشرع الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ودعا إلى الطهارة والنظافة وجمال المظهر وكمال المخبر .

وبعث الطموح والأمل والحياة فى النفوس الإنسانية ، لتعمل وتكد ، فى سبيل بناء الحضارة وعمران الدنيا .

وغرس الزهد والقناعة وحب الخير والحق والعدل والإنصاف فى كل قلب ، فهل وراء ذلك غاية لطامح ، وأمل لإنسان أو مصلح ؟

حقا إن القرآن دستور الإسلام ، وهادى الإنسانية الأمين ، ومنقذها من الضلال والظلام .

نزول القرآن

بينما كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يتعبد فى غار حراء ، فى يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ م(١) ، نزل عليه جبريل بالرسالة الألهية العظمى التى اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما فى الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم » .

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم(٢)

وأول سورة أعلنها الرسول بمكة هى « والنجم إذا هوى »

وأول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هى « ويل للمطففين »

استمر نزول القرآن بعد البعثة فى مكة قبل هجرة الرسول صلوات الله عليه ، ثم بعد الهجرة والرسول الأكرم بالمدينة ، حتى توفى إلى رحمة الله عام ١١ هـ - ٦٣٢ م

كان القرآن الكريم ينزل منجما مفرقا وفق الوقائع ، ومسايرة للحوادث ، وتدرجا فى التكاليف ، وتنقلا بالتشريع حسب الطباع ومدى استعداد النفوس ؛ وكانت آخر

---

(١) سار على ذلك كثير من الباحثين ومنهم المرحوم الخضرى بك فى الجزء الأول من تاريخ الأمم الإسلامية ، وإن كان الرافعى يقول إن ابتداء الوحى كان بمكة عام ٦١١ م (٣٤ إعجاز القرآن)

(٢) يروى السيوطى آراء أخرى لبعض العلماء ، فبعض يزعم أن « ن » كانت أيضا أول مانزل من القرآن ، وآخرون يقولون « المدثر » ، وآخرون يقولون إنها الفاتحة الخ (راجع ٢٩ وما بعدها ج ١ من الإتقان ط ١٩٤١)

آية نزلت من القرآن الحكيم قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا (١) ، حيث نزلت فى حجة الوداع ونزل قبلها بقليل سورة براءة .

وتم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه فى ثلاثة وعشرين عاما ، مابين بعثته إلى وفاته ، كان فى ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة ، وطنه الذى ولد وربى ونشأ فيه ، وفى عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة بعد هجرته صلوات الله عليه من مكة حيث نشر الدعوة وحماها وأيدها .

ومجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة ، منها الطويل والقصير ، ومنها ، مانزل فى الموعظة والهداية ، ومانزل فى التوحيد ومحاربة الشرك والأهواء ، ومانزل فى التشريع ونظم العبادات والمعاملات وقوانين الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية ، ومانزل فى أمور الآخرة والغيب وشرح تطور الانسانية وقصص الأمم الماضية وبغيها ومصيرها المحتوم ، أو نزل فى شرح أسرار الوجود ومظاهر الغيب وأمور الآخرة ، وتشتمل السور على كثير من هذه الأغراض الموحدة .

والسور قسمان : مكى ومدنى

فالمكى منها على أرجح الآراء هومانزل قبل الهجرة ، والمدنى مانزل بعدها (٢)

والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والعصر .

وما عدا هذه السور وهى اثنتان وتسعون سورة فهو مكى

---

(١) وفى الإتقان خلاف كثير حول آخر مانزل من القرآن ، فقيل آخر آية نزلت : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » ، وآخر سورة نزلت «سورة براءة » ، وقيل آخر آية نزلت آية الربا ، وقيل : واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ـ وكان بين نزولها وبين موت الرسول أحد وثمانون يوما وقيل تسع ليال ، وقيل آخر براءة الخ (١/٤٤ الانقان وما بعدها)

(٢) راجع ١/١٣ الإتقان للسيوطى ، وقيل المكى مانزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدنى مانزل بالمدينة . وقيل المكى ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة (١٣ و ١/١٤ الإتقان) . هذا وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيا وتسمى مدنية إذا كان أكثرها مدنيا ،

سُوَر القرآن

مكية ومدنية

أما السور المكية فأظهر موضوعاتها هى .

١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان

٢ — تأييد رسالة محمد صلوات الله عليه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة ألا وهى القرآن الكريم .

٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر والرد على من ينكر ذلك فى إفاضة وقوة حجة وتأثير

٤ — قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والانبياء وإصرارها على الضلال وما حل بها من المثلات تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون

٥ — محاربة التقليد ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ونبذ الاوهام والأساطير والخرافات والتفكير فى نواميس الله فى الكون .

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهى مايلى :

١ — تشريع النظم والقوانين للفراد والأسرة والجماعة والأمة لتسير الإنسانية إلى حياة كريمة مهذبة تليق بكرامة الإنسان خليفة الله فى الارض ، إلى الفضيلة والخير والعدل والحق والأمن والسلم والعمران والحضارة .

٢ — الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة

٣ — تقرير وحدة الإنسانية والأخوة البشرية العامة وتعزيز الصلات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطبقات والجماعات والشعوب، ورفع كرامة الانسان الادبية فى الحياة ، وتعزيز شخصية الإنسان وإيضاح رسالته ورسم الاهداف الكريمة التى يجب أن يسير إليها ويعمل لها فى الحياة

٤ — وضع شرائع الحرب والسلام ، التى تسير مع الإنسانية العالية ، وتوافق مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان

وعلى العموم فالسور المدنية احتوت على أكثر التشريع الإسلامى وأودعت أعظم الآداب الإجتماعية والسياسية، التى تؤلف القلوب، وتحوط الملك وتصون الشعوب

وقصارى الكلام أن القرآن كتاب هداية ونور ودين ودنيا وخير عام ، وهو دستور الإنسانية المهذبة ، ووثيقة الحرية والمساواة والإخاء، التى نالها الإنسان على طول الأيام والأحقاب .

جمع القرآن

الجمع الأول :

كان بعض الصحابة يكتبون ماينزل من القرآن - ابتداء أو بأمر الرسول صلوات الله عليه - على مايتفق لهم من العسب والألواح والرقاع واللخاف(١) وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع وكل ماصلح للكتابة .

كان كل يكتب ماتيسر له كتابته ، وكان منهم بعض قليل كتبوا القرآن كله والاجماع على : على بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت (٢) ، وقبل وفاة الرسول عرض زيد القرآن عرضة على رسول الله صلوات الله عليه ،ففي عهده صلوات الله عليه كان القرآن مرتب السور والآيات ولكنه غير مجموع في كتاب واحد .

وكان يحفظ القرآن كله أو بعضه كثير من الصحابة في عهده عليه الصلاة والسلام ، وتوفى الرسول والقرآن محفوظ في صدور الصحابة وفى الرقاع التي كانوا يكتبون آياته وسوره فيها .

وتقلد أبو بكر خلافة المسلمين . ونهض بعبء الدعوة النبوية ، وأخذ يحارب أهل الردة في معارك كثيرة ، كان منها غزوة أهل اليمامة التي مات فيها كثير من الصحابة والقراء رضوان الله عليهم ، ويقال إن عدد من قتل فيها سبعون قارئا من الصحابة ، وخيف أن يكثر موتهم في الغزوات والحروب .

ففزع أبو بكر وعمر عليهما رحمة الله من ذلك ، ورأى عمر جمع القرآن من صدور

---

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل وكانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض . واللخاف جمع لخفة بفتح فسكون وهي صفائح الحجارة

(٢) يروى أن زيد بن ثابت تعلم الفارسية من رسول كسرى ، والرومية من حاجب النبي ، والحبشية من خادم النبي والقبطية من خادمه أيضا (ص ٣٠٦ جـ ٣ العقد). وكان كتاب الوحي حول رسول الله نحو الأربعين منهم جلة الصحابة رضوان الله عليهم .

الصحابة ومن الألواح والعسب والأكتاف، ويروى أنه دخل على أبي بكر فقال له: ياخليفة رسول الله إن أصحاب الرسول باليمامة يتهافتون تهافت الفراش فى النار وإنى أخشى أن لا يشهدوا موطنا إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا، وهم حملة القرآن، فيضيع القرآن وينسى، فلو جمعته وكتبته (١)

فكر أبو بكر فى الأمر واستشار فيه الصحابة، وكان يفزع من أن يضع شيئا لم يأمر به الرسول الأعظم صلوات الله عليه، ولذلك قال أبو بكر لعمر: أفعل مالم يفعل رسول الله صلى عليه وسلم!!

وأرسل أبو بكر إلى زيد بن يزيد يستشيره فى الأمر، فكره ذلك، فقال عمر لهما: وما عليكما لو فعلتما ذلك حتى ألهمهما الله به، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمع القرآن كله من الرقاع وصدور الرجال ونسخه فى قطع الاديم والأكتاف والعسب، وسمى أبو بكر هذه الالواح المكتوبة التى جمع فيها جميع القرآن الكريم مصحفا، وحفظت هذه الصحف عند أبى بكر حتى توفى، ثم عند عمر طول حياته، ثم حفصة بنت عمر صدرا من ولاية عثمان

وهذا هو الجمع الأول، وقد حدث فى عهد أبى بكر على يد زيد بن ثابت (٢) وبإشراف الخليفة وعمر وكبار الصحابة، وكان الغرض منه جمع نص القرآن الكريم فى مجموعة واحدة، حتى لا يضيع شيء منه بموت الصحابة والقراء فى الغزوات والحروب

الجمع الثانى:

وفى عهد عثمان تفرق الصحابة والقراء فى الأمصار، فكان ابن مسعود فى الكوفة وأبو موسى الأشعرى فى البصرة والمقداد بن الاسود فى دمشق، وأخذ عنهم أهل تلك البلاد وجوه القراءة والترتيل، مما أدى إلى تعدد القراءات واختلاف المسلمين فى قراءة القرآن اختلافا كثيرا، حتى كان الواحد منهم يقول للآخر، قراءتى خير من قراءتك، والآخر يقول: بل قراءتى، واستمر الأمر على ذلك إلى أن شهد حذيفة ابن اليمان وهو صحابى جليل غزوة أذربيجان وغزوة إرمينية وشاهد هذا الاختلاف

---

(١) راجع فى ذلك الاتقان ٩٨ / ١ وما بعدها.

(٢) وكان يعاونه بعض كتاب الوحى وفيهم سالم مولى أبى حذيفة كما يروى

الوبيل وحذر من سوء المصير إذا استمر هذا الاختلاف .

فأرسل عثمان إلى حفصة يستأذنها فى أخذ الصحف التى جمع فيها أبو بكر القرآن فأذنت له ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام وسعيد بن العاص بأن ينسخوها فى المصاحف ، وأمرهم بأن يرجعوا فيما اختلفوا فيه إلى زيد بن ثابت ، وما اختلفوا فيه جميعا أن يكتبوه بلسان قريش، فان القرآن نزل بلسانهم ، فكتبوا مصحفا عرضوه على صحف حفصة ، فلم يختلف فى شيء ، فرد عثمان صحف حفصة إليها ، وفرح بما عمل فرحا شديدا

حروف القرآن

الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وهو معظمه ، وما نزل بهذ اللغة كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل ، وبعضه نزل بلغة اليمن فكتب بلغتهما ، وهكذا . ولا يخفى أن القبائل التى نزل بعضه بلغتها يجوز لها ان تقرأ جميعه بهذه اللغة لأن فى نزول بعضه بلغتها ترخيصا لها فى قراءته جميعه بهذه اللغة ، فالذى حصل فى زمن أبى بكر رضى الله عنه هو أنه جمع الآيات المتفرقة سورا فجعل كل آية بجوار صاحبتها طبقا للمحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون زيادة ولا نقص ، فجعل كل سورة على حدة ولم يرتبه اكتفاء بترتيبه فى صدور الحفاظ ، على أنه لم يغير شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله ، وأما عثمان رضى الله عنه فقد كتب مصحفا بلغة قريش خاصة ورتبه طبق المحفوظ

فالأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ فى القبائل ، ولم يوجد منها شىء فى مصحف عثمان ، لأنه كان مقصورا على لغة قريش .

أما السبب فى اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ، فقد أجاب عنه بعضهم بأن القرآن قد تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم بلغات العرب على الوجه الذى تقدم ، ونقله القراء من الصحابة إلى الجهات المختلفة على هذه الحالة ، فتواتر نقله بلغات متعددة ، فلما كتب المصحف العثمانى وبعث به إلى تلك الجهات التى كان بها بعض القراء من الصحابة ، عملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف ، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة مما لا تدل عليه كتابة المصحف ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف . قال الحافظ ابن حجر فى هذا البحث : إن السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التى وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة . وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعا من الصحابة بشرط موافقة الخط ، وتركوا ما يخالف الخط

امتثالا لأمر عثمان الذى وافقه عليه الصحابة، لما رأوا فى ذلك من الاحتياطات للقرآن، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار

وقد يكون عثمان رضى الله عنه لم يحرم قراءة القرآن باللغات التى تواترت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة بين المسلمين، فكتب مصحفه ليكون مرجعا يرجع إليه الناس عند الاختلاف، فاذا قرأت قبيلة بلغتها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى أمكنهم الرجوع إلى الأصل. وظاهر أن غرض عثمان ومن وافقه حفظ أصل القرآن وصون عباراته من التبديل والتحريف، وذلك يحصل حتما بالاجماع على التمسك بنص ما كتب فى مصحفه، أما غيره من المد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير فى نص القرآن فذلك مالا ضرر فيه البتة، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم لعمر: «ياعمر: القرآن كله صواب مالم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة».

ويروى أن عمر سمع هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان فإذا هو على حروف لم يتلقنها عمر من رسول الله قال: فكدت أساوره فى الصلاة وتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فسمع منى وسمع منه، وقال لكل منا: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ماتيسر منه.

وبعد فقبائل العرب التى نزل القرآن بلهجاتها هى:

قريش سعد — ثقيف — خزاعة — هذيل — كنانة — أسد — ضبة — قيس وأحلافها. ثم ارتفعت هذه اللغات وبقيت لغة قريش، وأصبح القرآن يقرأ بلغة قريش.

والقراء السبع الذين رووا القراءات السبع هم:

نافع بن أبى نعيم م ١٦٩ هـ عبد الله بن كثير م ١٢٠ هـ

أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ. عبد الله بن عامر اليحصبي م ١١٨ هـ

عاصم بن بهدلة الأسدى م ١٢٨ هـ حمزة بن حبيب الزيات م ١٥٦ هـ

على بن حمزة الكسائى م ١٨٩ هـ

وهنالك سبع روايات تم عليها الأجماع، وثلاث قوية السند ولم تصل إلى لإجماع، وأربع أخرى بين القوة والضعف، فجملة ذلك كله أربع عشرة قراءة.

آثار القرآن

فى اللغة والأدب

القرآن كتاب العربية وناموس شريعة محمد صلوات الله عليه .. تعبدبه المسلمون منذ بدأ الإسلام حتى اليوم ، وحفظوه ورددوه وقرأوه بلغات قريش التى نزل بها .
وكان له أثر عظيم فى اللغة العربية وآدابها مما يمكن تصويره فيما يلى . .

أثره فى اللغة :

١ — وحدة اللغة واللهجات العربية فى لغة قريش ، وهى أفصح لهجات العرب لفظا وأبلغها أسلوبا وأعذبها نظما ، وكان ذلك من أسباب وحدة المسلمين كافة ، إذ اتخذوا هذه اللغة القرشية لغتهم ، فزادتهم وحدة فى اللغة فوق وحدتهم فى الدين .

٢ — حفظ القرآن الكريم العربية من العفاء والانقراض ، كما انقرضت من قبل لغات كثيرة أصبحت فى عداد اللغات الأثرية ، فأصبحت العربية لغة القرآن الذى كفل الله بقاءه إلى يوم الدين

٣ — والقرآن أول عامل فى ذيوع اللغة العربية وانتشارها فى شتى البلاد والأصقاع وأصبحت هى لغة الدين والسياسة والأدب والثقافة والقراءة والكتابة فى شتى بلاد العالم الإسلامى الواسعة ، وكثير من البلاد التى فتحها المسلمون هجر أهلها لغتهم الأصلية وتعلموا العربية واتخذوها لهم لسانا ليفهموا بها القرآن قانون الدين الخالد وليتفاهموا بها مع الحاكمين ، ومن يعاشرونهم ويخالطونهم من العرب .

٤ — بتأثير القرآن عكف الأدباء والرواة على جمع اللغة وآدابها وأشعارها وحكمها وبلاغاتها وأمثالها ووصاياها وخطبها مما كان مادة للثقافة العربية على مر الأيام

٥ — وقد ساعد القرآن على تهذيب ألفاظ اللغة وأساليبها، فهجر المسلمون الكثير من الحوشى والغريب والمتنافر ، واختاروا العذوبة والسلاسة والسهولة والرقة فى اللفظ والنظم .

٦ — وسع القرآن الكريم نطاق اللغة باستحداث الألفاظ الإسلامية التى

نقلت من معانيها إلى معان جديدة أتى بها القرآن الكريم، كلفظ المؤمن والمنافق والإسلام والصلاة والصوم الخ.

٧ — والقرآن هو الذى دفع المسلمين إلى العناية بشتى العلوم الدينية والعربية ووضعها، مما كانت هى أساس صرح المدنية الإسلامية الباهرة.

أثره فى الأدب العربى

وللقرآن أثر كبير فى الأدب العربى:

١ — فقد تأثر به المسلمون فى بلاغته وفصاحته وعذوبته، فلانت أساليبهم وعذبت ألفاظهم ورقت طباعهم، واقتبسوا منه فى شعرهم ونثرهم، والحق أنه هو الذى خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب من قديم.

٢ — أحيا القرآن الكريم فنونا أدبية جديدة، كالقصص وأدب الزهد وأدب التاريخ، وأبطل سجع الكهان والهجاء الكاذب والفخر بغير العمل الصالح والخلق الكريم، إلى غير ذلك من شتى الفنون الأدبية المرذولة.

٣ — رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين سائر فنون الأدب.

٤ — وبسببه وضعت علوم النقد والبلاغة لمعرفة وجه إعجاز الذكر الحكيم، وكيف تحدى به العرب والناس كافة، فملكهم الإعياء والعجز والقصور.

ولا غرو فالقرآن الكريم أول كتاب كتب باللغة العربية وهو مصدر آداب العرب جميعها.

إعجاز القرآن

فى حكم الذوق الأدبى

ونحن لن نتناول الإعجاز من شتى جوانبه ونواحيه ، وإنمـــا نوجزلك القول إيجازا ، ونتركك لذوقك ونفسـك ، حتى تعرف أسرار الأعجاز ، وتقف على خصائصه .

ولعلك قد قرأت تحليل عبدالقاهر وعلماء البلاغة للآية الكريمة : «رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » ، أو شرحهم للآية الحكيمة : « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

ولعلك على ذكر من هـذه الوجوه البلاغية التى يذكرونها فى الموازنة بين قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » وقول أكثم بن صيفى : القتل أنفى للقتل ، ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشرى فى بلاغة كثير من الآيات القرآنية الحكيمة أو ما كتبه فى قوله تعـــالى : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » ، إلى قوله تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون » ، أو مادونه علماء البلاغة فى بلاغة الآية الكريمة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

فكل ذلك لا يضيرك على أى حال فى فهم أسرار بلاغة القرآن وإعجازه وهو من جهة أخرى وسيلة لتربية ذوقك وملكتك فى النقد والبيان .

ولكننا نعود بك إلى فطرتك الأدبية وحدها ، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم

فى قضية الإعجاز ، وأنت تعلم أن الأمة العربية امة تحب البلاغة وتعشقها وتجيدها وبهزها البيان الجيد والفصاحة الرائعة ، وفيها مقاول البلاغة ومصاقع الخطباء وأعلام الشعراء ، لاترى لأحد عليها فخرا ، ولاتحسب روعة البيان وسحر الكلام إلا لها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثرما كانت شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت لغة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيدالله وتصديق رسالته ، وهوفى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوها مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولاطمع فيه أحد يتكلفه ، ولو تكلفه اظهر ذلك ، ولوظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك على عجزالقوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراءه وأصحابه وخطباء أمته ، والعرب لهم القصيدالعجيب والرجزالفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ؟

* * *

وبعد فأى أثر أدبى أعجبك : «كقفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » لامرىء القيس ، وكمرثية ابن الرومى لولده :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ... لجودا فقد أودى نظيركما عندى

وكوصف البحترى لإيوان كسرى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى ... وترفعت عن جدا كل جبس (١)

وكمرثية المعرى للفقيه الحنفى :

غير مجـــد فى ملتى واعتقادى ... نوح باك ولا ترنم شاد

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللئيم

وكقصيدة ابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وكقصيدة المتنبي فى سيف الدولة :

أتوك يجرون الحديد كأنمـا ... سروا بجيـاد مالهن قوائم

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

أو قصيدته فى كافور :

عيـد بأية حال عدت ياعيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

أو قصيدة أبى تمام فى المعتصم وفتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

أليس سر هذا الاعجاب هو خصائص هذا الأثر البيانية والأدبية ، وأليس مرجعه إلى صدق الشعور وحرارة العاطفة وروعة التصوير وجمال النظم وإحكام البيان ؟

فإذا ماوقفت أمام نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، أو كليلة ودمنة لابن المقفع . أو أمام البؤساء ترجمة حافظ بك ابراهيم ، أو حيال «ماجدولين» للمنفلوطى ، أو «مجنون ليلى» لشوقى ، أو «الأيام» لطه حسين ، أو «على هامش السيرة» له ، أو «عبقرية عمر» للعقاد . فأعجبك وراعك ، وسحرك ما تجد فى هذه الآثار الأدبية الكاملة من حذق وبراعة ولطف حيلة وبلاغة تصوير ، أفليس مرجع ذلك كله إلى خصائص هذا الأثر الأدبية وشخصية مؤلفه الأديب أو الشاعر أو الخطيب أو الكاتب ، واكتمال فنه الأدبى ، فى أثره المعجب ؟ وألست تجد من ذلك الكثير من الآثار والنصوص ؟ .

فاذا ما ترقى بك ذوقك فى الحكم الأدبى ، فقلت : أنا لا أستجيد من الآثار الأدبية إلا الآثار الخالدة على مر الأيام ، والتى تقرؤها وتعيد قراءتها فتجد نفسك كما بدأت متلهفة معجبة مأخوذة بجلال هذا البيان وعظمته وعبقرية صاحبه ، وتجد هذا الأثر الأدبى أمام ذوقك وطبعك غضا ناضرا باهرا كأنما كتبه صاحبه لساعتك التى أنت فيها ، وتجد ما فيه من حديث عن النفس الإنسانية ، وعن الحياة وعبرها وعظاتها وأحداثها ، وعن البشر وأخلاقهم ومطامحهم وألوان تفكيرهم فى الحياة ، وعن الأهداف المثلى للانسانية كافة والمبادىء الشريفة التى يجب أن تكون دستور

الأمم والجماعات والأفراد . تجد مافيه من ذلك كله جديدا كأنه كتب لهذا العصر، ووصف الحياة التى يحياها الناس وتحياها أنت معهم ، فقل لى بربك هل تجد أثرا ترفعه فى نفسك الى هذه المنزلة ، وتراه مستوفيا لهذه الخصائص ، وتطمئن نفسك حين تقول هذا هو ضالتى المنشودة وطلبتى المأمولة وبغيتى المرتجاه ، وهل تجد أثرا سلم له ذلك كله وسلم من القصور والعيب والمؤاخذة وسقطات الطبع والأسلوب والنظم والفكرة ، وهل تجد له ذلك كله مع طوله وإحكامه وروعته وجدته ونبل دعوته وأهدافه وجلال غايته ورسالته ، وبعد مرماه وعمق منزعه، وأنه يتناول الإنسانية كافة والعصور قاطبة ، ويصلح لكل مكان وزمان ، ولا يبلى مهما توالت الأيام والعصور .

إى وربى إن هذا لهو الغاية البعيدة والأمل المحال ، والسر الدفين فى ضمير الأيام ، والكنز المخبوء فى جوف صحراء عرضها الأرض والسماء .

ولن تجده مهما حاولت أن تجده إلا فى كتاب واحد وأثر أدبى خالد ، وفى هذا البيان ذى المجد الطريف والتالد ، إى وربى إنك لن تجده إلا فى القرآن الكريم والذكر الحكيم والكتاب المعجز والأثر الخالد ، وفى هذا البيان الكامل والبلاغة الساحرة والفصاحة النادرة والآيات البينات الباهرة

إى وربى ، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه؟ أوهل ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تشاكلا وروعة من نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب فى نظمها ونثرها ؟ أو هل تجد هذه الروعة التى تجدها له فى قلوب السامعين وأسماعهم سواء المصدق منهم والجاحد . وتلك الجدة التى تراها له على مر الأيام وتوالى العصور ؟.

وإذا لم تصعد إلى هذه المرتبة البعيدة إلا بكتاب واحد هو القرآن الكريم . ثم حاولت الموازنة بينه كله أو بعضه أو القليل الأقل منه وبين ما سواه من الآثار الأدبية فلم تجد مجالا للموازنة ولا موضعا للمشابهة لبعد ما بين الأثرين كبعد ما بين السماء والأرض . فهل ذلك إلا لأنه كتاب معجز وأنه آية الآيات والناطق بصدق إعجازه وعظمة بلاغته .

وقد يقول معاند أو مكابر : أين أنت وآداب اللغات ؟ وأين أنت ومافيها من آثار أدبية خالدة ؟ فلشكسبير وجوته وهو جو ولغيرهم من أفذاذ الغرب الكثير من الآثار الخالدات . بل أين أنت من الكتب السماوية المقدسة ؟ وأين أنت من

«مزمار داود» وحده؟ أفلا يشبه أثر من هذه الآثار كلها القرآن الكريم فى مكانته وبلاغته وإعجازه. وأنا أقول لك أيها القارىء الكريم: لعلك قد قرأت بعض الآثار الأدبية لهؤلاء الأعلام الخالدين فى الأدب. ألست تجد شكسبير مثلا فى أية قصة من قصصه وفى جميع آثاره مترجما عن عواطف النفس الأنسانية معبرا عن آمالها وآلامها مجيدا الحديث عنها؟ ولكن هل تجد له هـذا السمو والرفعة ونبل الدعوة وجلال الغاية، وعظمة الهدف والرسالة، ودقة التحليل عن العواطف والمشاعر والنفوس الإنسانية كافة؟ وهل تجد له هذا التـوجيه الجديد للبشرية جميعا، وهـذا الدعم القوى لمبادىء العدالة والحق والحرية والإخاء والمساواة فى الحياة. كلا وربك، ولن تجد لأعظم من شكسبير شيئا من ذلك قليـلا أو كثيرا.. فضلا عن خصائص الفن الأدبى الرائع الكامل التى لن تجد ما يشبهها فى غير القرآن الكريم.

وهاك أروع ما فى الكتب السماوية المقدسة بيانا، وهو مزامير داود. خذ أى قطعة منها وليكن «المزمور الأول» وهو بنصه كما فى الكتاب المقدس:

«طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار، وفى طريق الخطاة لم يقف، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس، ولكن فى ناموس الرب مشورته، وفى ناموسه يلهج نهارا وليلا، فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه، التى تعطى ثمرها فى أوانه، وورقها لا يذبل، وكل ما يصنعه ينجح.

ليس كذلك الأشرار، لكنهم كالعصافة التى تذريها الريح، لذلك لا تقوم الأشرار فى الدين، ولا الخطاة فى جماعة الأبرار، لأن الرب يعلم طريق الأبرار، أما طريق الاشرار فتهلك».

ونحن مع تقديرنا لهـذا النص الدينى، ومع علمنا بانه مترجم، نعود بك إلى ناحية أخرى فى الموازنة، وهى أنه شتان ما بين هذه الروح والقرآن الكريم، ومن المحال الموازنة بين ذلك وبين مثل قوله تعالى: «قل ان صـلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»، أو مثل قوله تعالى: «ولا تمش فى الارض مرحا إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا»، أو مثل قوله تعالى: «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون» ... إلى غير ذلك من روائع بلاغات القرآن الكريم.

وبعد فإن القرآن كله معجز . وهو نمط فريد رائع ومستوى رفيع شريف من البلاغة والفصاحة والبيان والروعة والسحر ، والأخذ بمجامع القلوب ومشاعر النفوس ، فكله منهج واحد فى النظم ، ودرجة واحدة فى الفصاحة ، «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[1].

وأخيرا نقول لك: إنك أيها الناقد الحصيف حين تحلل أثرا أدبيا ما ، وتكشف عن كل ما يتصل بهذا الأثر من عوامل البيئة والعصر ومن شخصية صاحبه ، وتوازن بينه وبين ما يشبهه من الآثار ، وتبين خصائص فنه الادبى وما يوجه إليه من أهداف ، وما يدعو إليه من آراء وأفكار ، ثم تضعه بعد ذلك فى منزلته الصحيحة من البيان والأدب والتفكير الانسانى ... ولبحث قضية الاعجاز يكون عليك :

١ ــ أن تبحث عن البيئة الادبية التى نزل فيها القرآن الكريم ، وأن تدحض أنه كلام بشر وأن تثبت ذلك بالحجج الدامغة .

٢ ــ ثم عليك أن تحلل خصائصه الأدبية والفنية تحليلا كاملا ، وتوازن بينه وبين شتى الآثار الأدبية الخالدة

وبعد هذه الدراسة تتفهم أسرار إعجازه .

---

(١) وذهب بعض علماء البلاغة الى أن بلاغة القران تتفاوت مع الاعجاز (راجع تفصيل ذلك فى كتب البلاغة وفى الإتقان للسيوطى ص ٢١٠ ج٢)

فواتح سور القرآن

رأى جديد فيها

الآراء فى معانى ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة ، والاختلافات حولها متعددة ، أهى أسماء الله تعالى ، أم هى أسماء للسور نفسها ، أم هى حروف لا أسماء ، وما معناها حينئذ ؟، أم أن الله تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك ، وعقل الإنسان يعجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها ، أم هى رموز لمعان دينية أو صوفية .. الخ

إختلاف كثير لا حصر له ، ولقد رجح من قبل الإمام جار الله الزمخشرى أن هذه الفواتح عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه ليقول للعرب : «إن هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم ، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة لكم ، نستفتح بها الحديث معكم ، فإن كنتم فى ريب من إلهية هذا الكتاب وقدسيته فدونكم مجال التحدى والاعجاز ، فأتوا بمثله إن استطعتم» ، وسبقه إلى ذلك الباقلانى .

ولقد عرض لى رأى جديد فى هذا الموضوع ، وخلاصته هى : افتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات : ألم - ألمر - ألمص - كهيعص - طسم - طس - يس - حمعسق - حم - ص - ق - ن - طه - ألر : وهى كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء ، وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف ، فمثل ، «ألم» تقرأ هكذا «ألف لام ميم» ، والحروف التى كررت فى هذه الفواتح هى أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين ، ومجموع عدد الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفا .

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة ؟ يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التى هذه بعض حروفها ، والإشادة بالقرآن الكريم - كتاب العربية الخالد - الذى تلك بعض آياته .

وكان الله عز وجل يقول للناس : هذه هى اللغة العربية لغة البيان والفصاحة ، وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز ، وكتاب العربية المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والصلة بين العربية والقرن الكريم صلة معروفة آلايجهلها إنسان ، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية ، وجاء فى أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة ، نزل على محمد النبى العربى العظيم ، فكان معجزته الباقية الخالدة ، وعلى الأمة العربية التى اختارها الله لتكون جنود الله والحق ومحمد فى نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة فى العالم كافة ، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد فى وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها فى جميع الأرجاء ، وفى تهذيب أساليبها وألفاظها، ورقى معانيها وخيالاتها وأفكارها ، وفى السمو بأغراض الكلام فيها ، إلى ماسوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة . فكأن الله عز وجل يشير بذلك إلى أن هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجداً للعربية وآدابها ، وتكريما للعرب وسموا بمنزلتهم فى قيادة الحياة الإنسانية ، فالقائد الأعظم الذى اختير لنشر هداية السماء فى الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربى ، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذى بين الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن وهو كتاب عربى مبين . وكأنه يوحى إلى هذه الأمة العربية: أن آمنوا بمحمد ودعوته وبكتابى ورسالته ، فهما فخر لكم على مر الايام ، ومجد سيطوق أعناقكم طول الأجيال والأحقاب .

وخلاصة رأيى هذا أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية ، وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهى آخر الرسالات نزل بها القرآن العربى المبين ، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين ، وإلى أنها ستكون مجداً للعرب والعربية طول العصور .

آراء في الإعجاز

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالتأليف فى إعجاز القرآن الكريم ، ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، ولعل الذى دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، وبيانه الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه لأبى عبدالله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى عام ٣٠٦ هـ ، وقد شرحه عبدالقاهر الجرجانى شرحا كبيرا سماه المعتضد ، وشرحا آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ

٥ — كتاب إعجاز القرآن للرمانى ٣٨٣ هـ ، وكذلك للامام الخطابى م ٣٨٨هـ ، وكذلك للامام القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى م ٤٠٣ هـ .

٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ هـ .

٧ — كما ألف فى الإعجاز فخر الدين الرازى م ٦٠٦هـ ، وابن أبى الأصبع م ٦٥٤ هـ ، والزملكانى م ٧٢٧هـ . والرافعى المتوفى عام ١٩٣٧

— ٢ —

ولقد كان الجعد بن درهم فى عصر بنى أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة (١) ، وجاء بعده أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلى المشهور ، فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلة .

---

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأى بالبحث والنقد

ولكن الجاحظ يثبت الاعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة ، وخصائصه البيانية الرائعة ، ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ، فالقرآن فى الذروة من البلاغة ، وفى القمة من الإعجاز ، وقد تحدوا به فلم يقدروا ، وسجل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذى نقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الاعجاز ، الذى دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه إلى خصائص النظم العربى ودقائقه ، وما «تجدد(١) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل والعجيب من الوصف ، حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يحر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمكان ، وكما يقول عبد القاهر أيضاً : « أعجزتهم(٢) مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادى آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية . فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو مكانها ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور » .

أما القاضى الباقلانى فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن فى ثلاثة : مافى القرآن من الإخبار عن الغيب مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . ومافيه من أخبار الأمم القديمة . مع أمية الرسول الكريم وعجيب تأليفه . وتناهيه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه .. وقد شرح الباقلانى وجوه الاعجاز فى نظم القرآن الكريم ، وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، فى كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذى قال فيه ابن العربى لم يصنف كتاب مثله

وتحدث القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه

---

(١) ص ٦ المدخل إلى دلائل الاعجاز من الطبعة الثانية .

(٢) ص ٢٢ دلائل الاعجاز .

إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتآم كله ، وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة (١) ».

ومن العلماء من يذكر من وجوه الاعجاز ، جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحط بها أحد من علماء الأمم ، وماحواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشاكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن ائتلاف أنواعها والتآم أقسامها ، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره .. ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعانى الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ماتضمنه القرآن من المزايا الظاهرة ، والبدائع الرائقة فى الفواتح والمقاصد والخواتيم : فى كل سورة ، وفى مبادىء الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطى فى كتابه « الإتقان » لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضا من آراء العلماء فيه (٢) . ورجع الإمام الرازى الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . ورجعه الإمام الزملكانى إلى تأليفه الخاص به . وقال ابن حازم فى « منهاج البلغاء » : « وجه الاعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وقال الإمام الخطابى : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الاعجاز فى القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ، ثم قال : حتى لاترى شيئا من الألفاظ أفصح ولاأجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولاترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما معانيه فكل ذى لب يشهد له بالتقدم فى أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته .

إلى ماسوى ذلك من الآراء فى إعجاز القرآن الكريم ، والتى تشعبت كلها ثم تلاقت فى موجة ، فى بحر لجى زاخر ، هو دون القرآن الكريم فى روعته وجلاله ،

---

(١) ص ٢١٧ الشفاء طبعة ١٣١٢ .

(٢) ص ١١٨ ج ٢ الاتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، ومابعدها .

ودون إعجازه العظيم فى سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء فى بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ، وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بطائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز فى مايشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطق والأسلوب العلمى . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أوناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أى حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم فى فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه . ونحن نعود بالقارىء إلى فطرته الأدبية وحدها . فنطالبها بالفهم والنقد والحكم فى قضية الاعجاز .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف فى شرائع الانسانية ، وأروع كتاب أثر فى تاريخ البلاغة الأدبية . ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، صباح مساء ، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم فى فن البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الأجيال ، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون فى كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته فى البلاغة والفصاحة والبيان ، ولاتزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سوره . ولا تزال الموازنة بينه وبين ماسواه ، من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة ، لبعد مابينه وبين سواه من الآثار ، كبعد مابين السماء والأرض ، فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة ، ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

وبعد فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم يتجلى فيمايلى :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التى لايحيط بها وصف ، ولايستطيع أن يكشف

خصائصها باحث ، ويكفيك أن علــوم البلاغة والنقد والاعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ، ثم هى للآن ، وبعد مضى أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لاتزال فى أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكناياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإيجازه ومجازه ، فهى تشمل كل خصائص الفن الأدبى والبيانى فى القرآن الكريم .

٢ ـــ روعة القرآن وجدته ، وأخــــذه بالأفئدة والأسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ ـــ عظمة تصويره للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية فى سلمها وحربها ، ولهوها وجدها وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا فى الحياة المهذبة الكريمة التى يعمل لها الإنسان ، وتسير اشاطئها الأمين الانسانية .

٤ ـــ سمو الروح فى القرآن الكريم ، فهو ليس كتاب قصص أو تسلية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع ، . وإنما هو خلاصة لكل مافى الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامـــل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وماأجدرنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ ـــ جلال أثره الأدبى فى لغة العرب وأدبهم ، وفى حياتهم ، وفى حياة المسلمين والعالم .

٦ ـــ خلوده على مر الأيام والأمكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته ، مع أنه تحدى ولايزال يتحدى الناس كافة ، ومع مايشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ ـــ بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ ـــ شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجـــلال دعوته ، وصدق حجته وعمق منزعه وعلو تصويره .

٩ ــ والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده، ورفعة مراميه ومناحيه، وعبقرية غاياته ورسالته، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة، والأمن والسلام، والخير المطلق، والإخاء والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس، وصدق الله العظيم حين يقول: «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده، ليكون للعالمين نذيرا».

بلاغة القرآن

إن خصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبليغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الايجاز والأطناب المفيد ، كل ذلك كثير جدا ، إلى حد يصعب بيانه إلا فى مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال فى كل غرض : فى الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعد والوعيد ، وفى الدين والتشريع والتوجيه ، وهو فى كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه فحسبك ماتشتمل عيه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهى من غير معين العرب الذى ينهلون منه ، لاطمئنان النفوس إليها ، وارتياح القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والأحكام الصائبة ، وبحق إنه معجزة البيان ، وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلاسة والعذوبة ، ومع البعد عن الوحشى والغريب النافر والسوقى المبتذل والبعيد المعقد ، فوق ماتتحلى به من سحر وجمال ، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة ، وخصائص البيان والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهى حديث الدنيا ، والقضية التى سلم بها أساطين البيان ، وفحول البلاغة ، أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الخزى الأليم ؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقومه : والله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن والله مايشبه الذى نقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولايعلى عليه . ثم أرأيت هذا الأعرابى وقد سمع قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟ .

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتجيدها ، ويهزها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لاتحسب سحر البيان إلا

لها ، وبلاغة الكلام إلا وقفاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثرما كانت شاعراً وخطيباً ، وقد دعاهم فعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا فى وصف بيانه وإعجازه ، وخروا لحكمته ساجدين .

أفليس ذلك كله مع ماقدمناه لك أدلة الاعجاز وشواهده وحجته وبرهانه ؟ ألست إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبى خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه الانسانيه هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدها وسعادتها ، لاتجد أمامك إلا القرآن الكريم والذكر الحكيم ؟ .

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه فى غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس فى وجودها إلى برهان؟إن سر بلاغته وإعجازه يستعصى على الفهم ، ويعلو على العقول، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التى اختص بها رسوله الأعظم محمد صلوات الله عليه . وإن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وجلالة الروح وإشراق البيان وجمال الديباجة وقوة المنطق وعبقرية التصوير والتعبير ، أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة وحرارة الايمان وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم فى أسلوب لاهو شعر ولاهو سجع، ولا هو مزاوجة ولاهو نثر مرسل ولا خطابة ، إنما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية حصيفة ، وجلال وروعة ، جمع بلاغة جميع أساليب البيان وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الأعجاز . تحدى الله به العرب فعجزوا، فتحداهم بسورة منه فبهروا ، فتحداهم بأقصر سورة ،ثم بعدة آيات فخرسوا ، ولماسمعه فصحاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع « طه » ، ومافزع عتبة بن ربيعه وقوله : « والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع « فصلت » ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التى يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، وماعجزهم بعد التحدى ، ماكل ذلك إلا دليل الأعجاز وعظمة البيان وجلال الأسلوب .. يقول أبو بكر الباقلانى فى فصاحة الذكر الحكيم : إن نظم القرآن على على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ،والتناسب

فى البلاغة والتشابه فى البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ،وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف . وقد جاء القرآن على كثرته وطوله ، متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال : «الله نزل أحسن الحديث، كتابا متشابها، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وبعد فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب بجلوة عليك فى منظر بهيج ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا مستكره فى اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ؛ طموح العباب ، جموع على الطارق المنتاب ، كالروح فى البدن ، والنور المسيطر فى الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد » .

محمد يتحدى بالقرآن

— ١ —

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ، تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوه بهما ، وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديبا ، فاذا نبغ فى القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشىء العظيم ، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء ، وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه ، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى اليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسيرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ، ويرفعون الخامل الوضيع ، فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما ، وكان النابغة سفيراً للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة ، وحكما بين الشعراء فى سوق عكاظ ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ويسافر إلى الحبشة ، وكان قس بن ساعدة الايادى الخطيب يفد على قيصر والغسانيين .. إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء ؛ وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب . ويضع الهدنة . فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

— ٢ —

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء . هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ، والطهر

والخير والحق ، وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ، وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل وآداب وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ؛ والنور الخالد ، والوحى الصادق ، والدستور العظيم ، فكان فى أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ومحاورات ، ومفاخرات ومنافرات ووصايا ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخروا ساجدين لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان ؛ بهر الشعراء منهم ، فخرست ألسنتهم ، وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب فى الصحراء ، وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ماكناتهم ، ففقدوا مواهب البلاغة والقول ، وذهبت كل بلاغة فى تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين . فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الاسلام ، فقالوا فى القرآن : هو شعر ، هو سحر ، وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحداهم الله عزوجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ؛ بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (١) » ؛ وقال تعالى : « أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وان لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » (٢) وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا

---

(١) للبقرة : آية ٢٣ و ٢٤ ـ وهى مدنية (٢) هود : آية ١٣ و ١٤ ـ وهى مكية

صادقين » (١) ، وقال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢) ، فسجل عجز البشر كافة وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن - ولو تظاهروا - الوقوف أمام هذا التحدى، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم . لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الإنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته ، وعظمت حكمته .. ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى » . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من احد عنه حاجزين وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين » .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة . فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور . واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٣ —

ثم امتدت الأجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب ، فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ، ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر ، وفى تاريخ العربية فحول وفحول : كابن المقفع والجاحظ

(١) الطور : « ٣٣ و ٣٤ » = وهى مكية (٢) الاسراء : « ٨٨ » = وهى مكية

وابن العميد والبديع، وكجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى والمعرى، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة؟

وهل منهم إلا من أذعن وبهر، وخشع وسحر، وخضع وأخذ، وأيقن أنه وحى السماء.. وفيها كتب ومؤلفات فى أعلى ذروة البلاغة: كنهج البلاغة ورسائل الجاحظ، وكليلة ودمنة، ومقامات البديع الخ،

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات؟ وما مكانتها وما قيمتها؟ وما أثرها وماخطرها فى البلاغة الأدبية، أمام كتاب الله المعجز، وكلامه الحكيم.. بل أمامك الحديث النبوى الشريف، وهو فى الدرجة العليا من الفصاحة، ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان؟

واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر — بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل — فى ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين (١)» وأراد مسيلمة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاما، فخزى وعجز، وبان عليه العى والحصر، وباء بالخسران وسوء المنقلب، وأين يقع قوله «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت «أسيد» من رطب ولا يابس، وقوله: والمبديات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقما، إهالة وسمناً» وما سبقكم أهل المدر، وغير ذلك من كلامه، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد (٢)؟

— ٤ —

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية.

ولكن هل هناك من هذه الآثار، ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتحديد واضح للمثل الإنسانية

---

(١) الإعجاز للباقلانى ص ١٢٨. (٢) آية ٤٢ سورة فصلت.

العليا ، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان ؟ وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه ، ويعدونه دستورهم فى الحياة ، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة ، وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ وهل للقرآن — بربك — شبيه من الكتب ، وحد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها ، وأحيا فنونا جديدة من الأدب ، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية فى لغة العرب ، فوق آثاره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفى حياة العالم والإنسانية كافة ؟

— ٥ —

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ، يؤمنون إيمانا صادقا ، بأن لاسبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شىء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ، وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين، الذى عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، وستمضى وتتوالى الأجيال ، وهو يضىء كما يضىء الفجر ويزخر كما يزخر البحر ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد »

العرب في عهد النبوة

وآراؤهم في إعجاز القرآن الكريم

— ١ —

في هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : في القرآن الكريم وإعجازه ، ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارىء ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز .

روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، لئلا تأتى محمداً . لتعرض لماقاله : وقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ أنك كاره ، له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا باشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله . وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته . قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر ، ثم قال : هذا سحر يؤثر « يأثره عن غيره » (١) .

وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي : « إن الله يامر بالعدل والإحسان .. الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإن أسفله

---

(١) ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ، ١١٧ ج ٢ الآتقان للسيوطى ، ٣٥٧ إعجاز القرآن للرافعى .

لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر(١) .

وجاء فى رواية أخرى(٢) أن الوليد قال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد حزيناً ، وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ ، وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر ، فقال : ماهو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحا ، وتفرقوا معجبين بقوله .

ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد . فأجمعوا فيه - يعنى النبى - رأيا لا يكذب بعضكم بعضا ، فقالوا : نقول كاهن . قال: والله ماهو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه . قالوا : مجنون . قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ماهو بساحر ولا نفثه ولا عقده ، قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وإن أقرب القول أنه ساحر ، وأنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته : فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس (٣) . فأنزل الله تعالى فيه : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » - الآيات (٤)

وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة فى القرآن ما قال ، حين جاء إلى

---

(١) ص ٣٢٠ ج ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ .

(٢) ص ١٥٨ ج ٤ الكشاف للزمخشرى .

(٣) ٢٣٣ ج ١ الشفاء ، ٣٥٧ و ٣٥٨ إعجاز القرآن للرافعى

(٤) آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

الرسول ، وقال له : أتل على يا محمد ما أنزل إليك ، فاسرع الرسول إلى ذلك طمعا فى الانقياد ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته » إلى آخر السورة ، فقال : ان أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة (١) .

ويروى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى على ، فأتاه فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت فلما بلغ قوله . «صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا وقد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؟ فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء ، والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل » صاعقة عاد وثمود » ، أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب (٢)

وقال عتبه حين سمع القرآن : ياقوم قد علمتم أنى لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولا ، والله ماسمعت مثله قط ، ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة (٣) . . . ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .

ويروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة عن كلام مسيلمة وما كان يدعيه قرآنا ، فقصوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أى عن ربوبية - فأين كان يذهب بكم (٤)

ويقول السيوطى فى الإتقان : وكانوا مرة بجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمى ، وليس بحضرته من يملى أو يكتب فى نحو ذلك من الأمور التى أوجبها العناد والجهل والعجز (٥)

---

(١) ٢١٨ جـ الطراز.

(٢) ٣٨٧ جـ ٣ الكشاف ، ٢٣١ و ٢٣٢ جـ ١ الشفاء (٣) ٢٢٣ جـ ١ الشفاء

(٤) الباقلانى وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرافعى وكلام مسيلمة تجده فى إعجاز القرآن للباقلانى ، ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلمة (١٧٣ جـ ٣)

(٥) ١٢١ جـ ٢ الإتقان طبعة ١٩٣٥

ويقول حسان بن ثابت فى شعره فيما قال عن القرآن الكريم :

الله أكرمنا بنصر نبيه وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه وأعزنا بالضرب والإقدام
ينتابنا جبريل فى أبياتنا بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا النور فيها محكما قسما لعمرك ليس كالأقسام
فنكون أول مستحل حلاله ومحرم لله كل حرام (١)

ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن إلا معلقة امرىء القيس ، فان أخته أبت ذلك عنادا ، فلما نزلت آية «وقيل يا أرض ابلعى ماءك» قامت إلى الكعبة فأنزلت معلقة أخيها(٢) ، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء لأنها غير صحيحة .

وفى حديث إسلام أبى ذر وصف أخاه أنيسا فقال : والله ماسمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية أنا أحدهم ، وإنه انطلق إلى مكة وجاءنى بخبر النبى ، قلت : فما يقول الناس ، قال : يقولون . شاعر ، ساحر ، كاهن ، لقد سمعت قوله الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ، وإنه لصادق . وإنهم لكاذبون (٣) .

وأخرج ابن هشام عن ابن شهاب الزهرى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل ابن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ... ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجرُ تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : ياأبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا مايراد بها ، قال الأخنس وأنا والذى

---

(١) ٣١٨ الديوان (١) هامش ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، الرافعى .
(٣) ٢١٤ ج ١ الشفاء .

حلفت ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، قال : يا أبا الحكم ماراأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذاسمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ؛ حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

ويقول السيوطى فى الإتقان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبى يقرأ فى المغرب بالطور . قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » إلى قوله « المصيطرون » (١) كاد قلبى أن يطير ، قال : وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى (٢) .

وروى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته (٣) . ومما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابياً سمع آخر يقرأ : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقا لايقدر على مثل هذا الكلام .

روى أن عمر كان نائماً فى المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية فأسلم وقال . سمعت رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها فاذاهى قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه » الآية (٤) ؛

وروى عن نصرانى أنه مر بقارىء ، فوقف يبكى ، فقيل له مم بكيت قال : للشجا والنظم (٥) . وعن كعب : وهو من اهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فانه فهم العقول ونور الحكمة (٦) :

وروى عن الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أو بعد هذا فصاحة ، بعد قول الله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه» الآية ، فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين (٧) .

ولقد كان مسيلمة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفا

---

(١) آية ٣٥ – ٣٧ سورة الطور . (٢) ١٢٣ جـ ٢ لإتقان وراجعه فى ٢٣١ جـ ١ الشفاء
(٣) ٢١٠ جـ ١ الشفاء (٤) ٢٢١ جـ ١ الشفاء (٥) ٢٣١ جـ ١ المرجع :
(٦) ٢٣٥ جـ ١ المرجع . (٧) ٢٢١ جـ ١ المرجع .

منها الباقلانى فى كتابه ، : «إعجاز القرآن» . وهى معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن فى سموه وجلال إعجازه بأى حال ، وقد أصيب مسيلمة بالخزى والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس :

ويقول صاحب الشفاء : روى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فمر بصبي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، فرجع فمحى ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ، وكان من أفصح أهل وقته . وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الاندلس فى زمنه ، فحكى أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى على التوبة والإنابة (١)

ويتهمون المتنبى والمعرى وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وماروى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه فى كفة واحدة مع القرآن الكريم ، ويقول الدكتور طه حسين : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلداً ، ولم يجد له تلميذا . هو واحد فى بابه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه (٢) .

ويقولون إن أمية قد وقعت منه فى شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاش لله أن يوزن شعر أمية الدينى الذى نظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم ، ولقد نظم أمية قصصا دينية كثيرة ، كقصة مريم ، وقصة ابراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز وذلك السحر القرآنى العظيم ؟ والكونيات فى شعر أمية والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟

وفى شعر أمية يبدو تأثره الواضح أحيانا ببلاغة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده فى هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه ... يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم ... إنه كان وعده مأتيا

---

(١) ص ٢٣٢ ج ١ الشفاء للقاضى عياض طبعة ١٣١٢ هـ
(٢) ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين

يوم نأتيه مثل ما قال فرداً لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد النا ر كتابا حتمته مقضيا

وقد كان الشعراء فى أول عهد النبوة طوائف ثلاثا :

فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب ؛ وهؤلاء جميعا أسلموا بعد حين ، وبعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ؛ تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش فى نجد بعيدا عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحى ، ومن هؤلاء : الحطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهلياً حى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأنتم تعلمون قوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام ؛ انبهارا بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبى الصلت فى الجاهلية واستخذاءه فى الإسلام؛ عجزا أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب .

ويروون أن لبيدا لم يقل شعرا فى الإسلام إلا بيتا واحدا :

ماعاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

وقال له عمر ؛ أنشدنى من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ؛ وقال : ما كنت لأقول شعرا بعد إذ علمنى الله سورة البقرة ، فزاد عمر فى عطائه (١)

ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر فى الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا ؟ فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد : قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر

---

(١) ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

فى عطائه (١) .

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلغاء فى عصر الرسول وبعده ، يقول ابن خلدون فى مقدمته فى بيان السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلا طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، ومنثورهم ومنظومهم : السبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث . والذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، من أولئك ، وأرصف مبنى . وأعدل تثقيفا . بما أستفادوه من الكلام العالى الطبقة (٢)

وقد ظل تأثر الأدب العربي واللغة بالقرآن الكريم واضحا جلياً فى كل عصر من عهد النبوة حتى اليوم . فهل بعد ذلك كله تحتاج إلى دليل على الإعجاز : وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا : وما أصدق مايقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وزاجرا ، وسنة خالية : ومثلا مضروبا . فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم : ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر الحكيم والنور المبين ، والصراط المستقيم . وحبل الله المتين » . وفى الحديث : قال الله تعالى لمحمد : إنى منزل عليك توراة حديثة : تفتح بها أعينا عميا وآذاناً صماً وقلوباً غلفا . فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب .

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام . (٢) ص ٥٨٠ مقدمة ابن خلدون

مناهج المعرفة

فى القرآن الكريم

يقول الله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد (١) » ، ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟ (٢) » . ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد (٣) » .

فى هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمناهج المعرفة ، ومذاهب التفكير والفهم عند البشر . وقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآيات ، وفى سواها مما لم نذكره ، أن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بينة ، حتى لا يضلوا فى بيداء الحياة ، أو يتشعب بهم الظن فى مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وآراءهم على أساس سليم مستقيم .

والقرآن الكريم يذكر فى الآية الأولى صنيع بعض المشركين المتمردين على عقيدة التوحيد ، الدائبين على الحجاج والجدل فى الله ، دون أن يرتكز جدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق ، ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء ، ويسيرون فى صحراء ظلماء ، لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه .. فهم ينازعون فى ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ،

---

(١) أى متمرد متجرد للفساد والإضلال — آية ٣ سورة الحج .

(٢) آية ٢٠ و ٢١ سورة لقمان .   (٣) الآيات ٨ و ٩ و ١٠ سورة الحج .

ملابسين للجهل ، ويتبعون فى أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله . وذلك من أشباه ، أبى جهل ، والأخنس بن شريق والنضر بن الحارث وسواهم ، وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ، ويقول « إن ما يأتيكم به محمد هو ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية » ، ويقول : « الله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا » ، وكان يذهب إلى فارس فيشترى كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشا ، ويقول : « إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة » . والآية عامة فى كل من أمعن فى الجدال دون علم أو برهان ، ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعانى ، وأن من الناس من يدأب على الجدل فى ذات الله وصفاته ، أو فى دينه وشرائعه ، دون علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلى ، ودون هدى وإرشاد مستفاد من هاد ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلى هاد لا خفاء فى هديه ، منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المكرمين ، فهو لا يؤمن بالدين ، وإنما يؤمن بالأوهام والتقاليد والعادات الموروثة والأساطير الكاذبة ، يتخذها منهجا له فى التفكير والبحث ، ويهمل عقله إهمالا ، ويفسد فطرة الله فى نفسه إفسادا شديدا ، وهل هناك ماهو أضر على الإنسانية من ذلك التقليد الأعمى ، والاتباع المرذول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئا كما حارب التقليد وصنيع المقلدين ؟ ولذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد فى أصول العقائد غير جائز ، حتى قال الرازى : « وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفى فى أصول العقائد » ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبيل الشيطان وأن الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاث الأخيرة وهى من سورة الحج ، فهى كذلك تأكيد لهذه المعانى الشريفة وتقرير لها ، وتوضيح لصنيع هؤلاء الناس ، الذين يتخذون الجدل بالباطل وسيلة للضلال والإضلال عن سبيل الله ، لا يرجعون فى جدلهم فى الله إلى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضرورى ، والهدى بالاستدلال والنظر الذى يهدى إلى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحى ، وإن كنا لا نرى مانعا من تفسيرها بما فسرناها به آنفاً ، أو بما فسرها به المفسرون هنا ،

أو بتفسير آخر نذهب إليه ونرجحه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التى تستقر فى النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة ، والهدى المراد به الإلهام النفسى الذى تمده فطرة الله فى النفس الإنسانية التى فطرها الله على التدين والإيمان . والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسول من الرسل يدعو إلى مبادئه ، ويبشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيرا لما تضمنه من أحكام وآداب ، وشرائع وشعائر وعقائد ومثل ..ويؤكد الله عز وجل هنا أن الإعراض والاستكبار عن السماع من الرسل ، هما ديدن هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزيا وهوانا فى الدنيا ، وعذابا أليما فى الاخرة ، بما اجترحوا من سيئات وما اقترفوا من آثام فى حق الله والعقل والانسانية والشعوب والجماعات ، والله عادل فى عقابه لا يظلم أحدا . ولاشك فى أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب ، فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده ، وجادلوا فى الله مجادلة عن جهل وعناد واستكبار ، دون أن يخضعوا فى جدلهم وحجاجهم لأصول العقل ، أو برهان العلم ، أو هداية السماء ، فاذا ماحاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا واستكبروا استكباراً ، وجادلوا بالباطل وقالوا زورا وبهتاناً ، وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل ، ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال .

وهنا نجد القرآن الكريم يبنى صرح الحياة الانسانية المثلى ، ويقيم دعائم المدنية والحضارة ، على أساس رائع عظيم ، من الفطرة والعقل وهداية السماء .

فهذه الآيات ، وإن تضمنت فى عمومها بيان جزاء الصادين عن دين الله ، الذين يضلون ويضلون ويلوون رؤوسهم عناداً واستكباراً ، فى الدنيا والآخرة ، كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة فى العقيدة بالهوى والقياس لأن فى ذلك الضلال والابتداع والتحذير من التقليد الأعمى المرذول ، وتعطيل حكم العقل بالسير على منهج الآباء والأجداد فى كل شىء ، حتى فيما يؤدى إلى الضلال والبهتان والشرك ، ومع أنها تضمنت كذلك نفى الظلم عن الله ببيان أن الإنسان هو الذى يجنى على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل .. فهى كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطرى المركوز فى طباع الناس كافة الذى يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والايمان ، والعلم النظرى المستفاد من الحجة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهى المستفاد

من الوحى والكتب السماوية المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وتبين الآيات أن المعرفة لايمكن اقتباسها من غير هذه المناهج الثلاثة ، وأن جميع طرق المعرفة توصل إلى الإيمان والتوحيد ومعرفة الله .

فليس اتباع الوهم والخيال والأساطير ونزعات الهوى والشيطان ، بما يرشد إلى معرفة ، أوحق .. وليس كذلك التقليد ومحاكاة الناس واتباع مناهج الآباء والأجداد دون تحكيم المنطق والعقل والتفكير بما يوصل إلى نتيجة يطمئن إليها العقل والقلب جميعا .. وليس هناك شيء مايقود إلى حظيرة الحقيقة المقدسة سوى المناهج الثلاثة ، التى تؤدى إلى الخير والهدى والفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

والفطرة الإنسانية فى البشر تدعو دائما إلى الإيمان ، وإلى الاعتقاد بالله وبالرسالات ، وهى شاهد صدق على ضلال الماديين والدهريين والإلحاديين وغيرهم من فرق الضلال والعقل السليم يؤدى دائما إلى الاعتقاد بأن مسخر السموات والارض ومافيهما إنما هو إله عظيم قادر على كل شيء يستحق وحده دون سواه العبادة ، ولاشريك له فى الكون .. وهو يرشد بمعونة الوحى إلى ماغمض فهمه من أمور الغيب والآخرة .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نشرح هذه الحقائق الأزلية الخالدة التى دعا إليها القرآن الكريم ، وأثرها على الحياة والإنسانية والحضارة ، فلنقف عند هذا الحد ، تاركين للعقل المجال ليحكم ويفهم ويبحث ،

البَابُ الرّابِعُ

من أصول الاسلام الخالدة

الإسلام شريعة التقدم والنهضة

— ١ —

جمع الإسلام وكتابه الحكيم شتى أصول التقدم الأدبي والروحي والمادي والاجتماعي ، ودعا إلى مختلف المقومات العالية لمدنية فاضلة كريمة مهذبة ، غايتها سعادة الفرد الجماعة والأمم والإنسانية ، وأحكام الإسلام وآدابه هي نمط رفيع المثل العليا التي سعدت بها البشرية ، واستقامت بها حال الاجتماع ، وفاءت إلى ظلها الظليل الشعوب .

ولقد كان نزول الإسلام على محمد بن عبد الله حدثاً فكرياً ودينياً وإنسانياً خطيراً ، فقد قلب الأوضاع ، وبدل النظم ، وغير مجرى الحياة ، وقضى على ما توورث من جهل وحمق وسفه ووحشية ، وضلال وطغيان وبهتان ، وأحال ذلك كله حضارة وعلماً وأدباً وديموقراطية صحيحة ، واشتراكية عادلة وأمناً وحرية وسلاما ورفاهية في كل مكان .

خفقت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة ، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواميس التقدم والرقي من قبل ، فوحد الشمل وبدد الفرقة وساوى بين هذه وتلك ، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة ، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل والنظام والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين ، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس ، وصارت العربية هي لغة العالم الجديد ، والقرآن دستور الحياة في هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد ، جاء الاسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها ، ويدعو إلى أكرم ما في الحياة من مبادىء ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الانسانية من مثل وغايات وأهداف ، ويشرع شرائع للسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهب من المذاهب ، ولا عقيدة من العقائد .

كفل ديننا الخالد الحريات ، وهدم الفروق الظالمة بين الناس ، وسوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالهما ، ووسع باب العدالة حتى لا تنتهي فيه عند حد ، ولم يستثن من أحكامها إنسانا ولا طائفة ، ولم يقف في طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة .. يقول عمر من وصيته للخليفة من بعده : اجعل الناس عندك سواء . لا تبال على من وجب الحق ، ثم

لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة ، فيما ولاك الله .. والحكم فى الإسلام أساسه مشيئة الشعوب وإرادتها ، ورعاية حقوق الإنسان فى الحياة والحرية والكرامة والعيش ، وإطلاقه للحريات إلى أبعد مدى معروف ، فحرية الفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية ، والحريات العامة ، وحرية الإنسان فى مسكنه وفى اختيار لون الثقافة التى يريدها لنفسه ولأبنائه ، والحرية السياسية ، كل هذه الحريات قد قررها وحماها الإسلام وكتابه الحكيم . وليس للحاكم - فى شريعة محمد بن عبدالله - طاعة مفروضة إلا فى حدود القوانين والدين ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وعلى الشعب أن يقومه إن زاغ ، ولذلك قال عمر : « من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه » وقال : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى »

ولنشر السلام فى الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الكاملة بين الناس جميعا الصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ؛ والفقراء والأغنياء ، وبين جميع الطبقات والجماعات ، وهى مساواة لا تعرف معنى للعنصريات والأجناس والألوان ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده راكب ، وولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال ، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والاكرام : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم » . ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات ، ودعا إلى عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة والتكافل العام بين الأفراد والجماعات . أساسها التحرر الوجدانى والضمير البشرى الحى والتشريع الإسلامى المحكم .

ويقرر الإسلام أن الناس أصلهم واحد ، وأنهم إخوة فى الإنسانية ، وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تنبنى على السلام والمحبة والتعاون فى الأرض ، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والطغيان والفساد ؛ وحرم شن الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان ، ودعا إلى الرحمة والخير والإيثار والإخاء والمحبة بين الناس ، وحطم الشرك والوثنية حتى لا يستعبد أحداً فى الارض ، وألغى الرق البشرى ، وهدم عروش الطغيان والجبروت ، واعترف بحقوق الفرد الأساسية ، ورعى حقه فى العيش وفى التأمين الاجتماعى ، وفى المنزلة الأدبية ، حتى لا يوجد شىء يعكر أسباب السلام بين الناس . .

شرع الإسلام كذلك الديمقراطية الصحيحة التي ترتكز على أصول قوية ، ودعامات ومبادىء مثلى ؛ فهي تؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبأن حكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الشعب والعمل على رفاهيته ، وتؤمن كذلك بروح التسامح والحرية الاجتماعية وحرية الرأي للأفراد والجماعات ، وبالحرية الاقتصادية التي تهـــدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة ، والتي تؤدي التزاماتها كذلك للفقراء وللمجتمع والدولة ، ثم هي تحارب كل لون من ألوان التمييز بين الناس .

وأقام الإسلام كذلك أصوله على اشتراكية مثلى ، دعامتها العدل والتعاطف والتكافل والمحبة بين الناس ، والإيثار والتضحية وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، والألم لشقاء الناس ، وبذل ما في اليد ومساعدة كل محتاج ؛ اشتراكية لا تدع لذي ألم ألما ، ولا لذي حاجة حاجة ، ولا لذي كربة كربة . اشتراكية يرعاها الله ورسوله وشريعته ، ويدعو إليها الضمير الإنساني ، وهي من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية الصادقة ، ومن الناحية الاقتصادية تنزع إلى مقاومة الاستغلال في مختلف ألوانه ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق والتزامات ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة والتمرد وصراع الطبقات ، وتحرص على الأمن والسلام بين الناس . ولا تجعل الملكية وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس ، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بني البشر عامة ، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة وتقرير التأمين الاجتماعي للفقراء والمعوزين ، وفرض الزكاة ضريبة تخصص إيرادها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس ، وتحريم الربا والاستغلال والاحتكار في شتى صوره ، ورفع شأن العامل وفتح أبواب العمل أمامه والحض على العمل وعلى وعلى إيجاده للعاطلين : بما يشرعه الاسلام من نظم اقتصادية سليمة ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة وعقد العمل وسوى ذلك ، ومن ثم حرم ديننا الترف والإسراف وحد من غلواء الرأسمالية . وكره التمييز بالتفاوت المادي بين الناس ، وأوصى بالصدقة والإحسان وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب ، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة والإعارة والهبة وفريضة الميراث . وأوصى بالتكافل الاجتماعي بين المسلمين عامة .

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائم ميراثه الروحى ، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس ، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساسا لحضارة إسلامية مشرقة ، ومدنية روحية مزدهرة ، قامت ونمت وترعرعت فى الأرض ، واجتمعت عليها الأمم والشعوب ، متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمأنينة والنور والعلم ، والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية المخلدة

فاين هذا من صنع الحضارات المادية السائدة فى عالم اليوم ، ومن آثام مبادىء المدنية الغربية المجللة بالخزى والعار والكراهية على أرض الشرق؟ أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التى تبنى عليها دول الغرب سياستها المدمرة المخربة فى مراكش وكينيا وفلسطين وفى كل إقليم وطئه الإستعمار الخبيث الذى يهدم صروح الحرية والسلام فى كل مكان ؟

إن الإنسان الذى يعيش اليوم فى غمار مدنية القرن العشرين لأولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش فى ظلال القلق والخوف والطغيان والدماء .. وإن المدنية التى ترفرف على شعوب العالم الآن لحرى بها ان تنكس الأعلام خزيا وحياء من أن تنسب إلى المدنية الفاضلة ، وإشفاقا من أن توازن بمدنية المسلمين التى شملت العالم كله حقبا من الزمن فشمله الخير والنور والسلام ، وسعدت بها أمم كانت ترسف فى قيود الطغيان ، فاستعادت حريتها ، وعاشت تكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم ، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس .

من مفاخر ديننا الخالد - ١

أكثر المذاهب القديمة والحديثة قامت على الدماء والأشلاء ، وكل النظم التى سادت - وتسود اليوم - العالم قد ذهب ضحيتها ملايين البشر .. أما الإسلام ، وأمره فى قيامه وفى ذيوعه فى العالم كله ، فعلى العكس من ذلك : يقول هانوتو :

« لما بعث الشرق من مرقده عاش فى الإسلام ، وانتصر بالإسلام ، ولا يزال يحيا اليوم وغدا فى الإسلام .

وأضيف إلى ذلك أن الإسلام إنما قام على السلام والحرية : حرية الدين ، وحرية التملك والكسب الحلال ، وحرية الطمأنينة على النفس والمال .

إن الإسلام رسالة إلهية ، لا مبدأ اخترعه بشر ، وهو رسالة الحرية والإخاء والمساواة والعدالة والإصلاح والمدنية ، إلى العالم كافة ، والبشرية بجميع طبقاتها .

ليس الإسلام ثورة طبقة على طبقة ، وصراع جماعة لهدم أخرى .. ولم يكن قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادىء القوة والحق والخير والجمال .

لقد جمع الإسلام إليه الأمة العربية من أدناها الى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، وتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدران الصين فى أقل من قرن واحد . وكان قيامه فى الجزيرة العربية أثراً للدعوة اليه ، واقتناع العرب به ، إذ لم يفرضه محمد على العرب بقوة السلاح ، ولا بتأييد من عصبية أو سلطان أو ثروة . ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعا عن حرية العقيدة التى كان الشرك والوثنية والاستبداد تريد القضاء عليها وعلى نور الله الذى انبثق من الصحراء بآخر رسالات الله ، وكانت مبادىء الإسلام نفسها ، وروح العدالة المطلقة والمساواة والإخاء التى سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوى من دينهم ، هى السبب الأكبر فى انتشار الإسلام بين الأمم ؛ وكانت حرية الأديان محرمة إلا فى بلاد الإسلام . إن سرعة انتشار الاسلام وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ،

ويسر أحكامه، وعدالة شريعته، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب دينا، وترتاد منه ماهو أمس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها (١)».

ولاداعي للإفاضة فى هذه الحقيقة التاريخية فإنها معلومة مشهورة، ولكنى أقصد من ذلك الرد على مفتريات المبشرين ودعاتهم، الذين يضللون عقول الجماهير، ويقولون: إن الإسلام قام بالسيف، وإن الجنود المحاربين هم الذين حملوه إلى جهات الدنيا، وهذا افتراء على الحقائق مابعده من افتراء، فدعوة الإسلام هى التى كانت تدعو إلى نفسها بنفسها، والإسلام معناه السلام، وهو حامى الحريات، ومحرر الشعوب والجماعات، والتاريخ الإسلامى شاهد صدق على أن مبادئه هى السر الأكبر فى انتشاره، وإن كان المسلمون حملوا السيف ليدافعوا به عن أنفسهم، وليحموا العقيدة من عدوان المشركين والوثنيين، ولم تهاجم الجيوش الإسلامية امبراطوريتى الروم والفرس إلا للقضاء على المناورات العسكرية الخفية التى كانت تريد أن تمهد للإطباق على الجزيرة العربية ووأد الدين الجديد فيها.

إن كثيراً من المذاهب الحديثة والقديمة على السواء قامت على الثورة والحرب والكفاح وصراع الطبقات، ولكن الإسلام لم يكن فى حاجة إلى شىء من هذا، والمسلمون كانوا دعاة خير وعدل وإنصاف ورحمة وبر وتعاون، ولا شك فى أنه لاسبيل إلى التوفيق بين مؤمن بحرية الفكر والعقيدة، وكافر بها لا يرحب مثله بمبادىء الخير والتكافل والسلام، بل يحنق عليها ويبغضها.

وإذا أردنا أن نوازن بين الإسلام والمذهب الشيوعى - مثلا - فى قيامهما وشأنهما، هالنا الفرق بين دين شعاره الإخاء والوحدة والأمان، ومذهب يصطنع العداء بين الناس ويعتمد على التفاوت بين الطبقات، ليثير الحقد والبغضاء فى نفوس بنى البشر؛ وليقول لهذا أنت غنى ولذاك أنت فقير، والغنى شر والفقر موت، وليدفع الفقير إلى أن يقاتل بالسيف أخاه الغنى ليستحوذ على ماله وثروته، يدلك على ذلك التاريخ، فقد بدأت الشيوعية فى روسيا لأول مرة عام ١٨٨٣ حين شكل بليخانوف الجماعات الماركسية، ومنها جماعة تحرير العمل التى تعتنق آراء ماركس وانجلز الداعية إلى أن تسير الطبقة العاملة إلى أهدافها بالقوة والثورة، وقد سبق

(١) رسالة التوحيد ص ٢١٧ - محمد عبده - طبع المنار سنة ١٣٦١ هـ بمصر.

ذلك صدور قانون تحرير رقيق الارض عام ١٨٦١ فى عهد القيصر إسكندر الثانى بتأثير كتابات المفكرين ودعوتهم إلى الإصلاح ، من أمثال تولستوى وجوركى وبوشكين .

وفى عام ١٨٩٨ نشأ حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا داعياً إلى تعاليم ماركس ، وفى ١٩٠١ قام الحزب الاشتراكى الثورى . وفى عام ١٩٠٣ أنشأ لينين الحزب الشيوعى البولشفى ، ومن ذلك الحين ظهرت البولشفية مدرسة فكرية وحزبا سياسياً ينادى باستخدام القوة والعنف لخدمة أغراضه .. وخلال الحرب العالمية الأولى - وكانت روسيا تقاسى أهوال الحرب وويلاتها - أخذت الشيوعية تستخدم السخط العام لإثارة حرب الطبقات ، فقامت فى أوائل مارس ١٩١٧ ثورات وحروب أهلية مدمرة بين الطبقات ، وفى منتصف مارس قبض الشيوعيون على القيصر نقولا الثانى ، وفى اليوم الثانى أعلنوا الجمهورية ؛ وأخذوا بعد ذلك فى ذبح الأغنياء ، واستصفاء أراضى كبار ملاك الأرض ، وتسليم المصانع والمناجم إلى العمال ؛ وقامت الديكتاتورية الشيوعية الطاغية فى روسيا ، وأخذوا يسلبون الملاك محاصيلهم ومتاجرهم ومصانعهم باسم الثورة ، حتى المنازل فى المدن ، ونفذوا مشاريعهم الاقتصادية بقوة السلاح والإرهاب ، وعاملوا طبقة الفلاحين الأثرياء «الكولاك» بدون شفقة أورحمة كما يقول المؤرخون الروسيون (١) ، فحكموا عليهم بالموت أو بالتشريد فى سيبيريا وغيرها . وقامت المذابح الهائلة — باسم الاصلاح — فى كل مكان مما انبعث عن فكرة آمن بها الشيوعيون إيمانا عميقاً ، فكرة صراع الطبقات واستخدام القوة المسلحة للقضاء على خصومهم فى الرأى ؛ ويصور هذه الفكرة زعماء الشيوعية الروحيون والسياسيون ، ويقول ماركس وإنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات (٢) ، ويقول ماركس : إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة التى هى وسيلة لالغاء جميع الطبقات (٣) ويحاربها الاسلام حربا شعواء ، لأنها تفسد الأمن والسلام ، وتقضى على الإخاء الإنسانى ، وتجعل بعض الناس أعداء بعض ،

---

(١) ٢٤و٢٥ الدستور السوفيتى لفؤاد محمد شبل — طبع القاهرة .

(٢) ٣٨ المرجع السابق . (٣) ص ٤٦ المرجع نفسه ، وصفحة ٧١ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبع القاهرة ١٩٤٨

وتدعو إلى نهب بعضهم بعضا ، وتولد الشحناء والحقد فى المجتمع ، والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم وكلام الرسول ؛ بل إن صراع الطبقات لم تؤمن به أية جماعة فى عصور الجاهلية الأولى ، ولايدعو إليه اليوم إصلاح ، فهذا هو الإصلاح العام فى الديمقراطية يسير بتلك الأمم إلى المساواة والعدالة الاجتماعية دون وجود صراع طبقى ؛ على أن مصالح الجماعات الإنسانية لاتعارض بينها على الحقيقة ، وإنما بينها التعاون والانسجام ، والإسلام يوجب أن يعيش الفقراء والأغنياء بعضهم بجوار بعض إخوة متحابين ، وقد دعا إلى التعاون التام بين الطبقات .

ولقد أعلن المؤتمر الشيوعى الأول الذى عقد فى موسكو فى ٧ مارس ١٩١٩ تأليف الدولية الشيوعية الثالثة (الكومنترن) لنشر الشيوعية فى العالم . وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات ، وإيجاد القلاقل فى المحيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الدول ، تمهيداً لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية بين الشعوب ، وقد ألغت روسيا الدولية الشيوعية فى ٢٢ مايو ١٩٤٣ ، تقربا إلى الحلفاء ، ولكن الدولية الشيوعية الثالثة استعادت نشاطها الآن ، وهذا مايبدو بعد إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعى (الكومينفورم) فى أكتوبر ١٩٤٧ ، وآثار ذلك واضحة فى إثارة الطبقات فى الشرق والغرب .

وكتاب « مشاكل اللينينية » ظل المرشد الأعلى فى شئون المبادىء والأفكار الشيوعية ، ولا يترك هذا الكتاب أثرا للشك فى اعتقاد « ستالين » ، مؤلفه ، فى أن من حق الكتلة العاملة المظفرة — الكتلة الشرقية — بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها ، وأن تستخدم القوة العسكرية إذا لزم الأمر ضد الطبقات المستقلة والدول التى تناصرها .

وحكم العقل والأديان عامة والإسلام خاصة على مبادىء ونظرية صراع الطبقات واستخدام القوة الثورية لإرهاب الشعوب المسالمة ، لايخفى على إنسان .

إن الشيوعية لم تكن لتقوم لها قائمة فى بلادها لولا هذه المجازر الهائلة ، وعدد

الضحايا الضخم لها فى بلادها ، ولولا سجون الاعتقال والنفى إلى مجاهل سيبريا ، والبطش بخصومها فى الرأى ، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ، ثم لولا الدعاية والأموال الضخمة التى تبذل لنشرها .

أما الاسلام فلا يمكن أن يشك عقل فى أنه إنما قام على السلام والمحبة والرحمة والخير والتعاون بين الناس ، وعلى الصدق فى المبادىء ، والاقناع بالحجة ، وسمو مبادىء الدعوة وأهدافها ، واتجاه هذه الرسالة الإلهية إلى غرس بذور الوئام والوحدة بين جميع الأمم والشعوب ، وعملها لنشر الرفاهية والسعادة بين بنى البشر كافة .

الإسلام والسلام

إن السلام - فى رأى الإسلام - ضرورى للانسانية ، وتلك قضية لاريب فيها ، فالسلام هو أنشودة البشر ، وأمل الإنسانية ، لأنه ضرورى لتقدمها .

هو الذى يساعد على الإنتاج ، وعلى رفاهية الناس وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى .

أما الحرب فتهدم ولا تبنى ، وهى وسيلة للتدمير والتخريب ، تبعث على الذعر والخوف والاضطراب ، وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ، وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الانسان .

وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب وتوطيد دعائم السلام بنزع السلاح ، وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية وزمالة إنسانية ، بل بإيجاد حكومة عالمية

السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هى الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة على التقدم ، والحرب أفظع ماشهده الانسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشف القنبلة الذرية الصاروخية وسواهامن وسائل الافناء .

ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، أوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .

وفكرة السلام الاجتماعى جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، والناس إخوة فى الله والإنسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يؤمن بالإيثار وبالبذل وبالتكافل الاجتماعى .

والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف ، وألغى العصبيات وفوارق الألوان والأجناس .

فالدين الإسلامى فى جوهره ، شريعة السلام والوئام ، ودين الحرية الشخصية

والأمن الاجتماعى والإخاء البشرى ، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى والاضطراب والشقاء ، ويحارب الطغيان والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته والمجتمع بأمنه والبشرية بالسلام والإخاء المنشودين .

والدين الاسلامى فى اشتراكيته العادلة ، ومبادئه السمحة الواضحة ، وفى عمله على النهوض بالمجتمعات والشعوب فى ظلال التعاون والمحبة ، وفى رعايته لمصلحة الفقير والغنى جميعا ، وفى وضعه للمبادىء العامة التى تكفل للانسانية الأمن والتقدم والرقى ، هو فى ذلك كله يعزز مبادىء السلام ، ويعمل على خلق جو جديد ترفرف فيه أجنحة السلام والإخاء والحرية والحضارة والنور والعلم والعرفان .

مقومات الاصلاح
فى الإسلام

رسالة الدين فى الحياة هى السمو بالعواطف والمشاعر ، وتهذيب الأخلاق والضمائر ، وتطهير النفوس والعقائد ، ورعاية كرامة الإنسان خليفة الله فى أرضه ، والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات والشعوب ، هى النهوض بالمجتمع البشرى ، والسير به قدما نحو النور والهدى ، والطهر ، والخير ، والعزة والحرية ، والأمان والسلام .

الدين هو شريعة الاصلاح ينظمها قانون سماوى له فى النفوس الحب والتقديس ، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبنـــاء والنهضة والحضارة ، والنبع الأزلى للحقيقة والإيمان والعدالة ، فليس هو مخدراً للشعوب كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والإلحاد ومحاربة الدين باسم المدنية ، ومن الذين يغالون فى إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين ، ويزعمون أنه يجافى العقل والعلم والتقدم .

إن الأديان السماوية عامة ، والإسلام من بينها خاصة ، لاتعترف بأية وصاية أو حجر على العقل ، ولاتقرظلما أوعدوانا ، ولاتلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين ، ولا تشرع ما ينافى ناموس الارتقاء .

ولقد جاء الإسلام ، فأيقظ الشعوب ، وعزز فكرة الإصلاح ، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الانسان . لم يترك حقاً إلا شرعه ، ولا عدلا إلا فرضه ، ولا فضيلة إلا أوجبها ، ولا خيرا إلا دعا إليه . حارب الاستغلال فى شتى صوره ، واعترف بشخصية الإنسان المعنوية ومكانته الأدبية فى الحياة ، فجعل له حقوقا كفلها ورعاها ، وحذر من يعتدى عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الأليم . لم يقاوم الإسلام رغبة جماعة فى الإصلاح ، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح ، وهذه المبادىء المثلى هى التى كانت تدعو بنفسها إلى الإسلام فى شتى الأقطار والأمصار ، وهى التى مهدت لقيام حضارات زاهية مشرقة كانت نواة الحضارة الحديثة ، ولاعجب فللاسلام مآثره الرائعة فى تحرير الشعوب ،

والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والإخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن فى اتباع مبادىء الدين والسير على مناهجه ، والإيمان بما يدعو إليه من مثل : عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار فالمبادىء القوية لا تخلق الجماعات القوية إلا إذا آمنت بها ، واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ونظاما قويماً ، يقيها عواصف الأهواء وزيغ العبث والعدوان والشهوات .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين فى عصور التأخر الفكرى والاجتماعى ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، انما هو ذنب من يريد أن يحيل النور ناراً ، والهدى ظلاما ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويحامل فيه ، ويحاول أن يطفىء نور الله : ولقد حذر الله تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعقاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار كثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم المادية الألحادية ، وجهرهم بأن الدين شىء مقدس لا تستغنى عنه الانسانية ولا الحياة .. ففكرة الدين ، وعقيدة الله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وإن الانسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض اذا فقد الايمان بالدين والعقيدة فى وجود الله ، ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه للحيرة والضلال : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض : طوعا وكرها ، وإليه يرجعون » .

المادية حرب على الأديان

المادية أخطر المذاهب الحديثة ، وأشدها حربا لفكرة التدين فى الإنسان ، ولفطرة العقيدة التى فطر الله البشر عليها . وقد شن دعاتها فى الغرب الحرب على الأديان ، وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الإلحادى ، وتحمل الناس عليه بقوة القانون ، وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية فى جملتها تذهب إلى أن المادة فى كافة صورها هى المؤثرة فى كل شىء ، وإلى أنها فى الوجود أسبق وأن لها - لا للمعنويات - القدح المعلى فى مصائر الشعوب والإنسانية .

وكان المادية دعاتها فى القديم ، وممن آمن بها الفلاسفة « هير قليطس » وليوسيس وديمقريطس . وممن دعا إليها فى الحديث : بيكون ، وهوبز ، وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقتان المطلقتان وأن المعرفة الانسانية تأتى عن طريق الاحساس . وقد أيده فى ذلك تولاند الذى رأى أن المـــادة هى القوة ، والحركة والحياة والعقل بعض خواصها ، وأن التفكير هو وظيفة العقل ، وكذلك نهج بريستلى وهارتلى ، وداروين ، وبلاماترى ، وسواهم ممن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة تفسيراً ميكانيكيا مادياً محضا . وألف « بختر » كتابه « القوة والمادة » . الذى ظل حينا دعامة قوية من دعائم المذهب المادى (١) ، وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودى المادى المتطرف ، وقد ورث الروح المادى عن أستاذه إنجلز الذى كان يقول : « إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة . وتفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذى يبنى عليه الشيوعيون مذهبهم ، فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود

---

(١) راجع ص ٢٦ ومابعدها من كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨ .

حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ، والمادة تأتى فى الصدارة ، ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لهما السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس للمادة ، كما يقرران أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة (١) ، وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصرف على إنكار وجود الله ، وكان إنجلز يرجع كل شىء حتى الدين والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات الأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية (٢) . ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا ، وهذا التفسير الاقتصادى للتاريخ ينكر الدين . وكان ماركس شيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : « لا إله والحياة مادة » ، وقوله « رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين والداعين إليه » ، وكان « هوبز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله ، ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » ، وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقا لوجود خالق » (٣) .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماديين فى إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادى على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان ، والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم فى رأى الإسلام مرتدون ، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التى لا تتم الحياة بدونها ، وهو رسالة الله إلى الإنسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم فى الدنيا

---

(١) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفيتى ؛ ٥٣ الشيوعية فى الميزان .

(٢) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفيتى - طبع النهضة ١٩٤٩ .

(٣) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك إنجلز .

والآخرة ، والفلاسفة والمفكرون الذين لهم خطرهم فى الحياة الفكرية فى العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ، وكان تولستوى يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد، عش باحثاً عن الله وإذاً فلن تعيش بدونه ،وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخالق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة » .

ويقول شوبنهور : إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها . ويقول رينان : من الممكن أن يتلاشى كل شىء نحبه إلا التدين فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . ويثبت ، كريسى موريسون ، الرئيس السابق لأكادمية العلوم فى نيويورك فى كتابه « الانسان ليس وحيداً » وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل وينتهى إلى أن الله فى كل مكان وكل شىء ولكنه أدنى ما يكون إلى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعاً (١) ، وأكد عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له ، ويقول الدكتور راين : إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحاً أو جسماً آخر غير منظور ، وقال عالم آخر : إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية الله ، هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود (٢) .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان، وأن علينا واجب الايمان بها وبخاتمة هذه الرسالات ، وهى دين الاسلام ، وبالكتاب الخالد «القرآن» معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ »

---

(١) راجع مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٧ - مقالة عنوانها : سبعة أسباب لإيمان عالم بالله . (٢) راجع عدد ٢٣ - ٨ - ١٩٥١ من جريدة المصرى .



العدل الإلهى أمر بدهى تجزم به الفلسفات الدينية عن يقين وإيمان لايجد الشك إليهما سبيلا ، وهو مع ذلك من الضروريات فى عالم التفكير الفلسفى الحديث ، أومن الأبجديات فى قاموس العقل البشرى المنظم ، ولا يستسيغ مفكر أن يتصور مصير الحياة الإنسانية وحاضرها ، وحياة البشر ونظامهم فى عالم مقفر من عدالة السماء ، بل لاتستطيع أن تفهم كيف كانت تقوم الحياة البشرية ويستقيم نظام الوجود كله بدون هذا العدل السماوى الشامل. ونحن لا نؤمن بأن الله عادل فحسب ، بل بعدله ورحمته جميعا ، فبالعدل يسير العالم الإنسانى إلى أهدافه العظيمة المنشودة ، وتستمر نواميس الوجود تؤدى عملها كاملا فى سبيل خدمة البشر وسعادتهم ، وبالرحمة - التى لاتتنافى مع قوانين العدل الإلهى العظيم - تسعد الإنسانية ، وتحيا حياة كريمة متجددة فيها الأمل والرجاء .

والذين يثيرون مشكلة الشقاء الإنسانى يجب عليهم ألا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن العدل الإلهى ، لأن هذا العدل هو الآن وقبله فوق مثار الشكوك والأوهام ، وخاصة بعد أن نضج العقل البشرى هذا النضوج الباهر فى عصر الكهرباء والذرة . أما هؤلاء المفكرون الذين تثير مظاهر الشقاء فى الحياة الإنسانية شكوكهم فى رحمة الله ، فيجب عليهم أن يفرقوا بين نوعين من الرحمة : رحمة تتنافى مع هذه النواميس المنتظمة المسيطرة على الكون والحياة والتى فرضتها عدالة الخالق العظيم ، وهذا النوع لايصح أن يقال له على الحقيقة رحمة بل هو ظلم جائر يسير بالحياة إلى التخبط ، لا إلى السعادة والرفاهية المنشودتين ، والنوع الثانى من الرحمة هو مالا يتنافى مع هذه القوانين التى تحتمها العدالة ، وهو فى قانون المدنية الحديثة أول واجب على الانسان المهذب ، وأكرم صفات الإنسانية الكاملة فى الرجل الذى يتسم بسمات المدنية والخلق الكريم ، فما بالك به إذا فى جانب المسيطر الأعم على الوجود والحياة ؟ وكيف يمكن أن يقال إنه من صفات الكمال فى البشر دون الله ؟

إذا كانت عدالة السماء قد وهبت للانسان حريته فى الحياة ، وأمدته بجميع

العناصر الأدبية اللازمة لتكوين شخصيته الإنسانية، ولمساعدته على الكفاح في الوجود، وعلى الانتصار في معركة الحياة الطاحنة، بعد أن امدته بجميع الوسائل التي تساعده على فهم الحياة فهما كاملا، وعلى أنجح السبل الموصلة إلى السعادة فيها. أفنقول: إن مايصيب الإنسان - بسبب نفسه أو بسبب المجتمع الذي يعيش فيه - من شقاء وآلام، نتيجة لهذه الحرية الموهوبة، هو ظلم وجور من الله، لأنه حد من قوته، ولم يعمل بمقتضى قدرته العظيمة القادرة على إسعاد الحياة والناس؟ كلا فذلك منطق لا يستقيم ولا يمكن أن يقوله إنسان يحب أن يصل إلى الحقيقة الأبدية وحدها.

يمكننا أن نحدد الشقاء تحديداً تاما، وأن نفهم أسبابه، وأن نرى إلى أي حد نستطيع التوفيق بين عدل الله ورحمته ووجود الشقاء الكثير في هذه الحياة.

أما الشقاء فقد عرض له المفكرون والفلاسفة من قديم بالبحث والتحديد، ونحن لن نتوسع في التعريف، ولن نذهب إلى مايصح أن نذهب إليه من أنه كل مايعرض حياة الفرد أو الجماعة الانسانية أو نظام الوجود الالهي الذي فطر الكون عليه للخطر والالام، ولن نذهب إلى إنكار الشقاء الذي يحيط بالأفراد والجماعات مدعين بأنه تضحية يستوجبها العمل في سبيل حفظ وبقاء الحياة الإنسانية نفسها، بل سنتواضع جداً في مدلول هذا الشقاء، ونسير على ماسار عليه صاحب مقالة «مشكلة الشقاء» التي نشرتها الثقافة (١)، فنرى أنه الكوارث والآلام التي تحل بالناس.

وإذا حللنا أسباب هذا الشقاء الانساني - الذي نرى مظاهره الفادحة كل ساعة ويوم بأعيننا وبصرنا - يمكننا أن نرجعها إلى ثلاثة أشياء:

الأول: ماكان السبب فيه الناس أنفسهم، كالمقامر الذي عرض نفسه للفقر بلعبه القمار، وكالعاكف على تعاطي المخدرات الذي يجلب على نفسه شقاء المرض بعكوفه على المخدرات، وكالذي يلقي بنفسه في النهر لينتحر من هموم الحياة، أليس هؤلاء جميعاً ومن شابههم يستحقون هذا الشقاء الذي جروه على أنفسهم بأيديهم، وكيف يمكننا أن نقول إن هذا الشقاء يتنافى مع عدل الله ورحمته؟

الثاني: ما يكون السبب فيه المجتمع نفسه، فالفقر شقاء، ولكن إذا كان هذا الفقر ناشئا عن سوء الأوضاع الاقتصادية عند جماعة أو أمة، أو سببه عدم استغلال هذه

---

(١) العدد ٤٥٥

الجماعة أو الأمة لم ترافقها الاقتصادية استغلالا صحيحا ، أفلا يكون هذا الشقاء الذى نزل بهم عدلا من السماء ، بل رحمة من الله بالناس ، لأنه أراهم مايترتب على مخالفة الدين أو حكم العقل والتفكير من أضرار وشقاء ؟

والحياه البشرية وحدة تامة ، ومن ضروريات العدالة أن توزن بموازين عادلة سليمة ، وإلا فكيف يستقيم نظام الحياه ، فاذا لاقت جماعة أو أمة نتائج إهمالها أو جهلها أفيكون مايحيق بها من أثر ذلك من الشقاء ظلما وجورا من الله ؟

وكذلك الحرب ، أليست جناية مايترتب عليه من شقاء هى من عمل المجتمع نفسه الذى لم يحكم القوانين ونظام الله العادل فى العلاقات بين جماعاته وأممه ، فترك شريعة العدالة الانسانية إلى نظام الغابة وشريعتها . وكذلك الشقاء الذى ينزل بالناس نتيجة الأمراض التى يصابون بها ، أليس سره أن هؤلاء الناس أو الحكومة المسئولة عنهم قد أهملت فى العمل على محاربة المرض وعلاجه والوقاية منه؟ ومثل ذلك الآلام التى تصيب الأطفال من فقر ومرض وسواهما ، أليس مرجعها إلى إهمال الاباء وجهلهم وتفريطهم فى حقوق الأبناء ، ولنفرض أن رجلا توفى وترك طفلا صغيرا ، ولم يترك له شيئا من مقومات الحياة ، أليس الأب مسئولا عن إهماله الذى كان منه فى طفله حين لم ينظم حياته تنظيما اقتصاديا كافيا يبعث على الطمأنينة والثقة بأنه أدى واجبه نحو ابنه ؟ ولنفرض أيضا أن رجلا سار فى الطريق فاخطأ سائق سيارة فقضى على حياته ، أليس هذا الشقاء مبعثه خطا رجل من المجتمع وعدم حذره فى سبيل المحافظة على حياة الناس وفى سبيل أداء واجبه كاملا ؟ وقوانين الوراثة تعلل لنا تعليلا واضحا كيف تنتقل الأخلاق والأمراض وغيرهما من الاباء إلى الأبناء على مر العصور .

وإهمال المجتمع أو خطؤه لايستلزم أن يكون كل إنسان فى المجتمع قد صدر منه الإهمال أو الخطا ، ولا يكون مسئولا عنهما ، بل يكفى أن يحيد فرد عن السبيل فيحيق الشقاء بكثير من أفراد المجتمع جميعا ، لأن الحياة قائمة على التعاون والعمل المشترك لخدمة الانسانية والجماعة البشرية والسير بها قدما فى سبيل الخير والأمن والسلام والرفاهية . فما يصدر عن فرد قد تشقى به أمة .

الثالث : مالا يمكن معرفة السبب فيه ، كسفينة هبت عليها أعاصير عاتية فغرقت بركابها . وكبركان ثار فدمر مدينة ، وكصاعقة نزلت من السماء فقضت على جماعة ، وغير ذلك من مظاهر الشقاء الذى لاتفهم الحكمة فيه، ولا أسبابه المحيطة به .

ومن البدهى أن عقولنا أقصر فى هذه الحالات عن إدراك كنه إرادة الله وحكمته ورحمته وعدالته ، فقد يكون السبب فى بعضها حكمة بعيدة لا يعلمها إلا الله ، كما ترمز إليه قصة الخضر مع سيدنا موسى ، وقد يكون السبب فى بعضها الآخر حفظ الكون نفسه والعمل على بقاء الحياة ، فتضحى عدالة الله بفرد فى سبيل مجتمع ، أو بالجماعة فى سبيل الوجود نفسه ، فقد تدمر المواد الملتهبة المتصاعدة من فوهة البركان قرية ولكنه ربما لو لم ينفجر البركان لوقعت نكبة أرضية تقع ضحية لها قارة بأسرها.

والحياة نفسها مجموعة من التضحيات ، فنحن نموت ليحيا جيل جديد ، وبعض الكواكب الكونية تتلاشى ليبقى نظام الوجود سليما ، وكرات الدم فى حرب شعواء يفنى بعضها فى سبيل بقاء البعض الآخر القادر على تزويد الجسم بالحياة ، وهكذا تضحى إرادة الله بالضعيف ليبقى القوى فيعمر الكون ويكون خليفة الله فى أرضه ، وتزدهر حياة البشر . ويصبحوا أهلا لأن يعيشوا فى هذا العالم .

وفلسفة الدين تقوم على بعث الرضا الروحى والطمأنينة النفسية فى قلوب المؤمنين وعلى أن يفوض الناس أمورهم فى مثل هذه الاحوال لله ، وعلى الإيمان الكامل بعدالته ورحمته وبالحياة الآخرة التى يجازى فيها على ما عملوا من حسنات أو سيئات ، وفى مثل هذا يطيب المفكرين أن يقروا بعجز عقولهم عن فهم حكم الله العظيمة فى الحياة ، وإلا كانوا كالطفل الذى يحكم على أعمال الفيلسوف .

لنؤمن بعقولنا وقلوبنا جميعا ، فالعقل وحده قد يبعث على الشقاء الروحى ، وقد لا يوصل الأنسان إلى الهدف المنشود ، كالرجل الذى يعتمد على رجليه وحدهما فى السير على سطح الماء ، والقلب وحده قد يكون مثار الطمأنينة والغبطة واليقين ، ولكن أليس مما لا يليق بكرامة الإنسان الأدبية وهو خليفة الله فى أرضه ، أن يلغى عقله وفكره ، وأن يفهم الحياة ونواميس العدالة الإلهية العظيمة فهما آليا محدودا لا يتعدى نظرات الحيوانات السائمة إلى الكون العظيم ؟

وكيف نفهم الحياة ، وشخصيتنا فيها ، والرسالة العظيمة التى خلقنا لأدائها كاملة فى سبيل السير بالحياة قدما إلى المثل العليا ، والأهداف العظيمة المرتجاة ، إذ لم نفهمها على أنها وحدة تامة ، أو جسم واحد يتحرك فى تعاون وانسجام ودقة نظام

لغاية مشتركة ، وللتجديد المستمر فى سبيل الأنسانية وحضارتها وتقدمها وسعادتها ؟ وهل يمكن أن نقول : إن المرأة قد شقيت حين خلقت امرأة ولم تخلق رجلا ، وإن مجارى البول فى الانسان تشقى وكان الأولى بالله أن يسعدها بأن تكون مكانا طاهرا يجرى فيه دم الحياة كالقلب تماما ، كلا إن شقاءها سعادة للجماعة التى تعيش فيها ، وإن تفسيرنا المحدود لبعض مظاهر الشقاء فى الحياة الانسانية قد يكون صوابا لو أعطينا قوات أخرى تساعدنا على فهم ماخفى وراء عقولنا من مظاهر الوجود . . .

البشرية

بين الإسلام ودعوات الإصلاح

إن الاسلام لا يمنع قيام دعوات إصلاحية جديدة ، ما دامت تهتدى بهداه وترسم خطاه ، وتستضىء بنوره ، وتعمل على النهوض بالانسانية ، والسمو بها إلى آفاق الحق والخير والنور والسلام

فالدعوة التى تسود العالم الآن ، وترمى إلى نشر السلام فى أرجائه ، والقضاء على الحرب التى تهدده كل حين ، والتى قامت على أسسها هيئة الأمم المتحدة أخيراً ، هى إذا صحت النيات فيها ، وأخلصوا لها القلوب ، دعوة نبيلة ، تتلاقى وأهداف الإسلام العالية ، ولكنها ليست جديدة ، وكيف تكون جديدة وقد سبقها الإسلام فى هذا المضمار بنحو ألف وأربعمائة عام ؟.. وكذلك الشأن فى كثير من الدعوات الاجتماعية والسياسية والخلقية والفكرية والاقتصادية التى قامت فى العصر الحديث

إنما يجب أن تقوم الدعوة على سلامة المبادىء ، ومواءمتها لأصول الخير والعدالة والحق ، وعلى سمو الغاية والوسيلة و لإدراك الصحيح لحاجات البشرية الرفيعة . وان كانت شخصية الداعى ، وقوة إيمانه بدعوته ، وإخلاصه لوجه الله والإنسانية فيها ، وبعد إدراكه لآداب الدعوة وأصولها ، أهم عامل فى نجاح الدعوة وانتشارها

إن الاسلام ـ وهو العقيدة الرفيعة الكاملة ، وفيه خير البشرية وسعادتها وآمالها ليس فى حاجة إلى كثير من الدعاة ، بل هو فى حاجة إلى داعية واحد ، يجدد للأمة روحها ، ويبعث من عزيمتها ، ويسير بها إلى الآمال العظيمة والغايات المرتجاة .

والبشرية ليست فى حاجة إلى دعوات كثيرة ، بمقدار ماهى فى حاجة إلى مبادىء الإسلام الخالدة ، التى طبقت فى كل مكان ، فأثمرت الخير والأمن والسلام والرفاهية ، والحضارة والعمران ، والعلم فى كل مكان

الإسلام

دين الرقى

بدأ الأوربيون بعد الحرب العالمية الأولى ، يطبقون مبدأ الضمان الاجتماعى فى بلادهم ، على الكهول والمرضى والعاجزين عن الكسب واليتامى والأرامل ،وبعد الحرب العالمية الثانية بأكثر من خمس سنوات بدأنا نحن ننفذه بقدرضئيل فى بلادنا وعلى وجه التدريج ، ويخجلنا أن يكون هذا المبدأ الاجتماعى العادل قد دعا اليه الإسلام منذ أربعة عشرقرنا من الزمان ، ونفذه الرسول الكريم وخلفاؤه الراشدون بعده ، وخاصة عمر، تنفيذا صحيحا عاما ، ثم ننسى نحن المسلمين تعاليم ديننا وقرآننا . ونعود بعد أجيال لنقتبس من أوربا مبادىء دعا إليها ونفذها الإسلام .

وفى عهد الرسول بدأ مشروع محو الأمية فى المدينة ومكة ، وفرض على المسلمين عامة طلب العلم ، ونصب الرسول صلوات الله عليه وخلفاؤه الدعاة والمرشدين والمعلمين فى شتى الأقطار والأمصار، لتثقيف الناس وتهذيبهم، ووضعت مجانية التعليم، ولكننا نحن المسلمين ، بعد أجيال مديدة ، نقتبس هذه النظم وتلك المبادىء من الغرب والغربيين ، مفتخرين بأننا بدأنا نعمل فى طريق الخير والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وماكان أحرانا بأن نقيم على ديننا وتعاليم القرآن الحكيم ،إذن لكنا أول الصاعدين فى مدارج الحضارة والرقى والمدنية الصحيحة .

وحقوق العامل والفلاح والخادم والمرأة والطبقات الاجتماعية ، كل هذه قد كفلها الإسلام ،وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها ، وأنذر من يعتدون عليها بالوعيد الشديد ، ولكننا قد تناسيناها ، ثم عدنا نأخذها قليلا قليلا عن أوربا ، ونطبقها تطبيقا أعوج ، لا يحقق شيئا مما نتوخاه من عدالة وحق وخير للناس عامة ، ومع ذلك فاننا نزهو معجبين ، وندعى أننا أخذنا نطبق قوانين الأمم المتحدة - التى أملتها الإنسانية النبيلة - فى بلادنا العزيزة ،وأننا يجب أن ننال تقدير العالم كافة ، لأننا نهجنا منهج الامم المتمدينة فى إصلاح الحياة الاجتماعية ، وتهيئة وسائل العيش للطبقات الفقيرة !

والعلاج المجانى الذى لا نزال نحلم به هو أصل مقرر فى الحياة الاسلامية من قديم. ونحن بعد أن حرمنا منه أجيالا مديدة ، نعود فنقتبسه من الغربيين .

والنظام الديمقراطى الشورى أليس هو مبدأ من مبادىء الاسلام الكريم ، نفذه الرسول وصحابته وخلفاؤه . ثم انصرفنا عنه ، حتى عدنا إليه قريبا ، ناقلين له عن الدول الغربية ، نطبقه بقشوره لا بروحه وجوهره .

ومسئولية الحاكم فى الاسلام مبدأ معروف ، ولا تزال الدول التى تتزعم ركب المدنية فى العالم اليوم تتجاهله وتنأى عنه وتنكره .

ومحاربة الجشع الاقتصادى والاحتكار والربا واكل مال الناس ظلما ، والاستغلال بشتى ألوانه ، ونهب الحقوق العامة للشعب ، كل هذا هو روح الإسلام ، وجوهر مبادئه الإنسانية المقدسة .

وإلغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان ، وإقامة العدل بين الناس كافة ، ونشر الإخاء والمساواة ، وتقديس الحريات ، كل أولئك هو مذهب الإسلام فى الإصلاح ، والنهوض بالطبقات والشعوب ، ولكننا لا نزال ننكر هذه المبادىء ونحاربها فى روحها وجوهرها ، وإن كنا ندعى ولا نزال ندعى بأننا أول الدعاة اليها ، والمحافظين عليها ، والساعين لنشرها بين الناس . . إلى غير ذلك من الحقائق الخالدة التى نبعت من الإسلام . وتفجرت من ينابيع دستوره العظيم . كتاب الله الحكيم ، ومع ذلك كله فلا يزال بيننا من يفهم الإسلام على أنه دين رجعية وجمود ، وأنه عبادات فحسب ، وأن لا صلة له بالمجتمع والدولة ، وانه يجب إنقاذ الناس من حجره على الحريات .

وكذبوا وأيم الله ، وافتروا على الاسلام ، إن يريدون إلا الهدم ما استطاعوا ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .



رسالة جديدة حقا ، غيرت مجرى التاريخ ، وبدلت نظام الحياة ، وسمت بالإنسانية التى كان يهوى بها الجهل والفاقة والذل والاستبداد ، وارتفعت بكرامة فرد والمجتمع والأمم إلى المكان اللائق بها ، حيث السمو فى العقيدة ، والعظمة فى النظام وروح الجماعة ؛ ووأدت الكثير من المبادىء الضالة الضارة ، سواء فى العقيدة أم فى التفكير أم فى الاجتماع ؛ وبعثت شعوراً جديدا فى العالم كانه ، يقوم على إيمان وطيد بمبادىء الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمالة الإنسانية المشتركة ؛ وقادت العالم إلى مجال الطهر والفضيلة ؛ والشرف والكرامة والصفاء الروحى ، والطمأنينة النفسية ، والثقة بأن الانسان خليفة الله فى الأرض ، وأن عليه واجبا أدبيا محتوما : أن ينشر الأمن والسلام والحب والرحمة والتعاون والإحسان بين الناس جميعا ، وأن يعمل على النهوض بالحياة والبشرية ، ليسعد الفرد ، وتحيا الجماعة ، وترقى الأمة وتتقدم الانسانية ، لأنه مسئول عن ذلك كله أمام ضميره وأمام إلهه خالق الأرض والسموات .

وما تكون هذه الرسالة غير رسالة محمد صلوات الله عليه ، رسالة الإيمان ، ودعوة القرآن ، التى أشرقت بنورها الأرض ، واهتزت لعظمتها السماء ، وكانت حدا فاصلا بين عهود بغيضة من الهمجية والوحشية والظلام والاستعباد وعصور كريمة سمتها الايمان والعلم والحضارة وتقديس كل ما هو حق وخير وجميل ؟

لقد كان بدء نزول هذه الرسالة حدثا تاريخيا عالميا دوى صداه فى الآفاق ، فبدأ نزول القرآن منذ نحو أربعة عشر قرنا ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، نزل للتحرير الانسانى العام . فقد حرر الإنسان من الأوهام ، والجماعة من الهوان والذلة والاضطهاد وبطش الطغاة ، والبشرية من الخرافات والضلالات والجمود ومعاداة النظام وكراهية التقدم ومحاربة الفضائل والأخلاق الكريمة .

وأخذت روح الفردية تتضاءل لتخلفها روح الجماعة ، ومبادىء الطغيان الدينى والاجتماعى والمادى تتلاشى لتقوم على أشلائها مبادىء الايمان بالعدالة والمساواة وحريات الناس وكرامتهم ، فانتهى إلى غير رجعة عهد الكهان والمتكهنين، وعهد الضلال والمضللين ، وانقضت التقاليد المرذولة التى كانت تحل الخمر والميسر والربا، وترى القتل والإسراف فى الثأر عملا مجيدا ، وتبيح وأد البنات وعقوق الأمهات وارتكاب المنكرات ، وتنظر إلى الظلم والغش ونقض العهود وإلى النفاق والرياء والوشاية والنميمة والإفساد بين الناس كأنها أعمال مألوفة معروفة .

بدأت الدعوة تسرى إلى الآفاق، فارتمت فى أحضانها الناس والجماعات والأمم، واكتسح أبطال هذه الدعوة الحصون والمعاقل والممالك ، ونشروا راية الإسلام والسلام فى شتى الأرجاء والبقاع ، وبدأت مواكب الحضارة والعلوم والفنون والآداب تسير، ويسير وراءها الخير والرفاهية والمجد والعزة والعظمة للاسلام والمسلمين وللناس كافة .

رسالة جديدة هى رسالة الإيمان والروح والإنسانية الكريمة .. فلينهض قادتها ودعاتها لنشرها من جديد ، بعد أن شقيت الحياة والأحياء برسالات الكفر والطغيان والاستعمار ، والجشع المادى : الذى بعث الفوضى ، وقضى على النظام والأمن والسلام ، وأشعل الحرب فى الأرض ، وأورث العداوات بين الأمم « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد »

لينهض الشرق من جديد ليؤدى رسالته ، وينشر دعوته ، ويذود عن حماه ، ويدافع عن عرينه، ويقضى على الذئاب والمتذئبين بين ربوعه، ويحارب مايراد به من الهوان والتحكم والإذلال .. ليعد إلى الله وإلى دينه وكتابه وشريعة رسوله ، يكتب الله له النصر والظفر والغلبة ، فالله ولى الصالحين ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ».

الإسلام حامي الحريات!

— ١ —

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام تتعثر بين وحشية ضارية ، وهمجية ضالة ، واستبداد مروع ، ومذاهب وعقائد باطلة ، وتقاليد وعادات بالية ؛ وكان الجهل والجود والاضطهاد والاستعباد واستغلال الإنسان لأخيه الانسان سنة الحياة ، لحيثما وليت وجهك فثم الطغاة المستبدون ، والرؤساء الذين لايؤمنون بحق الشعوب فى الأمن والحرية والحياة ، والأباطرة الذين يعيثون فى الأرض فسادا بالغزو والنهب والاستعمار .

فى جانب امبراطورية الفرس بعقائدها الوثنية ، ونظمها الاستعمارية ،وسياستها المتعسفة ، وحكامها المتجبرين . وفى الجانب الآخر امبراطورية الروم الشرقية تثير الرعب والفزع فى الأرض ، وتنشر الفساد بين الناس ، والحرب مستمرة مستعرة بين الجانبين ، يصطلى بجحيمها الرعايا الحائرون المفزعون . . فاذا تنقلت فى الأرض وجدت فى كل مكان وقطر الشقاء والخوف والفقر والظلم والطغيان . . ولم تجد حكمة الحكماء ولا فلسفة الفلاسفة شيئاً ، لأن الحكم كان للشهوة ، والسيادة كانت للضلال ، والحق كان للقوة ، والرأى لم يكن يستمع إلا من رئيس أو حاكم .

ولقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران حرمان العمال والصناع من حقوقهم المدنية ، وكان الساسة والمفكرون فى روما يؤمنون بسيادة أمتهم وأن من الواجب عليهم إخضاع الدول لجبروتهم وحكمهم بالعنف والقسوة ، وكان المشرعون فى أثينا ينظرون إلى الرقيق نظرتهم إلى الحيوانات العجماء ، وكانت المرأة تعيش مسلوبة الإرادة والحرية والاختيار فى كل مكان .

ورغم انتقال الإنسانية من مرحلة الوحشية إلى مرحلة البربرية ، ثم إلى مرحلة الحضارة ثم إلى عصور الرق فالإقطاع ، ورغم الديانات والشرائع السماوية والكتب الإلهية المنزلة ، فإن الحياة ظلت كما هى لا تتبدل ، والظلام ظل كثيفا كما كان ؛ والذى بدل وغير وحرف إنما هو الحق وشرائع السماء .

فى هذا الجو الخانق ، والغيوم المكفهرة ، والضلالات والأباطيل والوثنيات ، أرسل محمد صلوات الله عليه ، وأمر أن يبشر الناس كافة بالإسلام ، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونورا ورحمة ، فأخذ يذيع الدعوة ويتلو الكتاب ويدعو إلى الحرية والسلام والمساواة ، ويسفه آراء الوثنية والشرك والبهتان ، ويحارب الاستعباد والاستعمار ، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ويأمر بكل ما هو حق وخير وعدل ، ويناهض الأقيال المتجبرين والسادة المتكبرين ، والرؤساء المستبدين ، وينادى بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأة ، ويحرم السلب والنهب واللصوصية والربا وأكل مال الناس بالباطل والفساد ، ويؤاخى بين الناس ، ويحبب فى التعاون والمحبة ، ويحطم العصبيات وحمية الجاهلية الأولى ، ويلغى الفوارق بين الشعوب والجماعات . . وتألب دعاة الوثنية والباطل على الدعوة الجديدة ، يحاولون وأدها بقوة السلاح ، فانتصر عليهم محمد وأنصاره فى بدر ، وفتحت مكة فدان العرب للاسلام ، وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول وعداوته ، وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة ، وبعث محمد صلوات الله عليه رسله إلى ملوك الأرض يدعونهم لدين الله ، فسار دحية الكلبي بكتاب إلى عظيم بصرى ليسلمه إلى هرقل قيصر ، وسار عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ؛ وعمرو بن أمية إلى النجاشى ، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم الأسكندرية ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وشجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، والمهاجر بن أبى أمية إلى الحارث ملك اليمن .

ثم مات محمد بعد أن أدى رسالة الله ، ورفع راية الإسلام فى الأرض ، وبلغ القرآن الكريم إلى الدنيا ، وبذر غرس الحرية والسلام والاخاء والمساواة بين الناس ، وأقام حكما صالحا لا يمحى من الأرض ، وجمع الأجناس والعناصر والالوان والشعوب فى ظل دولة اثمرت بأمرها الحياة والوجود .

وكان خلفاء محمد مثلا عالياً فى احترام الحقوق والحريات وحمايتها والدفاع عنها ، أذاعوا كلمة الله والحق والهدى بين الأمم كافة ، ووضعوا أصول حضارة زاهرة باهرة عاش العالم فى ظلالها أجيالا مديدة .

— ٢ —

وفى القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الظلم

والاستبداد والطغيان ، إذ يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»، ويصور السادة الطغاة المفسدين فى الأرض تصويرا صادقا فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد».. ويدعو إلى أخوة الجماعات الإنسانية لتعيش فى ظلال السلام والوئام ، فيقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « إنما المؤمنين إخوة » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين فى عهدهم فيقاتلون ويشردون فى الأرض : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » .. ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه .

وكان الرسول صلوات الله عليه مثلا أعلى فى المحافظة على حريات الناس وحمايتها، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس فى الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم فى الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وكان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم ، فاذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم .

وكان يقول : من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه .

وقال لعمرو بن العاص واليه على مصر : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

وكان يوصى ولاته على الأمم بالعدل بين الناس ، واحترام حقوقهم وحرياتهم .

وخطب مرة فقال : « اعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إلى ، فانه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة » .

ولطم جبلة بن الأيهم ملك غسان رجلا من المسلمين فى الحج لأنه داس على إزاره ، فشكا الرجل إلى عمر ، فطلب عمر القصاص من جبلة ، فقال جبلة : كيف ذاك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الاسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة ، ففر جبلة والتحق بالروم .

وكان عمر بن عبد العزيز يبطل أحكام ولاته إذا رأى فيها ظلما للشعوب المحكومة ؛ خاصم عجم أهل دمشق إليه فى كنيسة كانت أخذت منهم ، فأخرجها عن المسلمين ، وردها إلى النصارى .

وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها فى المسجد فهم أن يعيدها إليهم ، لولا أن المسلمين صالحوهم .

وكتب إليه عامله على العراق : إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه : والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكان ينوى أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وأن يجلى العرب من الأندلس ، وكتب إلى عامله يأمره بإعادة من وراء النهر من المسلمين فأبوا ؛ وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام على أن يظلوا ملوكا ، ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، فأسلموا ؛ وكتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى دين الله فأسلم بعضهم .

ووفد عليه قوم من سمرقند فشكوا إليه أن ابن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين ، على غدر ، فحكم عمر قاضيا ، فحكم القاضى باخراج المسلمين . . . إلى غير ذلك من احترام الحرية ، وحب العدل والعمل بشريعة الله .

— ٣ —

إن المسلمين لم يفتحوا البلاد للاستعمار والسيادة ، والغزو والنهب ، فقد رأيتم كيف كانوا يعاملون غيرهم ، ويحترمون حقوقهم ، ويحافظون على حرياتهم . وإنما

دخلوا هذه البلاد هادين ، ودعاة مرشدين ؛ يقيمون العدل ؛ ويضعون الموازين القسط بين الناس ، ويحاربون الوثنية ، ويحطمون الضلال . . وكانت أمم كثيرة ترسل إلى قواد المسلمين ، ليدخلوا بلادهم ، وينقذوهم من الظلم والاستعباد والشقاء .

وكتب عامل لعمر بن عبدالعزيز على خراسان : إنه لايصلح لهذه البلاد إلا السيف ، فأنكر عمر عليه ذلك وعزله .

وكانت البلاد التي يحكمها المسلمون مثلا في النظام والأمن وانتشار العدالة والرخاء والرفاهية وحرية الفكر والعقيدة والرأى . . . ولم يكن المسلمون يمسون مرافقها الاقتصادية أدنى مس .. فأين هذا من استعمار اليوم ، الذى يحجر على الحريات ، ويعصف بالحقوق ، ويضيع الحرمات ، وينهب أموال الأمة بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويحاربها فى قوميتها ودينها وأخلاقها ؟

— ٤ —

الإسلام هو حامى الحريات فى كل مكان ، وشرائعه أعظم ضمان لحق الناس فى الطمأنينة والإنصاف والمساواة والحياة .

وهو يحرم الحرب ولا يبيحها إلا دفاعاً عن دين الله ، بل إنه ينهى عنها ولو كانت بقصد نشر الدين ، ويحبب فى السلام والمحبة والتعاون والوئام .

وهذا الاستعمار الغربى الحديث إن هو إلا لصوصية ونهب وفساد ، وقتل للشعوب ، وإفناء للجماعات ، وحرب على السلام ، وإجاعة للناس ، وبسط للنفوذ والسلطان على حساب الضعفاء ، وهذا كله هو مالا يعرفه الإسلام ؛ بل إنه ليحاربه ، ويطالب بتحطيم كل من يعمل له أو يساعد على نشره .

والمسلمون لهم العزة والكرامة والسيادة فى الأرض ؛ وهم الذين نصبهم الله حماة لشريعته ، وأهلا لخلافته ، وأحقاء بكرامته ، ولم يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ، فهم أجدر الناس بحياة الحرية والكرامة .

وكل قضية من قضايا الحرية فى الأرض ، هى قضية الإسلام ، الذى يدافع عنها ؛

ويؤيد حقها ، ويذود عن حياضها ، فما بالنا إذا كانت هذه القضية هى قضية المسلمين .

إن المستعمرين خارجون على القانون السماوى فى نظر الإسلام ، وهم أولى الناس بحرب المسلمين لهم ، وصدهم إياهم ، مادام هؤلاء المستعمرون يحملون السلاح لتأييد باطلهم ، ونشر سلطانهم .. أما الذين يقيمون بيننا فى ظل حمايتنا من الشعوب ، فلهم الأمن والسلام والرحمة .

رسالة الإسلام

إنسانية وعالمية

قامت على مبادىء الإسلام دولة عظيمة ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة هى نواة الحضارة الأوروبية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل فى نقل حضارات الأمم القديمة إلى العالم الحديث ، ولولا مجهود المفكرين المسلمين لضاعت آثار المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها .

قامت هذه الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية ، وعلى الديمقراطية النبيلة التى بلغت على يد الفاروق عمر بن الخطاب أسمى ما تبلغه الإنسانية الراقية ، وقامت على تقديس حرية الفكر . . . ومبادىء محمد ودعوته ورسالته ما هى إلا صدى لهذا الدستور الخالد ، والكتاب الحى الباقى : « القرآن الكريم » .

وتقرأ فى القرآن فتجد حربا لاهوادة فيها على الشرك والوثنية . وتحرير العقل الإنسانى من أوهام التعصب والجمود والضلال ، وإيمانا لايشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة ، وغرسا للفضائل الإنسانية والمثل العليا فى نفوس الناس كافة ، ومحاربة الرذائل والمنكرات والشرور والآثام والفوضى الاجتماعية فى كل شىء وكل ناحية

وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعا ، فلا فرق بين جنس وجنس ، ولافضل لأمة على أمة أو قبيلة على قبيلة ، أو إنسان على إنسان ، إلا بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، وتقوى الله وطاعته « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وهكذا قبر الاسلام ورسوله الجمود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك الإنسانية والعالمية بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

وهكذا غرس محمد صلوات الله عليه بيديه الكريمتين شجرة الحرية والتعاون والإنسانية والمساواة والإخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم

الحضارات التى شهدها التاريخ وعاش فى ظلها العالم أجيالا وقرونا ، ينعمون بعدلها وحكمها ، ويشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون .

وهل الحضارة إلا آثار الرقى الإنسانى ومظاهر التقدم البشرى فى شتى نواحى الحياة ؟

وإذا قست ذلك بآثار محمد ورسالته فى الحياة على الناس والإنسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لا يكاد يعيها العد ، ويبهت الفكر حين يجد أن هذا الأمى العربى قد بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحضارة ، ويقف العقل والبيان حائرين لا يدريان وكيف يشكران ، فضل هذا الرسول العظيم .

إن ميلاد محمد ميلاد الحضارة ، وبحق ما أقول ، فلم تكن الحضارة القديمة من صينية ، وهندية ، وفارسية ، وفرعونية ، وإغريقية ، ورومانية ، إلا جسما خاليا من الروح ، وبدء نواة لحركة التقدم والرقى الإنسانى .

على أن هذه الحضارات مع ما قامت عليه من شتى المبادىء والأسس والنظم الخاطئة لم تستطع أن تحارب الجهل والفقر والهمجية والوثنية إلا فى بقع صغيرة محدودة ، أما أغلب أرجاء العالم فكانت تعيش فى ظلام دامس ، وضلال شامل ، وخوف مفزع وفقر ووحشية .

أما الحضارة الاسلامية التى غرسها محمد فقد نظمت الحياة فى كل ناحية من نواحيها وهذبتها ، وسارت بالانسانية إلى غايتها النبيلة ، ومثلها الرفيعة ، وحررت الفكر الانسانى من قيوده وأوهامه ، وامتازت بروحانيتها المشرقة ، وإيمانها المطلق بمبادىء الخير ، واشتراكيتها العادلة التى جعلت الفقير أخا للغنى والغنى أخا للفقير ، والتى ساوت بين شتى الطبقات والجماعات والعناصر .

الإنسانية والإسلام

بدأ الإنسان حياته غريبا على هذه الأرض ، حائرا فى فهمها وكيف يعيش فيها ، مسخرا الأوهام وما هو أقوى منه من حيوان وإنسان ، وأخذ يتنقل من مرحلة إلى مرحلة ، ويرقى بحياته وبنفسه خطوة خطوة ، وبعث الله إليه المرسلين والأنبياء يرشدونه ويهذبونه ، ويجعلونه أهلا لأن يكون خليفة الله فى أرضه ، وختمت الرسالات برسالة محمد صلوات الله عليه ، وهى الرسالة التى كان لها أثرها العميق فى الحياة والحضارة والرقى البشرى العام .

على أن المفكرين كانوا يتجهون بعقولهم إلى هدف مشترك هو التمكين للانسانية والحضارة فى الأرض .

وهكذا أظل العالم حضارات متعددة خلال الأجيال القديمة ، فمن حضارة صينية إلى حضارة هندية وفارسية وفرعونية ، إلى الحضارة الأغريقية ، والرومانية ، ثم كانت الحضارة الإسلامية ، التى قامت على أساسها الحضارة الأوربية الحديثة .

ولكل حضارة من هذه الحضارات ميزاتها وخصائصها ، وإن كان الطابع البارز للحضارة الإسلامية هو تقديس حرية الفكر ، وإعزاز حرية الانسان وكرامته ، وتشجيع المعرفة والنظام ، والمساواة بين الناس جميعا ، فى ظلال إخاء شامل وعدل تام ، وروحانية جميلة ، واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

ولقد استمدت الحضارة الأوربية الحديثة من الحضارة الإسلامية أصولها الفكرية والعلمية العامة ، وسارت على ضوئها فى ميدان الفنون والآداب والعلوم ، ثم بذتها فى ميدان الابتكار والاختراع وكشف أسرار الكون وما أودعه الله فيه من قوى وخصائص ، مما شمل أثره العالم جميعه ، وأدى الى اكتشاف البخار والكهرباء والذرة وسواها من معجزات العقل البشرى ، التى غيرت مجرى الحياة والحضارة . .

ومع هذا التقدم الإنسانى العظيم فقد تنكرت الحضارة الحديثة للمبادىء والأخلاق والدين والفضائل الإنسانية والمثل الرفيعة ، واعتزت بماديتها الطاغية ، وحاربت الأمن والسلام ، وجعلت بعض النـــاس أعداء لبعض . وقوت نزعات الطمع

والاستبداد والاستعمار فى نفوس الناس والأمم، حتى أصبح الغرب موطن الماديات بألوانها وعنفها. كما كان الشرق موطن الروحانيات بسحرها وجلالها حين كان منبع الحضارة العالمية، ومهبط الإنسانية الأولى.

قضت الحضارة الأوربية على التعاون الإنسانى، ومزقت الناس طوائف وأحزابا وجماعات، وجعلت بعضهم حربا لبعض، واستباحت فى سبيل التنافس على الاستعمار أن تبيد بعض دولها البعض الآخر فى حروب منظمة بالغة من الفظاعة والعنف والقسوة ما لا يتصوره إنسان، واستخدمت العلم سلاحا جبارا للفتك والتدمير.

وهكذا رأينا فى الحربين العالميتين الماضيتين أن الانسان يدمر آثار الحضارة بيده، ويحيل المدن والمصانع والمتاجر والقصور ودور الثقافة ونواديها أطلالا بالية، ويحرق بقنابله دور الكتب والآثار والمخطوطات والمتاحف، ويزهق بيده أرواح الملايين من شبان الجامعات وخريجيها. ومن المفكرين والباحثين وأقطاب النهضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية. ويحتكم هذا الإنسان خلال الحرب إلى شرائع ونظم ومبادىء هى أقرب إلى نظام الغابة وشريعتها. وأصبح التراث الإنسانى العالمى للامم والحضارة مهددا بالدمار والفناء. بعد أن ساهمت فى تشييده وبنائه جميع العناصر والشعوب خلال الأجيال الطويلة.. ووقفت الحضارة بين مذهبين مختلفين.

الأول: مذهب متفائل بمجد هذه الحضارة الراهنة. ويرى أنها ثابتة قوية، تسير فى طريقها لأداء رسالتها من إسعاد البشر والحياة.

والثانى: مذهب متشائم. مشفق من مصير الحضارة، راث لها ولمستقبلها.. وبين التفاؤل والتشاؤم. تقف الحضارة نفسها حيرى ترتقب المستقبل فى خوف وجزع وإشفاق. فإما تقدم يرضى المتفائلين والممجدين. وإما تقهقر يصدق قول المتشائمين الذين يرون أن الحضارة قد تغرق فى موج لجى فى المستقبل القريب خلال عاصفة هوجاء من الحرب الذرية المدمرة.

ولست من المتشائمين المشفقين على مستقبل الحضارة. فسيعيش العالم. وسينعم بالعيش فى ظلال حضارة مشرقة زاهية. وستكون هذه الآثار الدامية التى شهدتها الحياة نتيجة لإسراف الحضارة الحديثة فى ماديتها وعنفها وطغيانها وتجردها من كل مقومات الحياة الروحية والأدبية. ستكون ذلك كله باعثا للمفكرين على أن يحولوا

سير الحضارة ، وأن يتجهوا بها وجهة جديدة لتؤدي رسالتها العظيمة فى خدمة الحياة وإسعاد الإنسانية .

فالحضارة باقية ، ولكنها ستتحول وتظل فى تبدل مستمر ، حتى تصل إلى أسمى غاية ينشدها المفكرون والمصلحون .

وهذه الرجات الشديدة التى امتحنت بها الحضارة الحديثة . هى نذير للناس كافة بأن يتجهوا وجهة سامية نبيلة فى حياتهم وتفكيرهم وعيشتهم وألوان اجتماعهم ، وهى مذكرة لهم بخطئهم الذى استعصى إصلاحه والنجاة منه . والذى جعل الحياة جحيما لا تطاق : فحرم قتل فرد وأباح قتل أمة ، وحرم سرقة جنيه ، وأباح نهب الملايين من أموال الشعوب المتأخرة بطرق غير مباشرة ؛ ونادى بالمساواة ثم قسم الناس إلى ألوان وأجناس وشعوب متقدمة وأخرى متأخرة ، وأحاط حرية الإنسان بهالة من التقديس ، ولكنه أنكرها على الأمم ، بل على الأفراد حين يهب شعب يطالب بحريته .

بل إن هذه المحن الشديدة التى نكبت بها الإنسانية على يد الحضارة الحديثة هى التى أبانت أفضل إبانة عن قيمة الحضارة الإسلامية ومنزلتها فى تاريخ العالم وأثر مبادئها الحية فى قيادة الإنسانية وتوجيه الحياة وإسعاد الناس والشعوب .

وبعد. فلا بد من بقاء الحضارة ، والإنسان مصمم على بقائها ، ولكن مع ذلك لا بد لها من أن تتحول إلى أهداف أسمى ، وتعمل لمبادىء أعظم ، وتؤمن بغايات أشرف من هذه الغايات التى سارت عليها خلال القرون الماضية والحاضرة . والحضارة من غير شك فى تحول مستمر ، وتقدم مطرد .

وإذا أردنا أن نتصور بعض الأهداف التى ستدركها الحضارة البشرية خلال المستقبل القريب ، كان لنا أن نقول إن العالم سيتحرر من كل ماقيد حريته وحد من نشاطه ، وسيتلافى أخطاءه الماضية ، وسيكمل النقص الذى شعر به وأحس بأثره وضرره عليه وعلى الناس :

(أ) فسيصبح بعد حين السلام العالمى حقيقة واضحة لا يجرؤ إنسان أو زعيم أو أمة على أن يشن حرباً أو يعلن العدوان ، وسيخفت صوت القوة والسلاح ويحتكم الناس إلى مبادىء العدالة والحق والمساواة والحرية ، وهذا أول هدف سعى إليه الإسلام ومحمد رسوله الكريم .

(ب) وستتلاشى الروح القومية لتحل محلها العالمية والإنسانية ، ويعيش الناس فى ظلال تعاون وتعارف كاملين ، ويتحقق أحد الأهداف العظيمة للاسلام ديننا الخالد وهو إلغاء العصبيات والفوارق بين الأجناس والطبقات والعناصر ، والإيمان بزمالة إنسانية عامة ، وبالأخوة البشرية الكاملة .

وليس ذلك بعجيب بعد ما سمعنا عن فكرة « الحكومة العالمية » التى يدعو إليها بعض المفكرين .

(ج) وستتحول المبادىء الاقتصادية المتنافسة المتحاربة إلى تعاون اقتصادى عام شامل ينتظم جميع أمم العالم وشعوبه ، وذلك لخير الناس ومصلحة الشعوب ، ولرفع مستوى الحياة فى الأمم المتأخرة ، وذلك مما يحقق أهداف القرآن الحكيم ، ويطابق روحه واشتراكيته العادلة .

(د) وستثب النهضة العلمية فى جميع أمم العالم وثبة عظيمة ، وتشترك فيها جميع العقول والأفكار متساندة متآخية متحابة ، هدفها الحقيقة والبحث والكشف والابتكار والتجديد فى بناء الحضارة وعناصرها وتنظيمها والسمو بها ، وذلك أحد المقاصد السامية التى سارت إليها الحضارة الإسلامية .

(هـ) وستبنى الحضارة المقبلة على القيم الروحية والمثل العليا الحقة والفضائل الإنسانية الكريمة ، قريبا مما جاء به الإسلام ، ووفق ما شرعه من مبادىء ومثل وفضائل ، لا تزال موضع اعتزاز الإنسانية وفخرها وكبريائها .

(و) وستصبح حرية الإنسان والأمم وحرية الفكر أمورا مقدسة ، لا يمكن أن يفرط فيها إنسان أو يجترىء على العبث بها أحد ، وهذا هو أحد النواميس العظيمة التى جاء بها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد ، فسيجد العالم نفسه فى المستقبل القريب يعيش فى ظلال ألوان من التفكير والمبادىء هى بعينها ما شرعه الله وأرسل به محمداً رسوله إلى الناس كافة ، ولا يمكن لعقل أن يدرك مدى ما سيطرأ على حياة الناس من تغيير ، تبعا لتغير ألوان الحضارة وأسسها وأهدافها ، ولسيرها بأقصى سرعتها فى سبيل خدمة البشرية كافة ، فذلك كله سيكون من المعجزات فى تاريخ الحضارة والإنسانية .



والأسرة

الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأولى فى الأمة ، والنواة الصغيرة التى يتكون منها المجتمع الكبير .

ولم يغفل الإسلام الأسرة من حسابه ، بل لقد دعمها ، وقواها ، وربطها برباط مقدس شريف ، وبعث فيها الحب والتعاون والمودة والإخلاص .

أساس الأسرة المرأة والرجل ؛ وقد جمعهما الله عز وجل لغرض عظيم ، وفى ظل رابطة مقدسة . هى رابطة الزواج .

والزواج شركة مقدسة جعله الإسلام قائما على رضا الزوجين ومحبتهما وتعاونهما « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ، ولا يتم عقد الزوج إلا بعد خطوات دقيقة ، الهدف الأول منها إعزاز المرأة ورفع مكانتها ، منها كفاءة الرجل وحده ، والتزامه بمهرها ، وبنفقتها ، ونفقة أولادها ، وبحسن معاملتها ورعايتها .

فاذا وجد للأسرة بنون أو بنات فعلى الزوجين تعهدهما ورعايتهما وتأديبهما وتهذيبهما .

وعلى الزوجين أن يتصرفا فى مالهما تصرفا سليما . يقيهما شر الفقر ، ويكفل لأولادهما قسطا كبيرا من الرفاهية والحياة الطيبة .

وعلى المرأة أن تكون أمينة على مال زوجها ؛ وأن تحافظ عليه محافظتها على مالها .

وعلى الابن متى كان قادرا أن يقوم بشئون أبيه وأمه وأخواته الصغار ويعول أقاربه ويحسن إليهم جميعا ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

فاذا مات الزوج أو الزوجة ورث كل منهما الآخر فى بعض ماله ؛ ووزع الباقى على من يستحقه بفريضة الميراث ، وفق شريعة الإسلام .

ونهى الإسلام عن الوصية للوارث ، قال الرسول صلوات الله عليه ، « لا وصية لوارث » . كما نهى عن الوصية لغير الوارث بأكثر من الثلث . وذلك لينتفع أكبر عدد من الأقارب بالميراث ، ولتتوزع الثروات الكبيرة فتقل الفروق الاجتماعية بين الناس . فأين هذا من تشريعات أوربا التي تجيز أن تنقل ثروة الميت إلى الابن الأكبر وحده ، ويترك أخوات هذا الابن عالة على المجتمع وعلى أخيه ، وتجيز للرجل أن يوصي بماله كيفما شاء ولمن شاء ؟ .

فإذا كان الزوج قادرا ، ووثق من نفسه العدل والإنصاف أباح له الإسلام أن يجمع في عصمته بين أربع زوجات .

وإذا تعسرت الحياة الزوجية ، واستحال الوفاق ، ولم يجد التحكيم ، أجاز له الإسلام الطلاق . . ويحرم الإسلام شتى أنواع العلاقات الجنسية الآثمة ، من زنا وبغاء ، ومصادقة ، ومتعة ، حفظا للأسرة ولكيانها المقدس . . ويكفل الإسلام حرية الأبناء ، ويساويهم في المعاملة ببعض . ويفرض على الآباء القيام على رعايتهم وتهذيبهم وتوجيههم توجيها صالحا في الحياة .

إلى غير ذلك مما شرعه الإسلام لتكوين الأسرة ، ودعمها ، في المجتمع الإسلامي لتنظيم الاجتماع ، والسمو به إلى الخير والحق والعدالة والطهر والشرف والإخاء .

الاسلام

وحرية المرأة

كفل الإسلام للمرأة جميع الحقوق المدنية وأطلق لها الحرية فى التعلم والتعليم وخدمة المجتمع ، وأعطاها حقوقها المالية والاجتماعية التى حرمتها الشرائع الأخرى منها . واحتفظ لها بحريتها الشخصية وكيانها المعنوى ، وساواها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، وأباح لها تولى القضاء ، وأعطاها حقها فى الميراث : للأنثى نصف الذكر ، بقدر أعبائها المادية فى الأسرة .

وجعل للمرأة الحق فى أن تملك وتبيع وتشترى وتهب وتقبل الهبة وترهن وتوصى وتعقد باسمها العقود ، وتتصرف فى مالها بسائر ألوان التصرف ، دون حاجة إلى إذن زوجها أو ولى أمرها . ولا يوزن الإسلام فى ذلك بأى تشريع حديث ، فإن حالة المرأة فى فرنسا لا تزال حتى الآن أشبه بحالة الرق المدنى ، فقد نزع القانون منها صفة الأهلية فى كثير من الشؤون المدنية ، فلا يجوز للمتزوجة بيع ولا شراء ولا هبة ولا رهن ولا وصية ولا أى عقد من هذا اللون إلا بإذن زوجها وتصديقه وفى أغلب القوانين الحديثة تفقد المرأة بمجرد زواجها اسمها واسم أسرتها ، وتنسب إلى زوجها وأسرة زوجها . وفقدان الاسم رمز وعنوان لفقد الشخصية المدنية باندماجها فى شخصية الزوج كما يقرر علماء القانون .

والإسلام يفرض نفقة المرأة على أبيها أو ولى أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده ، غنية كانت أو فقيرة . فإن لم يكن لها عائل فنفقتها ونفقة أولادها من بيت المال .

وجعل شهادة المرأتين مساوية لشهادة رجل واحد ، لأن المرأة أكثر عاطفة وتأثرا وقبولا للاغراء ، فاحتاط الإسلام للعدالة وضمانها أكبر احتياط .

ويقول رسول الله من خطبته فى حجة الوداع : أيها الناس إن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا ، إنهن لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .

وقد حرم ألوانا كثيرة من رق المرأة : حرم الزنا والبغاء وشتى ضروب المهانة التى تنزل بها ، ورفع كرامتها وجعل صلتها بالرجل مبنية على أساس رباط مقدس أباحه الإسلام وأكده ورعاه وهو رباط الزواج وجعلها راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها وأطلق لها حرية الرأى والتعبير حتى قال عمر : « أصابت امرأة ، وأخطأ عمر » .

وأوجب معاشرتها بالمعروف واستوصى بالنساء خيرا . وجعل لها الحرية فى الرضا بمن تتزوجه ، وفى الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها وهى كارهة وكانت ثيبا فأتت رسول الله فرد نكاحها .

إن هذه الحرية التى أعطاها الإسلام للمرأة لا نظير لها فى أية شريعة من الشرائع ، وليست الحرية عنده إلا بالشرف والعفاف والكرامة المعنوية .

المساواة مطلقة بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات : والمرأة زميلة الرجل فى الحياة ولكن منطق العقل والدين جعل لها البيت وجعل على الرجل تحمل الأعباء العامة وإدارة شؤون الزراعة والتجارة والصناعة وشؤون وطنه العامة والقيام بأعباء السياسة والإدارة والحرب والأمن ... أما خروج المرأة من البيت، ومطالبتها بحقها فى تولى المناصب السياسية فى الأمة ، فهاتة لا يقبلها عقل ، وإسراف لا تتحمله شريعة ، ومنطق لا يوافق عليه كل ذى عقل سليم .

الإسلام

وتعدد الزوجات

وقف كثير من الباحثين الغربيين حيال تعدد الزوجات فى الشرق موقف الناقم الساخر المتهكم ، وقالوا : لقد ظلم الشرق المرأة ، وهدم الأسرة ، وقوض دعائم الحياة الاجتماعية فيه ، بإباحة تعدد الزوجات ، بما كان سببا فى تأخره وضعفه ووقوفه فى معترك الحياة الإنسانية جامداً أجيالا طوالا ، وكذبوا فيما قالوا .

لقد ذاقت المجتمعات الغربية الآلام التى لانهاية لها من وراء تحديد الزواج بامرأة واحدة فانتشرت الرذائل الاجتماعية بينهم وقل وفاء الرجل لزوجته وإخلاص الزوج لزوجها ، واتخذ الرجل له صديقات واتخذت المرأة لها أصدقاء .

وشقى الرجل بتربية أولاد علم الله أنهم ليسوا بأولاده ، كما شقى بحرمانه من الزوجية الطاهرة السعيدة ، وكان هذا كله مثار أفكار جديدة جهر بها علماء الاجتماع فى أوربا . فنقدوا هذا الحجر الفاسد الذى أفسد الأخلاق ودعوا إلى التحرر من نيره الثقيل .

جاء الإسلام والحياة الزوجية فى فوضى جامحة لاتقيد الناس بعدد محدود من الزوجات . فقد يجمعون بين عشرات الزوجات ويجورون فى معاملتهن ومعاشرتهن فكان بين خطتين : فإما أن يمنع تعدد الزوجات منعا باتا فيفرض الاقتصار على واحدة وإما أن يخفف وطأة هذا العدد الجامح . وينظم تلك الفوضى العائلية باتخاذ طريق وسط فلا يحرم الرجل من التمتع بأكثر من واحدة ويقطع التعنس والعزوبة . . وقد آثر الإسلام الاتجاه الثانى فأباح للمسلم الجمع بين أربع زوجات بشرط أن يعدل بينهن ، وألا يجور فى معاملتهن .

وكان المشركون قد ألفوا الزواج بعشرات النساء ، ورأوه ضرورة من ضرورات الحياة ، فهل يطالبهم بالاقتصار على واحدة ؟ ذلك نشوز على أوضاع الحياة وضرورات الاجتماع ، وفيه الطفرة التى لايؤمن معها من الهلاك . ولو فعل ذلك لأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة ليطفئوا ظمأ الشهوة . وكيف يضع الإسلام قانونا يوقع الناس

فى العنت والإرهاق . وهو دين البشرية الخالد وشريعة السماء الباقية ، وما منهجه فى التشريع الا التدرج الطبيعى فى أمور الدين رفقا بالناس وسعيا بهم إلى الكمال الاجتماعى المنشود .

وحكمة ثانية لهذا التعدد الحكيم هى أن الاسلام يرمى إلى الاكثار من العدد ، وخير سبيل إلى ذلك هو إباحة التعدد ، وقد تكون الزوج عقيما لا تلد فلو ألزم الرجل بواحدة دون سواها انقطع نسله وذهب أثره ، ولو قلنا له طلقها وتزوج سواها لكنا ثائرين على شرعة العدالة والوفاء ، ولأخرجنا المطلقة من حياة الزوجية إلى حياة تعيش فيها كلا على الناس ، ولو لم نقل بالتعدد لدفعنا بها إلى الفناء البطىء ولحببنا الفاحشة والرذائل إلى نفوس المحرومين من التعدد .

على أن عماد الأسرة فى الريف وغير الريف على أبنائها ، فهم الذين يديرون حركة البيت ويقومون بأعباء الأعمال ، وكلما كانت الأسرة أكثر عدداً كانت أقدر على تحمل مآسى الحياة ، وكلما كانت الأمة أكثر عددا تستطيع حماية الوطن والدفاع عنه . . ولهذا نحن فى حاجة إلى أن تستند الأسرة المصرية بالأيدى العاملة الكثيرة ولا سبيل إلى ذلك إلا باباحة تعدد الزوجات لمن يريد ، حتى يشعر الرجل بأن من ورائه أيادى تؤيده وسواعد تعينه على حمل أثقال الحياة وشدائد الدهر وآلام الشيخوخة .

لقد قضت الحرب الماضية على زهرة الشباب فى أوروبا فأصبحت الأمم تواجه أزمة خطيرة من كثرة النساء وقلة عدد الرجال ولا سبيل إلى علاج تلك الأزمة إلا بالرجوع إلى مبادىء الإسلام باباحة تعدد الزوجات لحفظ النظام الاجتماعى وتيسير الحياة على الناس .

المرأة والدين والأمومة

المرأة جمال البيت ، وملاذ الطفولة ، وعماد الرجل ودعامة الأسرة .

وقد رعى الإسلام المرأة وحقها فى الحياة ، وحررها من جور الرجل وجعل لها ماله من حقوق وواجبات .

إن الإسلام يقرر للمرأة :

١ — حريتها الشخصية فى حدود القانون .

٢ — ويبيح لها أن تتعلم وتدرس وتثقف نفسها وتهذب خلقها

٣ — ويساويها بالرجل فى الحقوق والواجبات العامة

٤ — ويعترف بشخصيتها المدنية ، فأباح لها حق التعامل ، وجعل لها نصيبها العادل من الحقوق المالية والواجبات .

٥ — ويبيح لها أن تساهم فى الأعمال الاجتماعية والإنسانية العامة ، كخدمة المرضى ، ومواساة الجرحى ، والتخفيف عن المنكوبين ، والاشتراك فى أعمال البر والترفيه عن الفقراء ، والخروج مع الجيش لخدمة الجرحى والقتلى ولبعث الحمية فى نفوس الجند

٦ — ويقر لها حق الوعظ والإرشاد والفتيا والقضاء ؛ وإن كان يجب أن يعرف أنه يبيح لها ذلك إذا عرض أمرا أو وقعت مشكلة ، لا أنه يخصصهن لذلك وفرق بين من يساهم بقسط فى السياسة العامة لبلده متى ما احتاج الأمر ذلك وبين من يخصص نفسه للعمل السياسى . فالإسلام يعتبر المرأة عضوا فى المجتمع الإنسانى تخدمه بشتى الوسائل ؛ فتعظ الجاهل ، وتفتى المستفتى ، وترشد الضال وتنهى العاصى ولكن على ألا يكون ذلك وظيفتها فى الحياة ، بل تقوم بذلك مع انصرافها إلى منزلها وبيتها ؛ فلم يعين الرسول « ص » ولا الخلفاء بعده امرأة فى القضاء أو الولاية والحباية إلى غير ذلك من الأعمال ؛ وأمر ابنته فاطمة بخدمة البيت وأمر عليا بكسب العيش وقضاء حاجيات أهله . وإن كان قد قال (ص) : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يعنى عائشة رضى الله عنها .

أما الأعمال السياسية التى تنادى المرأة بوجوب اشتراكها فيها مع الرجل ، كحق

الانتخاب ، وأن تكون نائبة ، وعضوا فى مجلس الشيوخ ، ووزيرة ، ومديرة ، وما شابه ذلك كأن يباح لها حق تعيينها قاضية وغير ذلك من الوظائف العامة . كما حدث لنساء أوربا وأمريكا .

فمدار ذلك على نضج المرأة الاجتماعى والعقلى ، وعلى أن يتاح للنساء عندنا حظ من التعليم والثقافة بمقدار ما أتيح لنساء أوربا وأمريكا ، وإن كان الزمن سيحتم أخذ المرأة حقوقها فى وقت ما .

والإسلام يعترف للمرأة بحق اشتراكها فى الشئون العامة ، وبأن تشير وتستشار فيها وإن كان لا يخصصها لهذا العمل ولا يوقف حياة امرأة عليه . لأن ذلك محاربة للأمومة وواجباتها والمرأة التى ردت على عمر رأيه فى تحديد المهور أمرها معروف مشهور .

هبوا أن المرأة اصبحت موظفة تقضى فى عملها الخارجى بعيدا عن المنزل بضع ساعات من النهار ، فماذا يترتب على ذلك من نتائج ؟

يترتب على ذلك أن :

١ ــ تزاحم المرأة الرجل فنخلق مشكلة البطالة بأيدينا .

٢ ــ ولا تستطيع أن تقوم المرأة بالأعمال والواجبات التى يستطيع أن يقوم بأعبائها الرجل .

٣ ــ وتعزف الفتاة الموظفة عن الزواج غالبا كما هو مشاهد فى أوربا وأمريكا ولهذا أثره فى قلة النسل وفى انحدار هذه الفتاة إلى بؤرة الرزيلة والى صداقات الرجال .

٤ ــ ويضيع شباب المرأة العاملة ويذبل جمالها سريعا .

٥ ــ ولا تجد بعد أن تعجز عن العمل بتأثير المرض أو السن من يعولها من زوج أو ولد .

٦ ــ وإذا كانت للمرأة الموظفة أطفال فستعتمد فى تربيتهم على المربيات وبذلك ينشأون نشأة شقية ويفقدون الشعور بعطف الأم ويتعودون فاسد العادات .

وسيقال إن للمرأة فى ميدان العلوم والآداب والاختراع والفنون ميدانا فسيحا فلم لا تكون أستاذة وفيلسوفة الخ ؟

والذين يقولون ذلك ينسون أن المرأة لم تبلغ فى نبوغها مبلغ الرجال . وهل سمعنا بجائزة علمية كانت من نصيب النساء ؟ إن الجوائز ــ وهى من أقيسة النبوغ البشرى ـ تكاد تكون مقصورة على الرجال ، والنساء العالمات اللائى يرتفعن إلى

صف الصفوة المختارة من رجال الفكر نادرات جدا . وسواء أكان السبب فى ذلك يرجع إلى أن عقل المرأة يغلب عليه الخيال والجنوح إلى العاطفة لا إلى التفكير والاستنباط . أم كان السبب أن قواها العقلية يقف نموها بعد العشرين بينما يستمر نمو القوى العقلية فى الرجال ، فما لا شك فيه أن التحصيل العلمى العميق لا نجده عند النساء أو الفتيات ، وفى ذلك يقول أحد المفكرين ، « تحصيل المرأة سطحى دائما ولهذا يجب الاعتماد على الرجال وحدهم » ولم يشتهر من النساء فى العصر الحديث إلا مدام كورى . وتقول مدام دى جيرارد : «وكل الأمور التى تحتاج إلى غريزة وإلهام يتفوق فيها النساء على الرجال ، أما التى تحتاج إلى التدليل والبحث العلمى فيتفوق فيها الرجال عليهن تفوقا هائلا ».

ويقول الفيلسوف الاشتراكى برودون ، « النوع الإنسانى ليس مدينا للنساء بأى اكتشاف صناعى ولا بآلة ، والدور الذى لعبته المرأة فى الآداب لم ينفع إلا حيث لايلزم استعمال القريحة » .

وإذا كانت هناك مدرسات وعالمات ، فإن هناك فرقا بعيدا بين التدريس والنبوغ العلمى . على أن أغلب المدرسات يدرسن للأطفال وللفتيات اللاتى تتفقن معهن فى الطبيعة والعاطفة والخيال .

إننا لو « خلينا المرأة ـ باسم المساواة ـ تتخلى عن عملها فى البيت ، وتدع حرفة الأمومة ، لتنطلق فى ميادين الرجل صانعة أو مهندسة أو موظفة فى المكاتب والشركات لو خليناها تفعل ذلك لأنها إنسانة وآدمية فحسب ؛ لكان مثلنا مثل من يوجه الرجال جميعا نحو ميدان واحد . فليس هناك فرق بين اشتغال النساء بالبيوت والأمومة واشتغال الرجال بالصناعة والتجارة والسياسة ، إلا مثل الذى أجده فى توزيع الأعمال بين العلماء والقضاة والمهندسين والأطباء وسائر طوائف الموظفين والصناع (١).

لقد أثبت البحث أن :

١ ـــ المرأة أضعف من الرجل عقلا وأقل منه صلابة وأوهن قوة . ويكفينا برهانا على ذلك أن نعلم أن :

---

(١) ص٢٨ هلال يوليو ٩٤٧ من مقال للسيدة بنت الشاطىء بعنوان « عدل لاخير فيه ».

١ — متوسط طول المرأة أقل من متوسط طول الرجل بمقدار ١٢ سم

٢ — وزنها أقل من وزن الرجل ٥ كيلو . فوزنها ٤٢٫٥ ك ووزن الرجل ٤٧٫٥ ك

٣ — مجموعها العضلى أقل منه كمالا عند الرجل

٤ — قلبها أخف من قلب الرجل بمقدار ٦٠ جراما فى المتوسط

٥ — جهازها التنفسى يحرق فى الساعة ٦ جرامات من الكربون ، بينما يحرق الرجل ١١ جراما . ولذلك فحرارة المرأة أقل من حرارة الرجل

٦ — وحواس المرأة الخمس أضعف من حواس الرجل ؛ فلا تستطيع إدراك رائحة عطر الليمون على بعد محدود إلا إذا كان العطر ضعف المقدار الذى يدركه الرجل أى أن حاسة الشم عند المرأة نصف حاسة الرجل ، وتحتمل المرأة الألم أكثر من الرجل مما يدل على قلة إحساسها به ، ولهذا فائدة عظمى فى حفظ النوع الإنسانى فان المرأة هدف للحمل والرضاع والولادة ، فلو لم تكن أقل إحساسا لما استطاعت تحمل تلك المشاق .

٧ — ولاشك أن تعرض المرأة للحيض وفقدها بسببه جزءا كبيرا من دمها ، ثم تعرضها للحمل والولادة والرضاع يوهن كثيرا من قوتها ، فوق ضعفها الطبيعى

ب — ولا تختلف المرأة عن الرجل باختلاف شكل أعضاء التناسل فقط ، بل إن كل الأعضاء الأخرى التى تظهر أكثر تشابها فى الرجل والمرأة تتباين فى الحقيقة تباينا خاصا إلى نوع ما . وهذا الاختلاف الطبيعى هو اختلاف بيولوجى حيوى بين الرجل والمرأة . إذ لاشك ان أعضاء المرأة قد خلقتها لتكون زوجة وأما ومرضعا ، وأعضاء الرجل قد جعلته زوجا وأبا وعائلا

جـ — ولم يقف الاختلاف بين الرجل والمرأة عند تركيبهما الجسمانى فحسب ، بل شمل قواهما العقلية أيضا :

١ — فمخ المرأة أقل من مخ الرجل بمقدار ١٠٠ جرام فى المتوسط

٢ — ونسبة مخ المرأة الى جسمها ١ على ٤٤ ، بينما تبلغ نسبة مخ الرجل إلى جسمه ١ على ٤٠

٣ — ومخ المرأة أقل ثنيات ، وتلافيفه أقل نظاما من مخ الرجل ، ولذلك فهى أقل ذكاء .

٤ ــ ومركز الاحساس عند المرأة أحسن تركيبا منه عند الرجل وهذا مطابق لمميزات الجنسين ، فان المرأة أكثر انفعالا والرجل أكثر ذكاء .

٥ ــ وليس النقص فى قوى المرأة الجسمية والعقلية امتهانا لكرامتها أو وضعا لها فى مكانة أقل من مكانة الرجل ، بل لأن وظيفتها التى خلقت لتؤديها لا تقتضى أكثر مما منحته من القوى .

إن الله عز وجل خلق الجنسين ليتعاونا فى هذه الحياة لا ليتنافسا ، فوهب كلا منهما مميزات توجهه فى خدمة المجتمع وجهة خاصة ؛ وهب الرجل القوة والعقل والحزم فكان العامل والصانع والزارع والجندى والقائد ، ووهب المرأة الخيال والعاطفة ورقة الإحساس وجعلها أضعف بنية وأقل حزما وتفكيرا وأسرع نسيانا تعتمد على الذاكرة والتقليد لا على الاستنباط والتفكير فوجب أن تكون زوجة وأما لا وزيرة أو موظفة أو عاملة .

إن مقتضى التكوين الطبيعى اختصاص المرأة بالحمل والرضاع وحضانة الأطفال وتربيتهم وتدبير المنزل ، فكيف تحمل مع هذه الواجبات الثقيلة واجبا آخر هو كسب العيش والكدح فى الأرض فتقتلونها من حيث تريدون لها الحياة .

يقول أحد شعراء الفرس : « ان الله عند ما أراد أن يخلق المرأة جمع رقة النسيم وأريج الزهر ونور الشمس وابتسامة الربيع فخلق منها المرأة »

ويقول لوثر : ليس على الأرض أكثر رأفة من قلب المرأة ومكنا للعطف » ويقول نابليون . « الرجل نثر الخالق والمرأة شعره »

إن نفسية المرأة تتأثر بعاملين :

الأول : تركيبها الجثمانى (الفزيولوجى)

والثانى وظائفها الطبيعية (الفزيولوجية)

فيدفعها تركيبها والغريزة الجنسية التى فطرت عليها ؛ كما تدفعها وظيفتها الطبيعية لأن تكون زوجا وأما متى ما نضجت أنوثتها وتم نموها . . وفى ميدان الزوجية يتحتم على المرأة أن :

١ ــ تسهر على تدبير المنزل والعناية به

٢ ــ وتشارك الرجل فى أفراحه وأحزانه

٣ـــ وأن تربى أطفالها إذا ماأصبحت أما لأطفال .

فهل تترك المرأة هذه الواجبات اعتماداً على الخادمات والمربيات ، وهب أنها قضت فى العمل بعض اليوم ثم عادت الى البيت لتقوم بواجباتها نحوه ، فهل تعتقد أن ذلك يخلق سعادة زوجية ؟ لا ، فالمرأة التى تعتقد أنها فى غنى عن كفالة الرجل قلما تبذل جهداً فى جعل الحياة الزوجية سعيدة ، ولأقل سبب تفصم عروتها المقدسة ، وما رأى هؤلاء إذا نقلت المرأة الموظفة إلى مكان بعيد ؟

والمرأة لا تستطيع أن تناهض الرجل أو تنتصر عليه فى ميدان السياسة ، فهو أطول منها فى ذلك باعا ، وأكثر مقدرة ، وأوسع حيلة ودهاء .

وأمامنا الملكات اللاتى تولين العروش ، فلم يظهرن عبقرية ، ولم يستغنين عن الرجال وكليوباترة وشجرة الدر وكاترينا وفيكتوريا تاريخهن مشهور معروف .

وسيقولون إن أزمة الزواج المنتشرة توجب اشتغال الفتاة بالأعمال حتى تضمن رزقها ومعيشتها ، ما دامت لا تجد الزوج الذى يقوم بذلك .

وهذا اعتراض غير مستقيم ، فأزمة الزواج علاجها معروف ، وقد يكون من أهم أسبابها عدم محافظة الفتاة على شرفها مما أثار الشكوك حولها ، فلو اهتم المصلحون بعلاج هذه الأزمة وبتحصين أخلاق الفتاة والفتى . لاستقامت الأمور وصحت الأحوال .

والرجل إذا كان قد قام ببعض أعمال المرأة ، فلم يقم إلا بالعسير المرهق منها للمرأة نفسها ، كالخبز والطهى والتطريز والحياكة وتربية الأطفال ، وذلك لخدمة المرأة ومساعدتها على النهوض بواجباتها المنزلية ، وتهيئة الوقت الكافى لها لتثقف نفسها وترقى بحالتها العقلية والخلقية والأدبية ، ولم نسمع أن امرأة شكت من قيام بعض الرجال بهذه الأعمال .

منطق الحيـاة :

« إن الطبيعة ـ التى جعلت فى كيان الأنثى مكان الولد وفى ثديها النبع الإلهى لغذائه ، وفى حقها الصبر على تكاليف تربيته وحضانته ، وجعلت فى الرجل خشونة المقاتل وقوة المكافح وجلد الصياد ، كما تقول السيدة بنت الشاطىء ـ هى التى فرقت بين الرجل والمرأة ولم تجعل المساواة بينهما سبيلا .

« والمرأة بأنوثتها قد كانت منذ الأزل الحبيبة الشائقة والملهمة الفاتنة والسيدة

الحاكمة ، تعنو لها جباه الملوك وترنو إليها أبصار الفرسان ، ويحوم حولها رجال الفن وعشاق الجمال ، ويتخذها الرجل فى بيته حرما مصونا ، لا يمسه غبار ، ولا تجرحه الأعين ، ولا تناله الأيدى ، ولا تتطاول إليه الأعناق كما تقول بنت الشاطىء. فقارنوا بين حالتها هذه فى القديم وحالتها الحاضرة الآن ، حيث امتهنت كرامتها ، وأصبحت شيئا رخيصا مبتذلا ، وضاعت مكانتها الأدبية ، وفقدت كثيرا مما أكسبتها إياه قوانين الطبيعة الحكيمة الملهمة .

إن القانون الطبيعى الذى يخصص الجنس اللطيف للحياة المنزلية . لم يتغير ، كما يقول أوجست كونت الفيلسوف . «إن المرأة الحديثة تهدم مملكتها حين تحاول القبض على زمامنا كما يقول كانابليس ، والله عز وجل عند ما أراد أن يخلق حواء من آدم لم يخلقها من عظم رجله لئلا يطأها ولم يخلقها من عظم رأسه لئلا يسودها ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه لتكون مساوية له وقريبة من قلبه ، كما يقول الأوروبيون ، ولا يزال بعض علماء الغرب وفلاسفته وبعض حكوماته يرى أن تعيش المرأة فى بيتها بعيدة عن الأعمال العامة ، وتهكم شوبنهور عدو المرأة بدعاة مساواتها بالرجل فيقول « اتركوا للمرأة حريتها ولا تجعلوا عليها رقيبا ، ثم قابلونى بعد سنة وأخبرونى بالنتيجة » .

إن المرأة حين تخرج من بيتها باحثة عن حريتها تقيد نفسها وحريتها بأوثق السلاسل والأغلال .

وإذا كان بعض فتياتنا يعملن الآن فى الأعمال العامة ، فإنهن ولا شك يجتهدن أن يوفقن بين ذلك وبين الحياة الزوجية . ومن الواجب على حكوماتهن أن تساعدهن على ذلك ، وأن تضمن لهن السعادة فى الحياة .

يجب أن تبقى الموظفات فى الوظائف العامة التى لا تستغنى الدولة عن نشاطهن فيها ، كالتدريس فى مدارس البنات وكالتمريض والتطبيب وسواها على أن لا تحول بينهن وبين الحياة الزوجية . أما الوظائف التى يمكن أن يعمل فيها الرجال فيجب أن ترد المرأة منها إلى البيت وتصرف لها مكافأة كبيرة نظير رجوعها الى حياة المنزل فى ظلال الزوجية .

وعلى الفتيات والنساء أن يحافظن فى كل مكان على شرفهن ومكانتهن الأدبية . عليهن أن يتجنبن التبذل والإمعان فى اللهو والانصراف إلى الفساد ، وعلينا حفظ كرامتهن ؛ وأن نتيح لهن مقدارا كبيرا من الثقافة ، ثم نتيح لهن زواجا سعيدا وحياة زوجية كريمة ، بمحاربتنا لأزمة الزواج وبضربنا على أيدى المستهترين واللاهين والعابثين ، وبغير ذلك من الوسائل .



ميلاد!

الحضارة الإسلامية

بدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الاسلام بقليل ، وذلك حينما استقر الرسول وصحبه فى المدينة ، وأخذ الاستقرار الروحى والأدبى والفكرى والاجتماعى ينتشر فى جزيرة العرب ، وانتفع أهلها بتوجيهم - بفضل الإسلام - إلى الحق والخير .

ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل ، فتمهدوا هذا الغرس حتى نما وازدهر وأثمر . وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية فى العالم الإسلامى ، وهذا هو التاريخ شاهد صدق على مدى ما بلغته دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية .

ولقد تألقت أضواء الحضارة الإسلامية فى شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس وباختلاط الأوربيين والشرقيين فى الحروب الصليبية وسواها .

وصحيح أن الحضارة الإسلامية اقتبست ونقلت عن حضارات الهند والصين وإيران والأشوريين والبابليين والفينيقيين والإغريق والرومان وسواها ، ولكنها بجانب ذلك جددت وابتكرت ، فكان الشرق بحق أستاذا وإماما إبان العصور السالفة ، مما شهد به الفلاسفة والمفكرون فى الغرب ، وسجله التاريخ فى فخر وتقدير .

وإذا كان لكل حضارة مبادىء وأهداف ، تقوم عليها ولأجلها ، فان الحضارة الإسلامية تقوم على مبادىء خالدة ، لم يصل إليها العقل البشرى من قبل ، ولم يستطع العالم فى القرن العشرين أن يجاريها أو يتخذ مما يماثلها دستورا له فى الحياة . وهى مبادىء الإسلام ، وقبس من نور الله ، وتراث من حكمته ، والانسان خليفة استخلفه على الأرض ، وعليه لذلك أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لاشريك له ، يعبده ويطيعه ويعمل بشرائعه ، ويوقن أنه معه فى كل مكان وحين ، يعلم السر وما هو أخفى ؛ « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ولاشك فى أن ذلك يكسب الإنسان صفاء فى العقيدة ، ونورا فى الصدر ،

وطهرا فى القلب ، واعتزازا بالنفس والعمل الكريم ، ورضاء بأحكام الله وقضائه « له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه بكل شىء عليم »

وينظر الإسلام إلى المجتمع ـ بجميع عناصره وطبقاته ـ على أنه أسرة واحدة متعاونة تعاونا وثيقا فى الحياة ، يعطف الغنى على الفقير ، ويحنو الكبير على الصغير ويدفع كل بالتى هى أحسن ، وهل أبلغ فى التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة الكاملة من قول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » ، وقول الرسول الكريم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »

والراعى يقيم العدل ويزن بالقسطاس ، ويسوى بين الناس ، ويستشير فى أحكامه أولى العقل والتفكير ، وينشر الأمن والسلام بين الرعية ، لا يقر له قرار حتى يأخذ كل ذى حق حقه ، ويقضى لكل ذى حاجة حاجته . ويرد عن كل مظلوم ما لحقه من ظلم وطغيان .

والعالم كله بشعوبه وعناصره وأديانه مجتمع واحد ، يكفل له الإسلام الأمن والسلام ، فى ظلال التعاون والمحبة والإخاء والتبادل الفكرى والعقلى والروحى والمادى ، ويجب أن يعيش الناس أمة واحدة كما خلقهم الله ، « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذا فوق ما كفله الإسلام من شتى عناصر التقدم والحضارة الأدبية والروحية والمادية ، اللازمة لتقدم الجماعات . ورقى الأمم والشعوب ، مما قضى على الهمجية والوحشية فى عصور لم تعرف النور ولا الحضارة من قبل .

والأهداف الأولى لهذه المبادىء كلها فى نظر الإسلام ، هى نشر أفكار الحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء والشورى والتعاون والخير والمحبة والرحمة والسلام . ليعيش الناس جميعا فى ظلال وحدة مجتمعة فى الأفكار والأهداف والمبادىء والغايات ، ظلال عالم موحد تسوده الطمأنينة والأمن والسلام ، وفى حضارة مشتركة غايتها الإخاء بين الروح والمادة والعقل والجسم والواجب والحق والإيثار والأثرة .

فما أعز الإسلام ، وشريعة نبي السلام ، وما أروعها مبادىء يجب أن يفهمها ويعمل بها كل إنسان .

إن حضارة الغرب بألوانها المادية الظالمة ، وروح الاستعمار الجشع الظالم الذى يسودها ويتفشى فيها ، وبنزعاتها فى حب السيطرة والقوة والسيادة ،لا يمكن أن تكون حضارة إنسانية يسعد العالم بأن يعيش فى ظلالها ، وينال الأمن والسلام تحت لوائها .

وإن الذين ينزعون إلى الإيمان بالغرب وحضارته لجد مخطئين .

أهداف الإسلام

لا تجد دينا يدعو إلى الأهداف الكريمة ، والغايات السامية ، والأغراض الشريفة ، والمثل العليا ؛ مثل دين الإسلام وشريعة محمد خاتم الرسل عليه السلام ، ولا عجب فالإسلام دين البشرية الخالد ، وخلاصة المثل الإنسانية العالية ، وعقيدة الفكر الحر ، التى ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع أصول الحضارات والمذاهب الحقة ، وتجتمع مع شتى تيارات التفكير الحديث المنزه عن الهوى .

ولقد جاء الاسلام والعالم يعيش فى ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة وعقائد محرفة مضللة . فبدل ظلام الحياة نوراً ، والجهل ثقافة وعلما وعرفانا ، ومحا تلك النظم البالية ، والتقاليد الباطلة الزائفة ؛ وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية هى أسمى ما عرف فى الأديان والمذاهب من مقومات وعناصر .

دعا إلى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتسير بالانسان إلى حياة مهذبة كريمة ، توفق بين المـــادة والروح ، والدين والدنيا ، والأولى والآخرة .

وجه الإسلام الناس جميعا إلى عبادة إله واحد لاشريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعا فى قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر .. كما دعا الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خير الدنيا والآخرة ، ويرشد إلى أمثل ما فى الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحدة ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم . وعلى رسالة واحدة ، هى رسالة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ، وهى الرسالة التى تتفق مع دعوات الأنبياء ، وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . فلم لا يكون الإسلام بذلك كله مثلا أعلى فى العقيدة و لإيمان

وسن الإسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة ، وتقدم المجتمع والأمة والإنسانية ، على نحو يرضاه العقل ؟ ويطمئن إليه القلب والوجدان . فلم لا يكون بذلك الداعى إلى المثل الأعلى فى النظام والتشريع

وحارب الإسلام العصبيات وأفكار الجاهلية الأولى ، التي تفضل جنساً على جنس أو جماعة على جماعة ، أو فرداً على فرد . يقول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » ويقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » حاربها الإسلام لأنها تنادي بالتنابز والبغضاء ، وتفرق بين الناس وقد جمعهم أصل واحد : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

محا الإسلام ما كان بين الطبقات من تلك الفوارق الاجتماعية الواسعة ، التي كثيراً ما تستند إلى الحسب أو الجاه أو المال ، وجعل الفقير أخاً للغني ، والغني أخاً للفقير ودعا الأغنياء إلى البذل والجود والإحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال في كل حق وخير ومعروف . كما دعا الفقراء إلى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضاء بما قسم الله ، « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . وقرر أن المال في أيدي الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم فيه ، « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وما ينفقونه على الفقراء من مال إنما هو قرض لهم عند الله يجزيهم عليه خيراً وثواباً كبيراً ، « وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله غفور حليم » . فكيف لا يكون الإسلام بذلك كله ديناً عاماً هو المثل الأعلى في الاجتماع والروح الإنساني الكريم .

والأصول الأولى في الإسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى ، وإلى الأخوة العامة ، والزمالة البشرية ، والحضارة والرقي والثقافة ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، والى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الإنسانية في الفرد والجماعة والأمة . كما تدعو إلى السلام ، وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق ، وفي سبيل خدمة المثل العليا التي يدعو إليها الإسلام وهي فوق ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها ، « وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » وحسبك أنها تقوم على رعاية شئون الدنيا وأمور الآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . إلى غير ذلك من الأهداف

والمثل التى يجمعها ويدعو إليها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد فقد حرر الإسلام الانسان من الوهم والتقاليد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد . وحرر المرأة من استبداد الرجل : فجعل لها حقها فى الحياة وسواها به فى الحقوق والواجبات المشروعة ، واعترف بأهليتها للتصرف والملك وتدبير شؤون المنزل والأسرة ، والمساهمة فى أعمال الخير والبر والطاعات ، وفى شتى النواحى الاجتماعية التى لاغنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها . وحرر الطبقات من طغيان العصبيات والثروة والحسب . وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان والمتزعمين ، وحرر الأمم ، فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والايثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة والشعور الصحيح بالمسئوليات ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التى تضعف الروح ، وتهدم البنيان ، وتفسد نزعات الخير ، وتقف بالجماعة عن السير والنضال فى الحياة . . وحرر الإنسانية عامة من ربقة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والاثرة ، ومن جموح الشهوات ، وتقديس الماديات ، والجنوح إلى الشر والفساد فى الأرض ، ومن التقليد الضار ، والايمان بما كان يؤمن به الآباء والأجداد دون تحكيم للعقل ، أووزن الامور بميزان التفكير السليم . . ورفع مع ذلك كله الإنسان ومكانته فى الحياة ، فجعله خليفة الله فى الأرض ، ودعاه إلى أن يسير إلى أمثل مافى الحياة من حق وخير وسمو ، وإلى أن يعمل على تقدم الحياة والإنسانية بأوسع معانيها .

ولقد أتت الروحية الإسلامية الأولى بالمعجزات ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الأدب والعلم والفن ، وفى التفكير والتنظيم ، وفى شتى نواحى الحياة والحضارة ومن أولى بذلك من الاسلام ؛ دين الله ، وشريعة رسوله محمد صلوات الله عليه ودستوره القرآن ، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ، وأساسه الفضيلة والإيثار والخير وروح الجماعة والإنسانية العالية ، والتجرد من الأوهام والرذائل والمادية القاتلة ، ومن كل ما هو منكر وقبيح وباطل . فما أروع الاسلام ، وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادىء المثلى ، وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها !.

اشتراكية عادلة

يقول الرسول الأكرم : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له .

ويقول : ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم ، ويقول : من كان عنده طعام اثنين فيذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع وبخامس .

وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، أي بين الفقراء والأغنياء ، بين المشردين عن أوطانهم وأموالهم والمقيمين فى وطنهم ومالهم وأهليهم .

وكان يقول يامعشر المهاجرين والأنصار : إن بين اخوانكم من ليس له مال فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة .

وعن جابر بن عبدالله قال : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه .

وقد شرع الإسلام نظام الوقف لتكون الأرض أو العقار ملكا للمجموع وتصرف فى مصارف الخير والإحسان .. وفوق ذلك فقد حرم الاحتكار ، احتكار الأقوات العامة ، ومايشبهها من موارد الثروات العامة .

كما حرم الربا ، حرمه لأنه مظهر الأثرة والأنانية وحب الذات فالفقير الذى يقترض منك جنيها لا يصح أن تأخذه منه جنيها وربعا أوثلثا أو نصفا وإلا كانت نفسك جشعة لا تعرف معنى الدين والايثار والانسانية .

وأوجب الزكاة ، وحارب أبو بكر العرب حين منعوها وجعلهم مرتدين .

وفرض الصدقات والإحسان ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن الطمع فيما فى أيدى الناس .

وطالب بإعطاء الناس حقوقهم ، وإعطاء الأجير أجره ، وبإيداع الأغنياء

أموالهم فى أيدى الفقراء ليعملوا بها على أى لون من ألوان العمل والتصرف ، شركة أو مضاربة أو مزارعة أو مساقاة .

وشرع نظام القرض والوديعة والاعارة والوصية والهبة .. وفرض فرائض الميراث .

أو ليس كل ذلك كله خطوة حاسمة لتقريب ما بين الطبقات ولمحاربة الفقر وعلاجه علاجا حاسما . ولخلق جو من المودة والتفاهم بين الفقراء والأغنياء ، ولنشر روح من السماحة والاخاء والتعاون ؟

هذا وغيره من مبادىء الاسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجل معانيها وأروع أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها .

اشتراكية تحارب الرأسمالية الجشعة المتنمرة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة المتذئبة ، وتحارب الماركسية المتطرفة الحمقاء ، وتحارب الفوضى فى المجتمع ، وتقتل بذور الشقاق والخلاف والعداوة بين الناس والطبقات .

اشتراكية هى العدل والتعاطف والمحبة ، وهى الايثار والتضحية ، وهى تقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وهى الألم لشقاء الناس والبذل لما فى اليد ومساعدة كل ذى محتاج .

اشتراكية لاتدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى كربة كربة . . من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » اشتراكية مبدؤها : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . فأين هذا من قول برنارد شو فيلسوف العصر : « لا تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، ووصيتها : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فأين من هذا قول برنارد شو : « لا تحب جارك كما تحب نفسك ، فانك إن كنت سعيدا بنفسك فان ذلك قحة ، وإن كنت على العكس فان ذلك ضرر .

اشتراكية ما أجل معناها . وأدق مغزاها ، وأعظم أهدافها وغاياتها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وحجز عمر على قريش أن يهاجروا إلى الأراضى المفتوحة حرصا على امتلاكها حتى لا يضيقوا على عباد الله

فقال : ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، والايثار وحض القرآن الكريم عليه معروف : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، وقد جعل الله تعالى الفىء لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لئلا يستأثر به الأغنياء وحدهم فقال : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ».

كل هذا من مظاهر اشتراكية الاسلام العادلة ، وشريعته السمحة البرة الرحيمة بالناس والفقراء والمجتمع ، ويقول الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من كلمة له : إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علم المسلم أن لا يذل إلا الله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تأله كاذب للادعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الانسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ، ولقد كان صاحب الرسالة أكبر معلم لحرية الفكر يوم نادى فى عاصمة الوثنية بتوحيد الله ويوم صبر على الأذى فى سبيله ، وتحمل العنت لإبلاغ الرسالة ، وإزاحة العوائق من طريقها ، وهل كانت هجرته إلا تقريراً لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التى صحبت دعوته إلا دفاعا عن حق من حقوق الانسانية العالمية ؟ هو حق كل امرىء أن يعتنق ما يطمئن اليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » ، والفتنة استخدام القوة فى مصادرة الآراء الصحيحة واضطهاد المبادىء السليمة ، وكما أقام الاسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشريعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ويصل إلى حقه فى ظلها القوى والضعيف ، ولقد شرحت فى موقف سابق ، كيف كان عامة الناس يقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجالس القضاء . ولا يترددون فى تنفيذ ما يلزمون به من حقوق .

العدالة فى القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين

مهما بعدت ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » . « الذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » . فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن ، وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين. وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعا فى ساحة القضاء ، فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة . ولو كان فى ذلك خذلان المسلم الحاكم وانتصار الكتابى الضعيف . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله فى الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ولا لون أكرم من لون .

وفى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : صهيب الرومى . وبلال الحبشى . وسلمان الفارسى ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » .

نعم علم الإسلام أبناءه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على السواء ، وأن السوقة والعظماء أمام تعاليم الدين ، وموازين الحساب ، وفى ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحدا إلا بالتقوى والخلق الكريم .

ومن أروع ما حفل به القرآن ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيدا للتضامن الاجتماعى الذى يشد بناء الأمة شدا محكما ، فلا تساقط منه لبنة أو تحدث فيه ثغرة .

فالغنى فى نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال محاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، وهناك حقوق لا تقل فى خطرها عن الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن فى المال حقا سوى الزكاة وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبينا حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان ، فقال « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » ، وأردف هذا بقوله : « وأقام الصلاة . وآتى الزكاة » . فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين ، حق على من صادفهم فى أزمتهم ولو كان قد أدى زكاة ماله ؛ وهذا من أنواع الماعون ، الذى جعل الله الويل لمانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » . وقد بين رسول الله صلوات

الله عليه أن إكرام الضيف المنقطع عن أهله وماله ، حق له على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل فى المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرهفة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك مالا نظير له فى شرائع البشر . وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق فى الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء « إن الأشعريين إذا أملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم منى وأنا منهم » . حدثونى إذا بعد هذا الذى سمعتم ، ما هى الاشتراكية الحديثة التى ضمنت للناس ما ضمن الاسلام من سماحة . . وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التى قيدت بها الملكية ليست فى نظر الإسلام هينة ، ولكنها نظام مفروض يقاتل دونه الاسلام وعصمة الدماء والأموال مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قررها عليه صلوات الله .

آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . . من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم .

الإسلام

يوجه العقل البشرى

دعا الإسلام العقل البشرى إلى حب المعرفة ، وغذى ضمير الإنسان بحب الخير والرحمة والبر والسعادة والرفاهية لبنى الإنسان جميعا ، ووجهه إلى مافيه تقدم الإنسانية جمعاء.

دعا الإسلام إلى العلم ، لأنه منذ أقدم عصور التاريخ ولايزال رافع منار المدنية ومشيد مجد الشعوب ، وغذاء العقول والأرواح ، والدواء الناجع لأمراض النفوس والجماعات ، إن حرصت على استخدامه فى سبل الخير ولتأييد نواميس الله فى الكون والحياة . . وهو الداء المبيد ، والسم القاتل ، إن استخدم أداة للفتك والدمار .

لاعجب فالعلم كاشف أسرار الحياة ، ومغاليق الكون ، وأسباب الثروة ، وبه تسعد الإنسانية ، ويبسم الأمل للناس . . وما هذه المبتكرات فى الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والفنون إلا ثمرة من ثمار العلم . . الذى قد يصبح وبالا على الإنسانية والشعوب ، حين يكون وسيلة لاختراع المفرقعات والمدافع ، وما إليهما يعم شره وهلاكه ولا يخص أحدا من الناس . ومهما كان فإن العلم اليوم - فوق استخدامه وسيلة لكسب الحرب وإشاعة التدمير والهلاك - يوفر الأدوات فى شتى مرافق الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وهى تقوم مقام عدد كبير من العمال . . وبذلك يتسبب فى خلق مشكلة البطالة ، وحرمان كثير من العمال من الرزق .

والعلم على أى حال محمود لايذم ، محبوب لايكره ، لأنه خير فى ذاته ، وآثاره الخيرة الجميلة لاتعد ولا تحصى ، ولن يغض من شأنه ما يقوم به العلماء من ابتكار آلات الشر والتدمير والإهلاك .

وإن الإسلام ليقف حارسا للعقل البشرى ، يوجهه ويهديه ، يوجهه إلى الخير ، ويبعده عن الشر ، ويدفعه إلى أن يفكر فى كل مايعود على الإنسان والإنسانية بالسعادة والرفاهية ، ويحول بينه وبين أن يكون أداة اشقاء بنى الإنسان . إن النور

يضى.، فإذا انقلب نارا أحرق ودمر ، وإن العقل يبتكر ويفكر ، فإذا اندفع إلى التفكير فى الشر أهلك وأفسد ، وإن الله هو صانع الحياة ولا يحب أن يدمرها إنسان .

ولقد كان المسلمون فى جميع العصور يخضعون العقل للضمير ، ويوجهون العلم للخير ، ولنفع بنى الإنسان ، ولخدمة الجماهير ، ولإسعاد البشر .. وكانت حروبهم لا تعتمد على السلاح الفاتك ، ولكن على الإيمان العميق .. وبذلك لم يسعوا يوما فى التدمير والفساد فى الأرض ، بوازع من دينهم الكريم .

الإسلام

والمذاهب السياسية الحديثة

الإسلام دين اشتراكى عادل ، وهو أرفع من الاشتراكية الحديثة فى مبادئه ونظمه وسلامة الاقتصاد فيه ، وما أصدق ما يقول شوقى فى الرسول الكريم :

الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء

ولكن الإسلام يخالف الشيوعية ، وهو معها على طرفى نقيض ، يخالفها فى مبادئها ونزعاتها وأهدافها كل الخلاف .

الشيوعية مبدأ اقتصادى ينزع إلى السيطرة على الشعوب ، والإسلام يكره السيطرة ويدعو إلى أخوة الأمم .

وهى فوق ذلك تخالف سنة الفطرة والاجتماع فى مبادئها وغاياتها ، وذلك ما يأباه الإسلام ولا يحبه .

وهى تثير النزاع بين الناس والطبقات ، وتحرض الفقير على الغنى ، بل هى لصوصية مقنعة غريبة على العقل والمنطق والتفكير السليم .

والشيوعية الحديثة ترتكز على دعامتين :

الأولى : هى محاربة الأديان ومن بينها الإسلام حربا لا هوادة فيها : لأن الأديان عامة تنكر مبادىء الشيوعيين ، ولأن الشيوعية تدعو إلى الإلحاد وعدم الإيمان بدين من الأديان ، وإلى فصل الدين عن الدولة ، وإلى غرس أصول الأخلاق الشيوعية فى نفوس الشبان لتصبح هذه الأصول وحدها دون ما سواها هى دين الفرد ، وليقضوا بهذه الأصول على تراث الإنسان الروحى والفكرى وعلى فطرته التى فطر عليها من حب التدين والإيمان بدين سماوى شرعه الله لعباده بل إن المادة الرابعة والعشرين بعد المائة من دستور ستالين تنص على « حرية الدعوة اللادينية » ، وقانون عام ١٩٢٩ الذى أصدرته حكومة روسيا يفرض قيودا حاسمة على الهيئات الدينية ويعتبرها عملا غير مشروع . وقوانين عام ١٩٣٩ تنص على : ـ

١ — ضرورة تسجيل الجمعيات والمنظمات الدينية .

٢ — منع الهيآت الدينية من تشكيل انفسها فى جماعات تعاونية أو جماعية .

٣ — حظر الاجتماعات الدينية الخاصة ، واجتماعات المصلين ، واجتماعات الشباب والنساء والاطفال .

٤ — عدم السماح للهيئات الدينية بالاحتفاظ عندها بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم فى المراسيم الدينية .

٥ — حظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية .

ولم تغب نوايا الشيوعيين عن بال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية عند قيام الثورة الشيوعية ، فلقد دعا رئيسها البطريرك « تيخون » فى رسالة له بتاريخ ١٩ يناير ١٩١٨ « أبناء الكنيسة الى عدم الاشتراك بأى شكل من الأشكال مع هؤلاء المجرمين - يريد بهم الشيوعيين - أعداء الجنس الإنسانى » .

وقد اضطهدت روسيا المسلمين فى تركستان وبخارى وسمرقند وفى كل مكان اضطهادا شديدا ، ونفت الكثير منهم إلى سيبريا .

صحيح أن روسيا أعادت حرية المتدينين الدينية اليوم خلال الحرب الأخيرة وبعدها ، ولكن ذلك إنما كان ذرا للرماد ، وقضاء على دعايات الأمم الغربية ضدها وخوفا من أن يؤلب البابا القوى عليها ؛ وهى وإن أذنت المسيحية فى بلادها بالعودة إلى الظهور ، فإن الإسلام لا يزال غريبا فى بلادها المترامية الأطراف .

ولا شك أن الاسلام يقف سدا منيعاً أمام ذلك التيار الهدام المخرب الذى يريد أن يحطم كل شىء أمامه ؛ وأن يعصف بتراث الانسانية الروحى ، وبالمبادىء السامية التى قامت ونمت وازدهرت فى ظلال روح التدين وفكرة الايمان العميقة فى الانسان .

والدعامة الثانية التى تقوم عليها الشيوعية : هى محاربة الملكية الفردية ، والقضاء على حرية الانسان فى التملك ؛ مما يستدعى إشاعة الاضطراب الاجتماعى ، وقيام الحروب والخصومات بين الطبقات والطوائف ، والقضاء على الأمن الداخلى للأمة

وكل هذه أمور يحرمها الاسلام ، ويحاربها بكل ما يستطيع ، والمسلمون كانة يؤمنون بمبادىء الإسلام السمحة الكريمة ، التى من أخصها حرية الإنسان فى التملك ، والتى لا تمنع أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض إخوة متحابين .

يقول الله تعالى فى سورة سبأ : « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له » . ويقول عز وجل فى سورة الروم : « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ، ويقول فى سورة الاسراء : « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا » ، ويكرر ذلك فى سور كثيرة ، مما يجعل المسلم يؤمن إيمانا جازما بأن ذلك أصل من أصول الاسلام

ولا شك أن فى إطلاق حرية الملكية أمام الانسان تحريراً له من قيود الوصاية الاجتماعية واعترافا بشخصيته وكرامته الانسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ليستغلها فى الحياة لكسب الرزق والمال من طرقهما الشريفة المشروعة وتمشيا مع نظام الحياة نفسها ، وسموا بالحياة البشرية الخاصة والعامة . وقد دعا الأغنياء إلى البذل والصدقة والإحسان ، وأداء الزكاة للفقير المحروم ، وجعلها من أركان الدين ، وذلك نظام سليم يسير مع المنطق والفطرة والحياة وحرية الإنسان ، ويحقق العدالة الاجتماعية بأسمى معانيها .

إن مبادىء الإسلام والقرآن تغنى عن كل مبدأ ، وترتفع بالانسان ، والانسانية أكثر مما ترتفع بهما الشيوعية والشيوعيون إلى حد بعيد .

وما أصدق شاعرنا المعاصر الذى يقول :

قل للشيوعيين أو أمثالهم	رفقا بهذا الشرق فى مأساته
فوضى المذاهب فى بنيه تضارب	لا يستقيم به نظام حياته
عودوا إلى القرآن أعدل مذهبا	وخذوا الحقيقة من لسان دعاته
فأقل ما يدعو اليه سعادة	للعالم الملتاع من ويلاته
فضل الزكاة كفاية لفقيره	لو يسمع المثرى نداء زكاته

الإسلام

والنظم الاقتصادية الجائرة

الجشع الاقتصادى بكل مظاهره شىء لايعرفه الإسلام ، ونظام الربا الذى أصبح متغلغلا فى جميع فروع حياتنا نظام فاسد لايليق بالانسانية فى القرن العشرين ، وجدير بالأمم أن تفكر فيه من جديد ، وأن تخطو خطوة حاسمة لانقـــاذ العالم من ويلاته .

والشركات التى تقوم على نظام الربا ، لابتزاز أموال الشعب ، شركات لايقرها الاسلام الكريم .

إن روح الجماعة ، وتيسير سبل الحياة لكل إنسان ، لهما الينبوع الذى تخرج منه كل الأفكار الاقتصادية السليمة فى الاسلام .

وأساس النظرية الاقتصادية فى الاسلام : اعط المال لغيرك ليهيىء لنفسه الفرص الطيبة فى الحياة ثم استرده منه .

وعلى هذا الأساس كانت شتى المعاملات الاسلامية الكريمة ، وما أجل ما يقول الله تعالى : وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .



والزكاة

فى السنة الثانية من الهجرة فرضت شريعة الزكاة ، وهى جزء قليل يخرجه الغنى من ماله الكثير ، فيجبر به قلوبا كسيرة ، ويسد حاجة من ضعف عن القيام بحاجة نفسه ، ويرفه عن الفقراء والمحرومين ، ومقدار نسبتها فى الغالب لايزيد عن اثنين ونصف فى المائة .

وما أجل قول الله تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وقوله فى وصف المؤمنين : « والذين هم للزكاة فاعلون » وقوله « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون . وقوله تعالى « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » : وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيض كثير من تأكيد شريعة الزكاة وتقريرها وإيجابها على الأغنياء للفقراء .

هذا الركن الكبير من أركان الاسلام ، هو رسول السلام، وداعى المحبة والتعاون والعطف بين الناس ، والمقوى للروابط بين الأفراد والطبقات ، والمستل لأحقاد النفوس وأضغانها . والمقرب بين القلوب : لتصير الأمة كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . الزكاة أجل إصلاح اجتماعى أتت به شريعة إلهية ، وأكبر دعوة إلى التعاطف والتساند والتماسك بين الناس ، وهى وما حبب فيه الإسلام من الصدقة والإحسان ، ورعاية الفقير ، وإكرام الجار ، وقرى الضيف وابن السبيل ، أعظم حل عملى لأعظم مشكلة عالمية استفحلت اليوم ، وهى الشيوعية ودعوة الشيوعيين .

ولما مات رسول الله صلوات الله عليه ، كانت القبائل العربية ، لا تزال بحمقها

وجاهليتها غاضبة ناقمة على الإسلام وشريعته فى الزكاة ، فارتد الكثير منها عن الإسلام فصمم أبو بكر على محاربة هؤلاء المرتدين مهما كان ، وهو يقول : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لماتلتهم عليه » ونهض بنفسه لحرب المرتدين حتى أصاخوا لدعوة الإسلام ، وأدوا لأبى بكر زكاة أموالهم التى كانوا يؤدونها لرسول الله .

واليوم تشتد مشكلة الفقر فى مصر الإسلامية إلى درجة شديدة ، ويكثر فى وسطنا الجائع والعارى ، والمحروم والسائل ، ونجد كثيراً من الناس يعيشون دون أن يكون لهم مورد من المال يعيشون عليه ولو كان قليلا ، وكثيرا ما يفترش هؤلاء الفقراء الطرق ، وينامون ملتحفين السماء .

وتحاول الحكومة أن تحارب مشكلة الفقر بكل وسائلها ، ولكنها تخفق فى هذه الحرب لأن المشكلة أشد خطرا مما تتصور ، ولأن وسائل العلاج الحكومى لا تتعدى المظاهر والقشور ولأن الفقير لا ينطق بلسانه أحد ولا يمثله إنسان ولا يستطيع أن يلج دور الحكومة ليطالب بحقه فى الحياة .

ومسألة الضمان الاجتماعى لا تزال إلى الآن - رغم جدواها - فى دور التنفيذ ، والمال المرصود لها قليل ، وهى لم تشمل الشعب كله ، وإنما شملت جهات منه ، والناس معذورون لأنهم لم يحسوا بعد بأثرها فى علاج مشكلة الفقراء والمحرومين والبؤساء من الشعب ، والفقير لا يمكنه أن يصوم سنوات حتى تصل اليه مساعدة الحكومة ، ومتى تصل ، وعلى ظهر أية سلحفاة تسير ؟ .

وهيئة الأمم المتحدة ، ولجنة حقوق الإنسان فيها تؤلم ضميرها مشكلة الفقر فى الشعوب الصغيرة ، فتعترف بحق كل إنسان فى أن يعيش ، وأن تحفظ كرامته الإنسانية ، وأن يجد قوتا كافيا ، وغذاء مناسبا له ولأولاده ، ومسكنا ملائما وكساء موائما . أما فى الشعوب الكبيرة فإن الدولة تهيىء للفقير فيها كل أسباب الحياة والراحة .

رحمك الله ياعمر ، لقد سبقت العالم المتحضر إلى مايعملون ، فقد كنت تصرف للفقير من بيت مال المسلمين طعامه وكساءه وغطاءه ، وكنت تحمل على ظهرك القوت لتذهب به إلى من تستطيع الذهاب اليه من الفقراء .

لماذا نسكت ونصمت أمام مشكلة الفقر فى مصر . أيتها الحكومة الإسلامية الجليلة ، لم لا تكونين جريئة على الإصلاح ؟ ، لم لا تجربين وسائل الشرع الإلهى

فى علاج مشكلات المجتمع ؟ لم لا تفرضين الزكاة فرضا ، وتأخذينها بقوة القانون من الأغنياء للفقراء .

إن منظر الفقراء ليروع كل قلب وكل ضمير ووجدان وعاطفة ، فى كل مكان فى مصر . وإن أغنياءنا - عفا الله عنهم - يبذلون المال بسخاء فى أوربا وفى نوادى القمار والسباق وحفلات الرقص ، وعلى تربية كلابهم وفى شراء السيارات الفخمة والقصور الأنيقة ، والضياع الواسعة ، ولكنهم يضنون على الفقير ضنا شديدا لا يبالون أن يشبعوا وجارهم جائع ، وأن يحيوا حياة الترف وفى الأمة كثير من المحرومين من كل أسباب الحياة .

إننا نطالب الحكومة بأن تفرض الزكاة فرضا ، وأن تجمعها من الأغنياء بقوة القانون ، وأن تصرفها فى مصارفها التى أمر الله ورسوله محمد صلوات الله عليه .

يقول الأستاذ الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف : الزكاة ركن كبير من أركان الإسلام ، فيه علاج حاسم لأمراض المجتمع ، وتقريب كبير بين طبقات الأمة ، وتعاون مثمر بين الأغنياء والفقراء ، ورفع لمستوى الأمة الاجتماعى ، ودواء لأهم مشكلة من مشكلاتنا العامة ، ألا وهى الفقر .

وإخراج الزكاة وتقديرها موكولان إلى ضمير المسلمين ودينهم وهم مسئولون عن ذلك أمام الله وأمام المجتمع والناس ... ولكننا أصبحنا الآن فى زمن مادى يتحلل من شريعة الله ، ويعصى أوامر الله ، ويجد الزكاة مغرما ، بعد أن كان أسلافنا الأولون يعدونها مغنما كبيرا ، لما فيها من كسب رضاء الله وثوابه ومضاعفة الأجر عليها ، ولما فيها مع ذلك من حيازة رضاء الملائكة والناس ودعوات الفقير واليتيم والمسكين ، ولما فيها من قضاء على الإجرام والنهب والسرقة والاعتداء على أموال الاغنياء ، وصدق الله العظيم حين يقول : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »

وجباية الزكاة فرض على المسئولين والحكومة اليوم ، بعد أن أصبح أغنياؤنا لا يعبأون بهذا الركن الخطير من أركان الإسلام ، وللحكومة فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أسوة حسنة حين حارب الذين منعوا الزكاة حتى أفاءوا إلى دين الله وشريعته ، وأدوها كما كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكننا لا نوافق بأية حال ، على أن تأخذ الحكومة أموال الزكاة فتضيفها

إلى الإيراد العام للدولة ، لأن ذلك سيحول حتما دون وصولها إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين ، ويترتب على ذلك أن تصرف فى ترقية التمثيل ، وتشجيع الفن وفى إقامة الحفلات الساهرة ، وأن تدخل فى أموال الدعاية التى تعطى لأبواق كل حكومة ، أو فى المصاريف السرية التى تنفق بسخاء فى كل وجه ، وأن تصرف على غير المسلمين من رعايا الدولة ، مع أن الزكاة لايجوز باتفاق صرفها إلا لمسلم . . ولا نوافق على أن تضاف إلى إيراد وزارة الأوقاف أو الشؤون الاجتماعية ، لأن ذلك سيحول حتما دون وصولها للفقراء ، وسيأخذها المحسوبون والمحظوظون ولو كانوا أغنياء ، فضلا عن أن الإدارات التى ستشرف على أموال الزكاة ، وما يستتبع إنشاءها من درجات وموظفين ورؤساء ، ستستنفد الجزء الأكبر من هذه الأموال .

إنما نرى أن تؤلف لجان فى كل قرية ومدينة بقرار وزارى ، من أعيان المسلمين ومن العلماء فى هذه الجهات . . وتتحرى هذه اللجان الحق والصدق فى عملها ، وتشرف على جمع الزكاة بشتى أنواعها من الأغنياء ، وعلى صرفها على مستحقيها من فقراء المسلمين ، على أن لاتخرج زكاة قرية أو مدينة منها ، بل تصرف فيها على فقرائها ، وتكون هذه اللجان مسؤلة عن أعمالها أمام القانون والحكومة .

وبهذا نضمن تحقيق غرضين شريفين :

الأول : التحقق من أن كل غنى دفع الزكاة الواجبة عليه كاملة غير منقوصة .

والثانى : التأكد من وصول الزكاة الى مستحقيها من الفقراء والمساكين .

الإسلام
يحارب الفقر

يحارب الإسلام عدوا لدودا للإنسانية كافة ، هذا العدو هو الفقر ، الذى كثيراً مايكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أوجدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد صلوات الله عليه إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة ، بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول ، مع صعوبة التغلب على الفقر فى بيئة كبيئة الصحراء ، وفى مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء ، فحارب محمد صلوات الله عليه هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ، ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع وكسوة العارى وإسعاد الناس ، ووديعة الله فى أيدى الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ، وجعل من سنة الإسلام المهذب فى الحياة الإيثار لا الأثرة ، والإعطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر ، لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يعرفون فى المال حقوق الله والفقراء والمساكين ، فطالبهم محمد صلوات الله عليه بما طالبهم به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » ، ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : « إياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ، وقال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ومدح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وفرض حق الضيف وابن السبيل ، وجعل صلوات الله عليه البر واجبا ، والإحسان فريضة ، والصدقة شريعة اجتماعية ، والزكاة أمراً محتوما لمصلحة المجتمع كله . ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس ، وجعل أساسها

الأسرة ، وفرض على الرجل حقوقا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية ، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة .
وحث على القناعة والاقتصاد ، فقال صلوات الله عليه : « طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » وقال : « ما عال من اقتصد » .

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات ، فدعا اليها الرسول صلوات الله عليه وحض عليها ونادى بها ، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها . لكى تتداول الأيدى المال ، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصداً للربح والكسب الحلال ، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، وقرر محمد صلوات الله عليه حرمة المال فقال : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال : « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » . وعمل على حفظ كرامة الفقراء ، ففضل صدقة السر ، وحض على ترك المن والأذى ، وكره السؤال وحرمه عن غير حاجة ، وجعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى ، وحبس محمد صلوات الله عليه الأموال - التى تؤخذ من الفىء ، والخراج ، والجزية والغنائم والعشر والركاز وسواها على مصالح الفقراء والتمكين لهم فى الحياة والمعيشة وحرر رقيق الأرض من العبودية ، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذى أسر فى حرب مشروعة ، وبالعمل على تحريره ، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال .

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعا عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء فى أموال الأغنياء ، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل فى الحياة مع مرور الأيام وبتقسيمه العادل للميراث بين أولى الأرحام ، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم ، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه . حتى قال رسول الله صلوات الله عليه لبلال : « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا » .

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان صلوات الله عليه كما وصفه على : أجود الناس كفا ، وكما وصف فى حديث البخارى « فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة » وتقول عائشة رضى الله عنها : ماشبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى

رفاق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا » . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار » . كما نهى عن الخيانة فى الأموال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » أى خيانة » .

ولقد حبب محمد صلوات الله عليه الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم . وجعل بيت المال فى خدمة الناس ، والفقير من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال ، وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات ، ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب لرسول الله صلوات الله عليه خرص ثمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ، فاستعمل عتاب بن سيد الأموى واليا على مكة وجعل رزقه كل يوم درهما ، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء ، وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس ، حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالباً على جزيرة العرب .

وقد دعا صلوات الله عليه إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء ، : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ، فان لهم دولة » قالوا : يارسول الله ، وما دولتهم؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً ، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة ، وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال : « كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان » ، ورفع من منزلة الفقراء ، ولم يجعل المال أساسا للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من

الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الاسلامية ، مما قلب الأوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وإنصاف الفقراء ، وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه ، الإنسانية فى أروع صورها ، والمثل الأعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، إلى الأمن والهدوء والاستقرار . وكانت حياته كلها كفاحا مجيداً فى سبيل الله والحق والمعروف ، وتقرير حريات الفقراء وكرامتهم ، وكانت جهادا صادقا وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توج هذا الجهاد بالنصر ، وهزت ذكرياته مشاعر الناس ، والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس ، والناموس السماوى الحكيم .

لقد استطاع رسول الله صلوات الله عليه أن يجعل الفقراء والأغنياء إخواناً متحابين متآخين متعاونين . وأن يقيم فى المجتمع الاسلامى اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادىء الروحية والمثل العليا ، وتجعلها أساسا من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الأرض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة ، والاضطراب والقلق بين الطبقات .. وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة وهدم كل الصروح التى أقيمت ظلماً وبهتاناً بأيدى الاقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادىء الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحى الخالد ، الذى يعد مفخرة من مفاخر البشرية ، فى نهضتها وتوثبها إلى الكرامة والحرية .

الإحسان

فى شريعة الإسلام

الإحسان بمعناه العام : إتقان الشىء وتجويده ، فاذا أشعرت قلبك الإيمان العميق فقد أحسنت ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه . الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . وإذا جودت فى عملك وأتقنته فقد أحسنت ، وفى المأثور : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه ، وإذا أجدت القول وبلغت فيه الصواب فقد أحسنت . ولذلك تسمع كثيرا من الناس يقولون لمن يحسن فى مقاله أو قراءته : أحسنت ، وإذا صنعت خيرا بالوالدين أو بالناس فأنت محسن ، قال تعالى « وبالوالدين إحسانا » . . والإحسان بمعناه الخاص . هو التوسع فى عمل الخير ، وفى البر بالناس ، والعطف على الفقير والمحروم والسائل والمسكين والإكثار من الصدقات ، وصلة الأرحام ، ومواساة المنكوبين ، ومسح دموع المحزونين ، وحمل الكل ، وقرى الضيف . والإحسان بهذا المعنى مظهر نبيل للعواطف الإنسانية المهذبة ، وغاية كريمة اجتمعت الشرائع والأديان على تقريرها ، والتنويه بسمو خطرها ، وبليغ أثرها .

وهو صورة رائعة لكثير من المشاعر الإنسانية السامية والأخلاق البشرية الكريمة ، من حنان ومروءة تملأ جوانب الصدور ، ومن إيمان وثقة ويقين تهتز بروعتها الأفئدة ، ومن بذل وتضحية وإيثار اشربت حبها القلوب ، حتى أصبحت لها عقيدة مع العقيدة ، وغاية تسمو على كل غاية .

والإحسان فى نظر الاسلام أول لبنة فى صرح سعادة المجتمع ، وعظمة الأمة ، ولذلك بالغ الله عزوجل فى العناية به والحث عليه ، وجعله ركنا من أركان الدين وقرنه بعبادته وتقواه ، كما قرنه بالايمان والصلاة ، وجعل للمحسنين الثواب العظيم والجزاء الكبير والأجر الكريم ، وأخبر بأنهم لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأنهم فى عون الله ورعايته ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . . ولم يشأ الله عز وجل أن تذل بالاحسان نفوس الفقراء والمساكين ، فجعله حق الفقير والمسكين ، « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون

وجه الله وأولئك هم المفلحون» ، وجعله قرضا يؤدى إلى صاحبه فى الآخرة، مغفرة من الله ورضوانا ، فقال : « فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، « إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم » . .

ثم صور الذكر الحكيم مدى الفجيعة الفادحة التى تحيق بمن أوتى كتابه بشماله يوم الدين ، وبين أسبابها فقال «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين»

وحسبكم هذه الآية الجامعة « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » .

الإحسان فوق أنه عاطفة إنسانية سامية ، وغاية دينية رفيعة ، هو أعظم أساس تبنى عليه الأمة صرح ألفتها ووحدتها ومجدها ، وأكرم سبيل يسير فيه المجتمع الصالح إلى آماله المنشودة ، وغاياته المرتجاة .

وعبر التاريخ أصدق شاهد على أن الأمة التى لا يواسى أغنياؤها الفقراء فيها ، ولا يشارك سراتها بمالهم وعطفهم من نكبتهم الأيام ، وعصفت بهم الأحداث والخطوب من أبنائها ، لهى أمة تسير بخطوات بعيدة نحو النهاية المروعة ، والخاتمة المحتومة .

ذلكم أن المجتمع لا يصلح حاله ، ولا تبرأ أسقامه ، إلا متى كان روحا واحدة وصفا مرصوصا يسير إلى غاياته العظيمة ، مجاهدا فى سبيل تحقيق ما يطمح إليه من آمال .

وليس من سبيل لدعم هذه الروح فيه ، مع الفروق الجسيمة الهائلة فى المعيشة والحياة ، ومع انصراف الموسرين عن شؤون الفقراء ، وتناسيهم حقوق المنكوبين ، ومع حياة الفقير البائسة الداجية ، التى يرى فيها بعينه حياة الغنى المترفة المرحة ، ثم لا يرى فى أفقه قبسا من أمل ، ولا شعاعا من رحمة أو حنان .

إنما السبيل لعلاج جميع مشكلات المجتمع هو الإحسان ، ثم الإحسان ، ثم الإحسان .

فيه تزول الفروق الاجتماعية ، وتهدأ الأحقاد المتوثبة ، وتسكن الثورات المستعرة ويعيش الشعب وجميع طبقاته بنعمة الله إخوانا .

ومجتمعنا حديث عهد بالإصلاح الاجتماعى ، ومشاكل الحياة الاجتماعية أمامه معقدة متشابكة ، ووسائل المعيشة قليلة ضئيلة ، ومرافق الثروة الاقتصادية مايزال

بعضها فى أيد أجنبية ، وبعضها بكر لم تمسسه يد الإصلاح ، ولم تفكر فى استغلاله عبقريات قادرة أو أيد نشطة ، وذلك سر ما تلمسه فى كل مكان من مظاهر الفاقة والشقاء والبؤس والعناء ، ومن شتى الآلام الاجتماعية المزعجة .

فهذا المجتمع أشد المجتمعات فقرا إلى الإحسان ، وأكثرها حاجة إلى البر والإيثار وأمسها إلى عناية جميع الموسرين — ممن تقلهم أرض مصر وتظلهم سماؤها — بشئون الفقراء والبائسين والمساكين .

وهذه هى الغاية البارة ، والعاطفة الكريمة ، التى تدفع إلى التضحية بالمال وبكل غال عزيز ، فى سبيل الترفيه عن الفقراء والعطف عليهم ، وإحياء روح الأمل فى صدورهم ، وبعث معانى السلام والسعادة فى نفوسهم .

أيها الناس : يجب أن تتناسوا كل شىء إلا الفقير ، وأن تطرحوا وراءكم ظهريا كل غاية إلا الغاية السامية التى تعمل للنهوض بالأمة .

اذكروا أن وراءكم فقراء ومنكوبين : من عامل أفقده المرض القدرة على الكفاح ، ومن يتامى لا يسعى لخيرهم أحد ، ومن كهول أرهقهم الكبر من أمرهم عسرا ، ومن أسر ذهب الموت بعائلها العزيز ، ومن منكوبين اجتثتهم الأيام فأمسوا لا يملكون قتيلا ، ولا يجدون إلى الحياة سبيلا . اذكروا هؤلاء جميعا ، فانهم يعلقون عليكم آمالهم ، وينتظرون ملائكة الرحمة تمد إليهم يد الحنان والمواساة ، فتبث فى نفوسهم الأمل ، وتذيقهم برد السلام والسعادة .

فاعملوا ، واعملوا فى سبيل هؤلاء ، وحسبكم أن ترضوا بهذا الجهاد نفوسكم ووطنكم ودينكم ، وأن تفوزوا برضاء الله . وأن يكون لكم بذلك أوفر حظ من نعيم الدنيا وثواب الآخرة .



يدعو إلى العلم والتهذيب

والإسلام يدعو إلى العلم والتعلم بكل وسيلة يستطيعها الإنسان ، ويحض العقل على التأمل والتفكير ، ويفرض على العالم إرشاد الجاهل ، وهو بحق دين العلم والمدنية والعرفان . وقد صحبت الثقافة الإسلام فى كل مكان . وكانت العواصم الإسلامية الكبرى تموج بالعلم والعلماء ، ومنها انبعث نور المعرفة إلى أقاصى الدنيا ، وكان الخلفاء والأمراء والملوك يشجعون العلماء والأدباء ورجال التربية والثقافة والفن تشجيعا مستمرا .

كل هذه حقائق لا يستطيع أن يتمارى فيها إنسان .

أما التربية الإسلامية الصحيحة ، فهى مفروضة ، فعلى الآباء تربية أبنائهم وإرشادهم فى المنزل والمسجد وفى المدرسة ، وفى مجالس العلم والعلماء . وعلى الحكومة أن تتيح الفرصة لكل إنسان أن يتعلم ، وأن يصل إلى أقصى درجة من المعرفة .

وأساس التربية تنبيه الضمير ، وتقويم الوجدان ، وتهذيب السلوك ، وتنمية الإدراك ، وعلى المعلم أن يكون قدوة للمتعلمين فى آدابه وأخلاقه وسلوكه .

ولا فرق بين المرأة والرجل والفتاة والفتى فى مجال التربية والثقافة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان النساء يحضرن مجالس رسول الله ويسمعن إرشاده وتوجيهه ، وكانت عائشة أم المؤمنين تفتى الناس ، وفيها قال رسول الله : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

كما أنه لم يكن هناك فرق بين العناصر ، والألوان والأجناس فى هذا المجال : مجال التربية والتعليم والثقافة ، وكان كثير من أعلام العلماء فى الأمة الإسلامية من أصول وعناصر غير عربية . . فأين هذا مما يحدث الآن فى أمريكا من حرمان الزنوج السود من مساواتهم بغيرهم حتى فى ميدان الثقافة . ولعلك قرأت قصة الطالب الزنجى « برس لى جوليان » الذى كان متفوقا طول حياته فى دراساته حتى نال درجة أستاذ فى الكيمياء ، فرفضت جامعة هارفرد أن تعينه فيها معيدا ، بحجة أن الجامعة تخشى أن يأبى البيض أن يقبلوه معلما لهم .

إن الإسلام الذى حرر العقل البشرى من كل قيد ، هو الذى حرر الثقافة وميدان التربية من كل الأغلال القديمة والحديثة على السواء .

وأساس التربية الإسلامية إنسانى محض : إشعار الأنسان بأنه مسئول عن الإنسانية جميعها ... اقرأوا إن شئتم قوله صلوات الله عليه : « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة أوقوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، أو قوله : « إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء » ، أوقوله : « إذا قتلتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ، أو قوله : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » أو قوله لأعرابى أجهد بعيره فلما كل من العمل اراد أن ينحره : « إن بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر تريدأن تنحره » . . فستجدون الطابع الإنسانى واضحا كل الوضوح فى كل كلمة وكل عمل وكل مبدأ وكل تشريع فى الإسلام عامة ، وفى التربية الإسلامية خاصة .

يبنى « أمانول كانت » مذهبه فى الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول فى الأخلاق . . ولعلكم تتذكرون قول الرسول الأعظم : « إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء مانوى » ، وتعلمون أن محمد بن عبدالله سبق الفلاسفة كما سبق المشرعين والمفكرين إلى كثير من النظريات العامة فى الأخلاق والاجتماع والتربية .

الباب الخامس

الإسلام وحقوق الإنسان

حقوق الإنسان

في الإسلام

تمهيد

رسفت الإنسانية فى أغلال ظالمة من الاستعباد ، خلال الحضارات القديمة التى غمرت موجتها العاتية الحياة البشرية ، قبل أن تسطع شمس الإسلام المشرقة ، وينبثق نوره ، وتشابهت جميع الحضارات التى استظلت بها الإنسانية فى ذلك العهد السحيق ، فى أفكارها ومبادئها وغاياتها ، فقامت جميعا على أسس الطغيان والديكتاتورية والروح المادى البعيد عن السمو الإنسانى المنشود ، وكانت غاياتها المشتركة مجد الأشخاص لا مجد الشعوب ، ورفاهية فرد وإن شقيت به أمة ، وكان كل ما تطمح إليه وتفكر فيه ، استعباد الناس وتسخيرهم ، فى سبيل تحقيق ما يصبو إليه الحاكمون من عظمة وكبرياء ، وما ينشدونه من روعة المجد ومظاهر السلطان ، وجحدت جميع هذه الحضارات حقوق الأفراد وحرياتهم ، وناوأت حياة الديمقراطية وحريات الشعوب ، وتنكرت لكل ما تقدسه الإنسانية المهذبة من عدلة وإخاء ومساواة ، ثم خلعت على هذا الاستبداد الجائر صورا مزيفة من القداسة والحق الإلهى المزعوم وأن الحاكم يتلقى الحكم هبة من السماء ونفحة من العناية الإلهية : وليس للشعوب حق لديه ، ولا شخصية فى رأيه ، وما هم إلا عبيد مسخرون ، فسكن لهذا الطغيان الثائرون ، وآمن به الحائرون ، وصار عقيدة مع العقيدة ، وسورة من كتاب البشرية المضللة البائسة .

وبزغ النور الإلهى فى أفق الحياة البشرية بين هـذه الظلمات القاتمة فترات قصيرة ، ليبدد ظلام الاستعباد السياسى والرق الفكرى والطغيان الاجتماعى ، بيد أنه لم ينفذ إلى أعماقها ، ولم يتغلغل فى طواياها ، واجتمعت شياطين الضلالة وأعداء الإنسانية على أن يحولوا بينه وبين قلوب الناس وعقولهم ، فلم يرن إليه بصر ، ولم يخفق به فؤاد ، ولم ترفع له الشعوب رأسا .

وعلى حين غفلة نزل الوحى إلى الأرض من جديد ، يبلغ الرسالة ، وينفث فى روع محمد وأصحابه روح القوة والبطولة ، ويدعوهم إلى التضحية والجهاد ،

لتحرير الإنسانية من أغلالها ، والسمو بها إلى حياة الحرية والديموقراطية والسلام ، فأخذ محمد وأصحابه يدعون للدين الجديد ، ويبشرون الناس بحياة بشرية أخرى ، ويضعون أساس الحياة الإنسانية الجديدة .

دعا محمد صلوات الله عليه إلى وحدة الإنسانية ، أممها وجماعاتها ، وإلى محو جميع الفروق الطائفية والعنصرية الظالمة ، التي فرقت بين الإنسان والإنسان ، وبين الجماعة والجماعة ، وبين الأمة والأمة ، وإلى المساواة التامة بين الأفراد والجماعات ، وأهدر جميع الموازين التي ألف الناس تقدير قيم الأشخاص على أساسها ، من الحسب والجاه والمال ، إلا ميزانا واحدا هو ميزان الكفاءة الشخصية والعمل الصالح والخلق الكريم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ويقول الرسول الكريم : « أيها الناس إنما المؤمنون إخوة وربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأنكر عليه زعماء قريش هذا المبدأ الكريم ، قالوا كيف نجلس إليك يا محمد وأنت تجلس إلى مثل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعمار ، وسواهم من العبيد وعامة الناس ؟ اطردهم ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك ، فأبى رسول الله صلوات الله عليه . فقالوا : فاجعل لنا يوما ولهم يوما ، فكاد أن يجيب رغبتهم ، فنزل عليه الوحي من السماء يرتل في أذنه هذه الآيات الكريمة « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

كفل الاسلام حريات الأفراد والجماعات ، وناوأ الاستعباد البشري في جميع صوره وشتى مظاهره . حتى قال عمر فيما بعد لأحد ولاته وقد اعتدى على رجل من الرعية : « كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، فحرر الإسلام العبيد المسترقين ، إلا من كان مأسورا في حرب شنها أعداء الإسلام ، ليطفئوا بها نور الله ، ووضع الحدود لمعاملة هؤلاء الأرقاء ودعا إلى تحريرهم من رق العبودية ، كما حرر المرأة من عبودية الرجل ، وحرر المجتمع من ديكتاتورية الزعماء والطغاة ، وحرر الشعب من جور الرأسماليين المستبدين ، فأحل البيع وحرم الربا ، ودعا

الى أسمى المعاملات وأنبلها .

وكانت أول كلمة فى دين الإسلام هى الدعوة الى وحدة العقيدة ، وألا يشرك الناس بالله شيئا ، وبذلك رفع كرامة الإنسانية ، من أن تمتهن بالسجود لغير الخالق العظيم ، ورفع كرامة الناس من أن يذلوا للطغيان السياسى ، الذى يسبغ عليه أصحابه لونا زاهيا من القداسة لك وتأييد العناية الإلهية ، «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ؟ » .

ودعا إلى السلام المشترك فقال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

ووضع أساس الديمقراطية السامية ، ومبدأ الشورى الكريم ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، «إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . وقرر مبدأ النصيحة لأولى الأمر : « الدين النصيحة ، لله ولرسوله ولأولى الأمر » ، وألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وأخذ رسول الله صلوات الله عليه ينظم فى تؤدة وتدرج حياة الفرد والأسرة ، وشئون المجتمع والامة ، على أسمى وجه تنشده الإنسانية ، ويصبو اليه المصلحون ودعى الناس إلى غاية مشتركة هى العمل على سعادة الإنسانية ورفاهيتها وتقدمها ، والتمكين لحياة التعاون والديموقراطية بين الناس والجماعات والأمم ، وسار على نهجه الكريم خلفاؤه الراشدون ، فكانوا المثل الأعلى للملوك الديمقراطيين والحكام العادلين .

وبذلك استعاد الفرد كرامته ، والمجتمع سعادته ، والشعب حريته ، والإنسانية طمأنينتها ، وعاش الجميع بنعمة الله إخوانا .

أليست الديمقراطية هى المساواة التامة بين الناس ، وتهيئة الفرص للرقى أمام كل فرد ، ونشر العدالة الاجتماعية بين الأفراد والطبقات ، وكفالة حريات الناس جميعا ، واشتراك الفرد فى شئون المجتمع والامة ؛ يديرها ويسوسها ويسير بها لمصلحة الجميع حتى يتعاون الحاكمون والمحكومون جميعا فى سبيل الخير العام ؛ والمصلحة المشتركة ؟

ثم أو لم يقرر الإسلام هذه المبادىء جميعا قبل أن تقررها الحضارات الأوربية الحديثة بأربعة عشر قرنا من الزمان ؟

إنها لعقيدة جديدة وثورة إنسانية عامة ، ودعوة لتمكين الديمقراطية فى الأرض بين الناس ، وما أروعها من عقيدة ، وما أعظمها من ثورة على الطغيان والاستعباد ، وما أجلها من دعوة رفعت رأس البشرية إلى السماء .

وبعد جهاد رائع حافل بآيات البطولة والتضحية كتب الظفر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فألقى حماة الوثنية والطغيان فى جزيرة العرب سلاحهم بين يدى محمد صلوات الله عليه ، كما ألقى حملتها فى فارس والشام ومصر السلاح فى عهد أبى بكر والفاروق عمر بن الخطاب ؛ وذهبت العقيدة الإسلامية ، وحياة الديموقراطية البشرية الجديدة ، فى أرجاء المشرق والمغرب ، بشيرا بخير العالم وسعادة الشعوب ، ورفاهية الناس والجماعات .

لقد أدى الشرق رسالته ثم استعاد التاريخ دورته ، فاذا الجهاد هو الجهاد والكفاح هو الكفاح ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والمجد والسلام والرفاهية للبشرية أولا وأخيرا ، ، وما أصدق ما يقول شاعرنا المعاصر .

من هؤلاء الصامتون ؟ تكلموا   من هؤلاء المحجمون ؟ تقدموا

الحكم في الإسلام

الحكم فى الإسلام شورى ، لأن الحكومة فيه مقيدة بكتاب إلهى ، ودستور خالد ، منزل من السماء ، هو القرآن الكريم ، الذى نزل هدى ونورا ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

يقول دافيدبورت : «القرآن دستور اجتماعى تجارى مدنى حربى قضائى ، وهو فوق ذلك كله قانون سماوى عظيم » . . والقرآن الكريم يحقق كل أغراض الحكومة الدستورية الصالحة ، فقد فرض على الحاكم أن يستشير المسلمين ، ويرجع إلى رأيهم « وشاورهم فى الأمر » ، « وامرهم شورى بينهم » ، وألزم الحاكم بالعدل فى رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، ولم يجعل أى امتياز لطبقة الحاكمين على طبقة المحكومين ، فهذا رسول الله صلوات الله عليه يقول فى مرض موته « أيها الناس . من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى ، فليستقدمنه ، ومن شتمت له عرضا فهذا عرضى ، فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه . ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى » . وكان عمر يسلك سبيل الرسول وصاحبه أبى بكر ، فيطلق لولاته الحرية فى الشئون الموضعية ، ويقيدهم فى المسائل العامة ، ويراقبهم ، ويقول لهم . إنى لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم ولا على أبشارهم ، وإنما استعملتكم عليهم لتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل . وقال عمر من ظلمه عامله بمظلمة ، فلا إذن له على ، إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه ، فقيل له : أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه ، فقال : ومالى لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ؟ وبلغ عمر أن أبا عبيدة ، واليه على الشام ، يسبغ على عياله ، وقد ظهرت النعمة عليه ، فنقص من عطائه الذى كان يجرى عليه ؛ ثم سأل عنه ، فقيل له : قد شحب لونه . وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال يرحم الله أبا عبيدة ، ما أعف وأصبر ! ! ورد عليه ما كان يقص منه ، وأجراه عليه . وكان عمر الخليفة لا يميز نفسه عن جمهور المسلمين بشىء فى لباسه ومركبه وحركته . وقد صادر أموال عمرو بن العاص واليه على مصر لأنه ظهرت عليه النعمة والترف ، وصادر أموال أبى هريرة واليه على البحرين لأنه ادخر له عشرة آلاف درهم ، وكان يأخذ عطاءه من بيت المال مثل أى فرد من المسلمين .

إن الإسلام يحذف الامتيازات الفردية والطائفية ، ويمحو ما بين الطبقات من الفوق فى الحقوق والواجبات ، لافرق بين حاكم ومحكوم ولا يعترف بالنبلاء والسادة والأمراء ، إنما هم مثل غيرهم من باقى طبقات الشعب وفلاحيه وجمهوره ، نظام الحكم مقرون بالحرية والمساواة والعدل واحترام كرامة الفرد .

الخليفة ينتخب من قبل عظماء الأمة ، ولا يصدر فى خلافته أمر خطير إلا برأى أكابر الأمة وشوراهم ، جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فان رأيت أن تعطيناها لعلنا نحرثها أو نزرعها ، ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمن حوله : ما ترون فيما قالا ؟ قالوا إن كانت أرضا سبخة لا ينتفع بها فنرى أن تقطعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فأقطعهما إياها وكتب لهما بذلك كتابا ، وأشهد عمر وليس فى القوم ، فانطلقا إلى عمر يشهدانه فوجداه قائما يداوى بعيرا له فقالا : إن أبا بكر يشهدك على مافى الكتاب وقرآه له ، فلما سمع مافى الكتاب تناوله منهما فتفل عليه فمحاه ، وقال: إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل ، وإن الله عز وجل قد أعز الإسلام اذهبا فاجهدا جهدكما فذهبا إلى أبى بكر وقالا : والله ما ندرى من الخليفة أنت أم عمر ؟ قال بل هو لو كان شاء ، فجاء عمر وهو مغضب فقال لأبى بكر : أخبرنى عن هذه الأرض التى اقطعتها هذين ، أرض هى لك خاصة أم بين المسلمين عامة ؟ قال : بل هى للمسلمين عامة ، قال فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال ، استشرت هؤلاء الذين حولى فأشاروا على بذلك ، قال : فإذا أشرت هؤلاء الذين حولك أفكل المسلمين أو سعتهم مشورة ورضى ؟ قال أبو بكر قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا منى ، لكنك غلبتنى .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية تحث على وضع القوانين والنظم الملائمة لحاجات الأمة ومطالب الحياة وضرورات البيئة ، وتفرض على المشرعين و لمجتهدين أن ينظروا على ضوء الإسلام وتشريعه إلى كل ما يجد فى الحياة لوضع أحكامها .

وأما أن نحمل الشريعة مسئولية المظالم والاضطرابات التى أحدثها الملوك من ذوى السياسة والأطماع القصيرة بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فأمر لا يتفق والحق والإنصاف . إن الحكومة أساس تكوينها فى الإسلام شورى ، ومشيئة الشعب هى التى توجهها وتسير بها إلى جادة الحق والخير العام والإصلاح . ومهمتها هى

خدمة الشعب والتفانى فى حفظ الأمن والنظام ، وضمان العدالة والحق والمساواة للجميع . . جاء فى وثيقة الاستقلال التى أعلنها نواب الولايات المتحدة عام ١٧٧٦ . إننا نعتقد أن هذه الحقائق بديهية ، إن الأفراد أجمعهم خلقوا متساوين ، وقد منحهم الخالق حقوقا معينة غير قابلة الانتزاع . ومن هذه الحقوق : الحياة ، والحرية ، والسعى نحو السعادة . ولصيانة هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس ، فتستمد هذه الحكومات سلطتها العادلة من رضا المحكومين . وإن أية حكومة - مهما كان شكلها - إذا أصبحت هدامة لهذه الغايات ، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يلغيها وينشىء مكانها حكومة جديدة ، يصنع أساسها ، على ما يبدو له من مبادىء ، وينظم سلطتها على ما يتراءى له من أشكال تضمن له السعادة والسلامة .

لقد عنى ملوك المسلمين بنشر العلم والثقافة والحضارة فى كل مكان ، فى بغداد وقرطبة ومصر ودمشق وحلب وتونس ، وسواها من عواصم البلاد الإسلامية ، وهذه العواصم هى المنابع التى استمد منها الغرب الثقافة والعلم والحضارة فى القرون الوسطى . يقول الأستاذ بريفولت الانجليزى فى كتابه « تكوين الإنسانية » : تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام . ويقول : إن رئيس دير كلونى تأسف على أن رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وانجلترا يردون أفواجا أفواجا إلى المراكز العلمية العربية ، وقال : العلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر ، فلم تكن إيطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة بل الأندلس ، لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربى : بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة ، كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء إنسانى جديد .

ويلخص شوقى النظام الحكومى فى الإسلام فيقول :

فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء

العمال

حقوقهم وواجباتهم فى الشريعة الإسلامية

للعامل مكانة كبيرة فى الأمة ، فهو دعامة الانتاج ، وعنصر من عناصر النشاط الاقتصادى ، واليد المحركة لمرافق الدولة .

وقديما نشأ كثير من الأنبياء فى بيئة الأعمال ، وتدرج الله بهم من حياة العمال إلى حياة النبوة والرسالة ، فموسى عليه السلام قضى ثمانى حجج أو عشرا عاملا فى مال شعيب وداود كان يعمل ويأكل من عمل يده ، فكان يقوم بصناعة الدروع ويعيش على مايكسبه من هذه الصناعة ، ومحمد رسول الله صلوات الله عليه قضى صدر شبابه وطرفا من أيام رجولته عاملا فى مال خديجة سيدة قريش ثروة وجاها . وقد عنيت الأديان القديمة والقوانين الحديثة بتشريعات العمل وقوانين العمال .

وفى الشريعة الاسلامية عناية بالعامل وحقوقه ، وتتجلى هذه العناية بوضوح فى كثير من مسائل التشريع الإسلامى ، والأصول العامة التى تهدف إليها الشريعة الإسلامية فى هذا الباب يمكننا أن نلخصها فيما يلى :

أولا : حفظ كرامة العامل وإنسانيته وشخصيته فى الحياة ، فالعمل ليس ذلا وهوانا . بل هو وسيلة الحياة الشريفة لكثير من أفراد الأمة . وهو ركن الحياة الاقتصادية ، لذلك كان من الحتم أن يقدر أصحاب الأموال شخصية العامل وكرامته وارادته ويحافظوا عليها لا أن يضعوه موضع الذليل المسخر أو العبد المهان ، وفى مبادىء الإسلام نصوص كثيرة تؤيد هذا ، وكان كثير من العمال يشترطون على صاحب العمل ذلك ، كما يروى أن قوما ضلوا الطريق فاستأجروا أعرابيا ليدلهم عليه ، فقال : إنى والله لا أخرج معكم حتى أشترط لنفسى قالوا : فماذا تشترط لنفسك قال « يدى مع أيديكم فى كل ماتتناولون وتعملون ، وذكر والدى عليكم محرم » .

ثانيا : تقدير مجهود العامل تقديرا قائما على الإنصاف وعلى الحدب عليه ، فلا يجوز فى نظر الشريعة الاسلامية التى توجب معونة العامل أن ينتهز أصحاب الأعمال فرصة حاجته الشديدة إلى العمل فيبخسوه حقه ويغبنوه فى تقدير أجره الذى يستحقه

نظير عمله ، ولا بد أن يكون ضامنا لنتيجة مجهوده وكده ، ولذلك منعت كثيرا من المعاملات التى لا يتحقق فيها عمان العامل لأجره عند عقد العمل ، وهذا هو علة منع جواز إعطاء الأرض للعامل يزرعها على أن يكون أجره مما يخرج منها ، لجواز أن لا تخرج الأرض محصولا ، وإن كان كثير من الشرعيين الاسلاميين أجازوه لما فيه من تبادل المنفعة بين الناس ، وللثقة الغالبة بإعطاء الأرض ثمراتها كما لا يجوز أن تكون أجرة العامل فى عقد العمل مجهولة القدر ، بل لابد أن تكون معلومة معينة ليعمل العامل على أساس واضح ، وليرفع عنه الحيف ، وفى الحديث : « من استأجر أجيرا فليعلمه أجره » .

وتحث الشريعة الاسلامية دائما أصحاب الأموال على ترك الطمع فى أجرة العمال وعلى أدائها لهم كاملة ، وتعدهم بذلك خير الدنيا والآخرة . وفى الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه « أن ثلاثة اتووا إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت الصخرة . فكان مما دعا الله به أحدهم أن قال : اللهم إنى استأجرت عمالا فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاء بعد حين فقال : ياعبدالله أد إلى أجرى ، فقلت له : كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم ، فقال : ياعبدالله لاتستهزىء بى ، فقلت : إنى لا استهزىء بك ، فأخذه كله فلم يترك منه شيئا » .

وتلزم الأجرة بتمام العمل ، أو بشرط العامل دفعها قبل العمل بشرط التمكن من الحصول على المنفعة ، أى العمل المقصود .

ثالثا : عدم إرهاق العامل وإعناته فى العمل . وفى الحديث الشريف : « ولا تكلفوهم مالا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم » وقال شعيب لموسى عليهما السلام حين اتفقا على أن يعمل له موسى فى ماله : « وما أريد أن أشق عليك » .

فإذا أدى تصرف أصحاب الأموال إلى إرهاق العامل إرهاقا يضر بصحته فللعامل حق فسخ العقد ، وله أن يرفع الأمر إلى المسئولين لدفع هذا العنت ، . ورفع الأمر إلى أولى الامر والتحكيم حين الخلاف . وإنصاف من هو بحاجة ماسة إلى الانصاف ، قاعدة مقررة فى شريعة الاسلام .

رابعا : حرية العامل فى الأعمال المالية أحيانا ، فلا يجوز أن يحجر رب المال فى حرية العمل على من وكل إليه استثمار ماله ، فلا يصح أن يشترط عليه أن لا يتعامل إلا مع أناس معينين أو فى مكان خاص . وذلك لأن المستثمر مادام مأنوسا فيه الكفاية والمقدرة على الاستثمار فلا يصح أن تقيد مواهبه ؛ لأن هذا التقييد

يكون أحيانا عائقا دون غاية مايريد من الحرية فى الاستثمار أو معطلا لمواهبه الاقتصادية فى سبيل الربح .

خامسا : دعوة الأغنياء الذين لايقدرون على استثمار أموالهم ، إلى إعطائها للقادرين على ذلك ممن ليس لهم مال ، بشرط أن يؤنس فيهم الأمانة وحسن التصرف والصدق والإخلاص ، قضاء على مشاكل البطالة ، ولذلك شرعت الشريعة الإسلامية تشريعات كثيرة من هذا القبيل كالمزارعة والمساقاة وسواهما .

سادسا : العامل ليس ضامنا للمال إذا هلك فى يده بدون تعد منه أو تقصير فى حفظه ، أما إذا هلك بتعديه فعليه الضمان وهو مسئول ، فإذا شرط رب المال على العامل أن يكون ضامنا لرأس المال إذا هلك فى يده بدون تعد أو تقصير فسد عقد العمل .

سابعا : حق العامل فى فسخ العقد :

للعامل الحق فى فسخ عقد العمل فى أحوال كثيرة ، منها : أن يصيبه مرض يحول بينه وبين المضى فى العمل ، أو أن يكون وقت العقد صبيا مميزا ثم أدركه البلوغ ، أو أن يشترط رب المال عليه ضمانه رأس المال إذا هلك فى يده ، أو أن يخل رب المال بشرط من شروط عقد العمل ، إلى غير ذلك من المبررات .

ثامنا : العامل وحق التعويض :

وللعامل الحق فى أخذ تعويض من رب المال فى بعض أحوال ، منها :

(ا) أن يتعدى عليه رب المال فيتلف عضوا من أعضائه مثلا .

(ب) أو أن يكون العامل لم يبلغ سن البلوغ بعد ، فإذا أصابه ضرر أو هلك أثناء عمله الذى استؤجر له فان المستأجر يكون مسؤولا عنه ، فاذا قتل الصبى خطأ كأن وقعت عليه جدران المصنع الذى يعمل فيه فديته على عاقلة رب المال وعلى رب المال الأجر الذى كان يستحقه المقتول . وإذا أصيب بشىء من الضرر كان عليه التعويض ، أما إذا كان العامل رجلا عند عقد العمل فليس له حق التعويض لأنه مميز مسئول عن نفسه ، وقد قبل العمل بعد أن رآه وعرف تبعاته ، وإن كان من الإحسان فى المعاملة مساعدة رب المال له بأداء تعويض مناسب لما أصابه ، ولولى الأمر أن يحكم بمايراه من ذلك التعويض . وللاحسان فى المعاملة فى الإسلام نصيب كبير .

تاسعا : لايصح لرب المال أن يعقد عملا مع صبى غير مميز ولا مع مجنون . لأنهما لايعرفان التبعات ولاتلزمهما مسئولية ، حيث لم يدركا حد التمييز ؟

عاشرا : ليس لرب المال أن يقصى العامل عن عمله إذا نقصت مقدرته على الإنتاج

بمرض لحقه من جراء العمل أو بسبب هرم أو شيخوخة لحقته بعد ان قضى شبابه وأوقات نشاطه الحيوى فى العمل لرب المال .

والقاعدة العامة فى ذلك أن الغرم على قدر الغنم ، فاذا اتفق رب المال مع شاب على العمل فقضى مدة نشاطه معه ثم أثرت صحته أو شيخوخته على مقدرته فى الإنتاج ، فليس لرب المال طرده من العمل ، بل عليه أن يرضى بإنتاجه فى الشيخوخة كما كان يرضى عن إنتاجه فى الشباب .

ويرمز إلى هذه القاعدة حديث عن رسول الله صلوات الله عليه معناه ، أن رجلا أرهق جملا له فى العمل فهرم فأراد أن يذبحه ليستريح من عبء مؤونته فقال صلوات الله عليه : أكلت شبابه حتى إذا هرم أردت أن تنحره . فتركه الرجل .

الحادى عشر : حق العامل فى الراحة الاسبوعية .

ففى الفقه الإسلامى لو استأجر رجل يهوديا شهرا كاملا كانت أيام السبوت مستثناة من العمل .

هذا هو الحكم والعامل يهودى ، وكذلك إذا كان نصرانيا فله أجازته الاسبوعية (الأحد) . . . فما بالك به لو كان مسلما ؟ .

هذه هى بعض حقوق العامل التى يقرها التشريع الإسلامى وينفذها ، ولكن الواجب على العامل بعد ذلك كثير ، فعليه الإخلاص فى أداء العمل ، وعدم الطمع فى رب المال ، والأمانة ، والمحافظة على المال الذى يعمل فيه محافظته على ماله نفسه ، وهو مطالب بأن يتعاون مع رب المال تعاونا فعالا مثمرا إلى غير ذلك من الواجبات التى يلزمه بها التشريع الإسلامى

التضامن الإجتماعي
في شريعة الإسلام

الاسلام يحث على العمل ، ويحارب البطالة ، ويفرض ألوانا من المعاملات التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء في ميدان العمل ، ويتاح فيها للفقراء فرصة استغلال مواهبهم استغلالا واسعا ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة ؛ وكالشركة ، وكالعمل ، والإجارة ، والوكالة ، وسواها.

فاذا عجز الانسان عن العمل فهناك ألوان من المساعدات الاجتماعية التي تؤمنه على حياته ، كالزكاة ، والصدقة والاحسان ، وكالملاجيء العامة التي تفتح الدولة أبوابها للعجزة والمساكين واليتامى والأرامل ، وكأموال الأوقاف العامة للمسلمين التي تصرف في وجوه الخير والبر والاحسان ورعاية شؤون الفقراء .

وقرر القرآن الكريم حق الفقراء في أموال الأغنياء : « وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . والمال في يد الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه ، وأوجب رده على عياله من الفقراء .

ويحث الرسول الأعظم على وجوه الخير والبر والاحسان والتضامن الاجتماعي : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ، « الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » ، « من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف سنين » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، « من لا يرحم لا يرحم » ، « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . كما أوصى بالجار أشد وصية وآكدها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، المهاجرين الفقراء الذين جردوا من أموالهم وأخرجوا من أوطانهم ، والأنصار الذين كانوا يقيمون في أموالهم وأهليهم وأولادهم : وكان الإيثار أغلب شيء على المسلمين ، أرأيت عبادة ابن الصامت وقد أهديت له هدية ، ومعه في الدار اثنا عشر من أهل بيته ، فقال : اذهبوا بهذه الهدية إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، فذهب بها الوليد ابن عبادة ،

فكان كلما جاء أهل بيت قالوا له : اذهب بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها . حتى رجعت الهدية إلى عبادة ؟

وقرب الاسلام مع ذلك بين الفقراء والأغنياء ، بالزكاة والارث والوصية ونظام الوقف وسوى ذلك من التشريعات التى تتجه إلى إنقاذ الفقير وتمكينه من الحياة ورفع مستواه فى المجتمع .

وهناك بعد ذلك كله لعلاج الفقر ، والقضاء على الحاجة ، بيت مال المسلمين الذى يلزم بالقيام على شئون الناس ، وخاصة الفقراء لسد حاجاتهم . وكان للفقراء والمساكين والأرامل واليتامى وأبناء السبيل نصيب معلوم يجرى عليهم من بيت المال . كما كان لهم نصيب فى الغنائم ونصيب فى الزكاة

وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، إلا عبدا مملوكا . ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم كل ما رد إليه من مال على المسلمين بالسوية ، وكذلك عمر . ويروى أن عليا كان يقسم ما فى بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئا .

وعمر بن الخطاب يقرر فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما دام بدار الاسلام ، ولقد رأى ذات يوم يهوديا يستجدى ، وعلم أنه ألجىء إلى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه . وفى سفره إلى دمشق أمر بمثل هذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجذام فلم يجدوا إلى العمل سبيلا . وكان من هذه السياسة العادلة التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج ، وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان عمر يفرض لهم

أيضا من بيت المال مايكفيهم، كما يفرض لولى كل طفل رزقا يعينه على تنشئته وتربيته(١)

فهل بعد ذلك نظام أكمل، للضمان الاجتماعى ، والتأمين الاجتماعى ، من هذا النظام ؟

إن الغرب فى القرن العشرين لم يأت بجديد، إن أصول حضارة الغرب، مأخوذة من مبادىء الإسلام وشريعته الخالدة ، وأعمال خلفائه الأولين ومآثرهم فى العدل وسياسة الملك ومعاملة الرعية .

(١) مجلة الأزهر — المجلد الثانى والعشرون — عدد شعبان سنة ١٣٧٠هـ — من مقال للدكتور محمد يوسف موسى بعنوان : ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

الإسلام

ونظام الطبقات

ونظام الطبقات الذائع الآن فى كل مكان لايقره الإسلام ، وتحاربه مبادئه بكل ما نستطيع.

طبقة النبلاء ، وطبقة المترفين والأغنياء ، وطبقة الحكام ، يجب أن تهبط إلى مستوى طبقات الشعب .

يجب أن تلغى جميع مظاهر الترف من حياتها ، وإن تنفذ الضريبة التصاعدية لتستنفد هذه الأموال التى تضيع فى اللهو والملذات والشهوات والمجون الآثم الضار .

ويجب أن يلغى نظام الألقاب إلغاء تاما من الوجود وأن تقوم رقابة دقيقة على أموال الدولة .

ألغوا نظام الطبقات ، وقربوا بين الناس فى حياتهم ، وخذوا الناس جميعا بقوة القانون وأضربوا على أيدى العابثين فى كل مكان .

فلا جدوى فى حياة تقوم على رفع أناس لمستوى النبلاء ، وخفض آخرين لمستوى الحيوانات .

إن بعض مترفينا ينفق على كلب له فى الشهر مالا ينفقه على الفقراء فى عام وينفق فى الحفلات الساهرة وميادين السباق وموائد الخمر أو القمار ، ما يكفى لمعيشة آلاف الأسر والعائلات .. إننا فى حاجة إلى أيد حازمة ، تعمل للشعب وفى سبيل رفاهيته ما يجب أن يعمل ، وتهتدى بمبادىء الإسلام وأهدافه فى الاصلاح . لكن متى يجود الزمان لنا بنظير لعمر بن الخطاب ، يقود الناس إلى السبيل المستقيم؟

إن كبراءنا وسادتنا ، على اختلاف طبقاتهم ، يجهلون أبسط المبادىء فى العدالة الاجتماعية ، ولا يعرفون ماعليهم من تبعات ومسؤوليات ، باعتبارهم مسيطرين على شؤون الناس ، ويفرطون فى حق الدين والأخلاق تفريطا شديدا حتى ليحلون ماحرم الله .

وكبراؤنا وسادتنا، من كل لون، يجهلون جهلا تاما مبادىء الإسلام الخالدة فى الحرية والاخاء والمساواة، وفى توزيع العدل بين الناس.

إنهم لم يقرءوا تاريخ أعلام الإسلام وحماته وخلفائه، ولم يسمعوا عن جهاد الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه. لازالة الامتيازات بين الناس والطبقات ولالغاء الفوارق الاجتماعية، ولجعل السيادة العليا للحق والقانون والعدالة.

إنهم يقرون (فلانا) على السرقة، والخيانة، والغش، وبيع الوطن، مادام (فلان) هذا يتمتع بالألقاب والرتب والنفوذ والجاه، ولا يقرون (عمرا) على ذلك مادام عمرو من رعاع الناس، ودهمائهم، فأين عملهم من عمل الرسول الأكرم وقولهم من قولته الخالدة: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وأين هذا من عدالة عمر، وسطوته على سادة المسلمين، وأخذه للفقير حقه من الغنى، وقوله: «ألا إن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه».

إن شعار الاسلام العدل التام، وأن الحاكم راع ومسئول عن رعيته أمام الله. رحمك الله ياعمر إن قولك المأثور: «من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه» لايزال يرن فى أذنى.

وزعوا العدالة بين الناس بالقسطاس المستقيم، حتى يطمئن كل ذى حق على حقه ويشعر كل إنسان بأن من حقه على الدولة أن ينعم بالحياة وبالحرية والأمن وبرد العدالة: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا».

لقد أصبحت السيادة للشهوة والمجون والإباحية والخلاعة، وللالحاد وتحطيم سياج الشرف والعفة والكرامة، واستبيحت الاعراض علنا، وعلى مرأى ومسمع من الناس؛ وفقدت الرجولة والمروءة والشهامة والأمانة.

لا، ثم لا، أيها السادة، لا تستقيم الامور، ولا تنتظم شؤون المجتمع بمثل هذا الاعوجاج الشديد، أين نحن مما نقرؤه عن انجلترا، وعن قصة ولية العهد، التى لم تستطع ان تجد المنسوجات اللازمة لملابس زفافها؛ لأن الأربعة الأمتار التى لها فى بطاقتها لا تغنى شيئا، فتبرع أفراد الشعب لها بنصيبهم المقرر فى البطاقات من المنسوجات، وبذلك تم لها صنع ملابس الزفاف.

حرية وكرامة

كان الحاكمون فى العصور القديمة يضفون على أنفسهم صفات الألوهية، ويعتقدون أن دمهم الملكى الموروث نفحة من السماء، وأنهم فوق كل مسئولية وإرادة، وكانت الشعوب لا حول لها ولا قوة، وكانت عقيدة العامة أن الحاكم ظل الله فى أرضه، وأن إرادته من إرادة الله، وكان الاستبداد والاضطهاد وقتل مقومات الشعوب ووأد الحريات عملا مشروعا، وشيئا مباحا. مادام ذلك كله بأمر الحاكم ومشيئته.

وجاء محمد برسالته الكريمة يبشر بها بين الناس كافة، ويهدم بها هذه العقائد الفاسدة، والأوهام الضالة، فأعلن حرية الشعوب، وأذاع حقوق الإنسان، وأبطل الرق فى شتى صوره، وحارب الظلم والاضطهاد والاعتداء والحيف على حقوق الناس وكرامتهم وحريتهم، ونادى بأن للمحكومين ما للحاكمين. وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمة مصدر السلطات، وأن الحاكم مسئول عن أعماله، وأنه مثل كل إنسان يجب أن يخضع للقانون والدين، بل ضاعف من مسئوليته أمام الله، وحمله كل ظلم وفساد وجور وخطأ واضطهاد يقع على الناس، وألزمه أن يسير على الجادة، وأن يحكم باسم الشعب لخير الشعب، وأن يعود إلى الحق إذا تبين الخطأ فى عمله، وأن يحترم حقوق رعيته ويحافظ على حرماتها وكرامتها وحرياتها وأموالها وأعراضها، وأن يحافظ على الأمانة التى استودعه الله إياها، وسيسأله الله عما صنع فيها، وألا يبرم أمرا دون أولى الرأى والمشورة والصدق والخير والمعرفة الصحيحة بالأمور، وفى ذلك يقول محمد صلوات الله عليه: كلكم راع ومسئول عن رعيته .. الخ ويقول أبو بكر خليفة رسول الله: «أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فاعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى».

نادى محمد بالمساواة والاخاء والحرية، وشرع شرائع الديمقراطية الصحيحة ورفع منزلة الشعب فجعله هو المهيمن على الحكام، وأوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم يجعل على مخلوق طاعة فى معصية الله، وحرم على الرؤساء أعمال النهب والسلب وقتل الناس والاستبداد بهم، وألزم الرؤساء والمرؤوسين باحترام القانون السماوى الذى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين المحكومين بعضهم مع بعض، وبين كل إنسان ونفسه.

شريعة واضحة ، ونظام محكم ، ومذهب واضح فى الحكم ، فرضه الإسلام ودعا إليه وحث عليه ، وألزم به .

وفى العصور المتأخرة تنكب الناس الطريق ، وحادوا عن الدين ، وانصرفوا عن مبادىء الإسلام ، وعاف الحكام سيرتهم الأولى ، فأصبح الحكم استبداديا بعد أن كان شوريا ، وصار الحاكم هو المهيمن على كل شيء دون الشعب ، وأصبحت إرادة الشعب لاتساوى شيئا بجانب إرادة الحاكمين ، وأباح الملوك والأمراء والمسئولون عن الشعوب لأنفسهم قتل الحرمات ، ووأد الحريات وسفك الدماء ونهب الأموال والعبث بكل شيء واطراح أوامر الدين ، والتفريط فى الأمانة المقدسة الملقاة على كواهلهم والنظر إلى كل شيء للرعية على أنه ملك خاص للحاكمين يتصرفون فيه كما يريدون رغما عن إرادة مالكيه ، واعتبار أموال الدولة مالا خاصا للحاكم يبعثره كما يشاء ، وينفقه على أهوائه وملذاته بغير حساب فأقاموا صرحا شامخا للاقطاع أخذ الأغنياء فى ظله كل شيء وحرم الفقراء من كل شيء .

إن الاسلام يأبى أن ينصب الحاكم نفسه طاغية ، وأن يخلع على نفسه صفات التقديس ، وأن يزعم أنه فوق المسئوليات والقوانين . . والاسلام دين العدالة والحرية والمساواة ، فهو يحرم الظلم والطغيان واصطناع الفوارق بين الناس ، ومن ثم كره الاسلام الحاكم الظالم ، والوالى المستبد ، وحذر الرؤساء من الحكم بين الناس بالاهواء والشهوات والمحسوبية .

والحاكم فى رأى الاسلام له رسالة عالية . فهو حاكم دستورى ، وحكمه يجب أن يكون مبنيا على الشورى وتبادل الآراء والإيمان بالحق فى كل شيء ، فالحكم شورى أساسه مصلحة الجماعة والدولة والوطن . . ولا تجوز طاعة الحاكم إذا جار أو ظلم ، فطاعته مقيدة بقيود كريمة فاضلة . . ومن ثم يجب أن يكون الحاكم من أمثل المسلمين خلقا ودينا وعفة وأمانة ونزاهة وإيثارا للمصلحة العامـــة ، وأن تكون ولايته للحكم بعد اختيار صحيح حر من الشعب ، فهو حكم فيه خصائص الحكم الجمهورى ومزاياه الدافعة . . ومن ثم كان الحكم الملكى الموروث أبعد شيء عن روح الدين وأهدافه العالية ومراميه الكريمة ، ولقد اختير أبو بكر خليفة لرسول الله باختيار الصحابة له بعد وفاة الرسول الأكرم ، واختير عمر باختيار أبى بكر له كما اختير عثمان من جماعة رشحهم عمر قبل وفاته لتولى منصب الخلافة العظمى ، لظروف تتعلق بالمصلحة العامة للأمة الاسلامية إذ ذاك ،

على ان جمهور المسلمين رشحوه لهذا المنصب الخطير . . فلم يرشح أحد للخلافة إثر عهد الرسول وفى عهود خلفائه الراشدين ، لأنه ابن أمير أو وال أو خليفه. ولكن رشح لأنه أصلح الأمة ليعتلى فيها منصب الإمامة الكبرى ، ويكون خليفة لرسول الله صلوات الله عليه .

أن الحكم الملكى الموروث لايعرفه الاسلام، ولا يؤمن به، لانه حكم يقوم غالبا على الطغيان والظلم والاستبداد والمحسوبية ، وعلى الفروق المصطنعة بين الناس التى هدمها الاسلام ورسوله الكريم ، وكثيرا ما يؤول الحكم الموروث إلى تسخير الدولة كلها لمصالح فرد شاءت له الأقدار أن يكون ابن ملك وأمير . . وهذا الحكم الموروث يخصص أسرة من الأسر بسيادة الناس ، وهذا التخصيص ليس له دعامة من العقل أو المنطق ولا من الدين نفسه ، لاسيما وأن الاسلام دين الديموقراطية والمساواة والاخاء .

إننا نجاهر بأن الحكم الوراثى يمشى دائما فى ركاب الاستعمار، وكثيراً مافرض المستعمرون على الشعوب أسراً غريبة عنها ،ووضع فى يد هذه الأسر مقاليد السلطان والولاية على الناس دون كفاية أو موهبة . . ونجاهر بأن الملكية نظام ليس له سند من الدين ، وأن الحكم الجمهورى هو أقرب شيء إلى مبادىء الاسلام وأصوله وغاياته الشريفة وأهدافه المثلى .

افكار جديدة

منذ قرن ونصف من الزمان، قامت الثورة الفرنسية، وأذاعت فى أوربا والعالم كله، مبادىء الحرية والإخاء والمساواة . . وقام على أساس هذه المبادىء عهد جديد فى تاريخ الإنسانية، هتف به رجال الفكر، وأشاد به المصلحون فى كل مكان، ونسبوا كل فضل فيه إلى فرنسا مهد الحرية والنور. ويعلم الله أنهم كانوا فى ذلك أغرارا وأنهم نسوا الإسلام ومبادئه الخالدة التى كانت أول لبنة فى صرح الحضارة الإنسانية.

ولقد هال الناس، ولا يزال يهولهم، هذا الفرق الشاسع بين هذه المبادىء الحلوة الجميلة، التى طبقها الغرب فى العالم، فكانت شرا وبلاء واستعمارا مخيفا، قتلا للحريات والشعوب، وبين مبادىء الإسلام السمحة الكريمة. التى قامت عليها دول، نشرت العلم والحضارة والنور والحرية والإخاء فى العالم كله، وأنقذت الدنيا من ظلمات العصور الجاهلية، ورفعت قدر الفكر الإنسانى؛ ونقلت تراث الأقدمين وحفظته وخلدته وأذاعته، واقتبس الغرب كل مقومات حضارته وعمرانه وحياته من تاريخها ومبادئها وأفكارها وثقافاتها وحضاراتها الزاهية المشرقة .

ومضت السنون متتابعة، ووقعت الحرب العالمية الأولى، وقامت عصبة الأمم تؤكد فى مبادئها الحريات العامة، وحقوق الإنسان. ولكن عصبة الأمم فشلت فى رسالتها، وتنكر أعضاؤها لمبادئها ولحريات الأمم والشعوب والجماعات. وحدثت الحرب العالمية الثانية، التى كادت تودى بمقومات الحياة والحضارة : والتى عصفت بكل معانى الإنسانية .

وبعد أن هدأت نيران هذه الحرب الضروس، قام المفكرون فى أوربا وأمريكا، يدعون إلى مبادىء جديدة، وينادون بضرورة الدفاع عن الحريات الإنسانية، وحقوق الإنسان فى الحياة .. ولا ننسى صيحة « روبرت لى همبر » عام ١٩٤٥ فى أمريكا ودعوته إلى إقامة اتحاد عالمى، لتسود الديمقراطية المجتمع الدولى كله، على أساس من حرية الأمم والأفراد، ويكون الناس جميعا رعية هذا المجتمع العالمى، الذى يجب أن تقوم حكومته على القانون لا على المعاهدات، لأن عصر المعاهدات قد مضى وحل محله عصر القانون .

وقامت هيئة الأمم المتحدة التى نص فى صدر ميثاقها على مايأتى : نحن شعوب الأمم المتحدة ، وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى جلبت فى خلال جيل واحد مرتين على الإنسانية أحزانا يعجز عنها الوصف . وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للانسان وبكرامة الفرد وقدره ، وبما للرجال والنساء ، والأمم كبيرها وصغيرها ، من حقوق متساوية ، وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدما ، وأن نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .. وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معا فى سلام وحسن جوار ، وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى ، وأن نستخدم الآلات الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والإجتماعية للشعوب جميعها ... وقد قررنا أن نوحد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض ... »

وقامت على أساس ميثاق هيئة الأمم المتحدة فروع رئيسية لهيئة الأمم ، هى : الجمعية العامة ، ومجلس الأمن ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والمجلس الاقتصادى والاجتماعى .

وفى ديسمبر ١٩٤٩ أقرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، واذيع فى كل مكان .. وسنشير إلى مبادئه فى الفصول التالية ، ومن العجب العجيب ، أن هذه المبادىء حين يبحثها الباحث ، يجد أنها فى نصوصها وأهدافها ، لاتخرج عن مبادىء الإسلام الكريم ، ونصوصه المأثورة التى تروى عن رسوله ودعاته وأعلامه ومفكريه .

على أنه ليس الإعلان الحاضر أول وثيقة لحقوق الإنسان فهو لم ينفك عن السعى والصراع فى سبيل نوال هذه الحقوق . والتاريخ يسجل محاولات كثيرة قام بها أنبياء وفلاسفة ورجال حكم ومشرعون . فلم يبخلوا براحتهم ودمائهم لكى يخففوا عن كاهل الشعب وطأة الطغيان والفقر والجهل والتعصب . وإننا لانقيس أعمالهم بمقياس الفشل والنجاح ، بل بمقياس الذين حاولوا إدخاله إلى مجتمعاتهم . وإذا قيس هذا البيان بالبيانات الأخرى فى نوعه . فالبيانات السابقة من العهد الأعظم ١٢١٥ ، إلى ١٦٧٩ ، إلى وثيقة الاستقلال الأمريكى ١٧٧٦ ، إلى إعلان حقوق الإنسان والمواطن ١٧٨٩ تلتقى عند نقطة واحدة هى أنها جاءت تعبيراً عن ضمير أمة فى مرحلة من مراحل حياتها ، وتتفق فى طلب الحرية والمساواة ، ورفض الاستبداد والاستعباد والامتيازات .



اعلام الغرب فى الاسلام

قال كاين بيلر فى خطاب جامع ألقاه بتاريخ ١٧ اكتوبر ١٨٨٧ ما نصه :

« إن الإسلام قد سبق النصرانية بمراحل شاسعة، فإن النصرانية فى بعض الجهات أخذت فى التقهقر إلى الوراء أمام الدين الإسلامى ، فى حين أن الوسائل التى تستعملها لتنصير الأمم الإسلامية يفشل أمرها ، والشباك التى تنصبها لهم تنقطع حبالها .. والدين الإسلامى يمتد الآن من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه وثبت قدمة فى إفريقيا وآسيا ، وهو من غير شك ينشر الإخاء والمساواة »

وقال اللورد استانلى وقد سئل : لم أسلمت وقد كنت مغرقا فى نصرانيتك ؟ :

« أو اغمط الفضل أهله ، أو أجحد الله وعله . أنا مسلم ، رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره . وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث واجهاد ، فلا أقبل به بديلا . . أنا مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه »

وقال توماس كارليل :

« ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية . وكل ما لم يكن بحق ، كأنه حطب جاف أكلته نار الإسلام فذهب ، والنار لم تذهب . . ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة ،

منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فاذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة » .

وقال اللورد هدلى :

« إن فى انجلترا ألوفاً من الأفراد المثقفين ، وهم مسلمون فى قلوبهم ، وإن لم يعلنوا ذلك جهاراً ، وقد شرحت لكثير منهم ماهية الإسلام فكانوا يجيبوننى ، إذا كان هذا هو دينك ، فإنا إذن مسلمون لأن هذا ما نعتقده ونفكر فيه » .

وقال فارس الخورى بك أحد وزراء سوريا المسيحيين ، من خطبة له ، فى إحدى الحفلات العظيمة ، التى أقيمت بدمشق ، عام ١٩٣٥ ، لإحياء ذكرى مولد محمد صلوات الله عليه (١) . وذلك فى رسول الإسلام ، وفى مبادئه الخالدة .

« إن محمدا أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذى جاء به أولى الأديان وأتمها وأكملها . وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس إليه باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية . إن محمداً الذى تحتفلون به وتكرمون ذكراه ، أعظم عظماء الأرض كافة ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم ، على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها » .

إلى غير ذلك ، من آراء المفكرين ، فى الغرب والشرق ، مما تركنا الإشارة إليه ومما سيجىء بعضه ، وهى كلها شهادات ناطقة ، بجلال الإسلام ، وعظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، واعترافه بحقوق الإنسان ، وبحريات الشعوب ، وإنفاذه للانسانية

---

(١) نقلا عن جريدة المقطم عدد ١٩٣٥/٦/٢٧ تحت عنوان : « وزير مسيحى يصف الشريعة الإسلامية » .

من براثن الجهل والخوف والاضطراب والظلام .

وفي ختام هذا البحث نسجل كلمة لجول لابوم في تصوير حالة العالم قبل ظهور الإسلام ، في القرن السادس ، قال :

كان جو العالم الأرضي متلبداً بسبب الاضطرابات الوحشية في كل جهة، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير .

« وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يأخذ بعواطف ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً ، وإن كان وقتيا ، إلا شيء واحد ، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحرب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الترقي في المستقبل ، لكانت البربرية أسرعت في خطرها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية ، واستحالت إلى وحشية محضة .

مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الارض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدينة : ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوربا إلا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغط إلا في غاية الضعف والضؤولة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين ، فان علاقاتها مع آسيا لم تكن تتعدى حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم ، التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من الفرس الى تبعية امبراطور القسطنطينية تبعية اسمية ؛ أو رفع نير تلك التبعية الإسمية عنها .

على أن ذلك الوادي الأخير كان يهم بلاد العرب جداً ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربي من نهر الفرات ، وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري ، الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ، ولم ينجلوا

عنه تماما إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانه المتأخرين ، وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة أو علاقة ، فهى بلاد الحبشة ، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين ، والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين ، فكانوا لا يحلمون بوجودها . ويقول كوسان دوبر سوفال فى كتاب تاريخ العرب :

« إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحرارا لاسلطة عليهم ، وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لاغبار عليه » .

ثم قال لابوم : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان » . يقول دوزى فى مؤلفه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية . والعيسوية . والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم ، نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ماوجد فمنسوب الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتذهبون بها لايعرفونها إلا معرفة سطحية ، وكانت هذه الديانات تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار ، حيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء » .

« أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم .

« وكانت طبائع العرب وأخلاقهم لاتدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم

يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، ولولم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضا - وهى نقطة تلفت النظر - تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ، ولولم يكن - وهو أمر أغرب من سابقه - إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعياً إلى الالتفات بنوع أخص ،

ويقول بعض الباحثين : إنا نستخف اليوم بكثير من محتويات هذه الوثائق ، لكن فى عودة الفكر بضعة قرون إلى الوراء مايقنعنا أن هذه الحقوق ، والحريات الأولية البديهية فى نظرنا كانت أكثر الآراء تطرفا وشذوذاً وإغراقاً فى الثورة أيهما أكثر تطرفاً : أن تقول : للانسان حق الحياة وحق العمل ، وحق العلم ، أوأن تقول : إن الشعب مصدر السلطات وليس الله ، والملك لايحكم بموجب الحق الإلهى وليس مطلقاً مستبداً فى أحكامه ، بل إنه مسؤول عن أعماله ؟ ! أما براءة حقوق الإنسان ١٩٤٨ فقد اشتركت فى وضعها دول كثيرة ، ووافقت عليها ثمان وأربعون دولة . ومع ذلك فانها بعيدة عن أن تكون التعبير الصادق عن الضمير العالمى ، وعن التيارات الفكرية التى لم تساعدها الظروف والملابسات على الظهور. وإن الدول التى منيت بالهزيمة فى الحرب الأخيرة لم تشترك فى وضع ومناقشة وإقرارهذه الوثيقة . ومرد ذلك إلى أن هذه الدول تمثل الخطأ لاالصواب ، والباطل لاالحق . ولوغربلت هذه الأقوال لرأيت أن الهزيمة علة هذا البلاء ، وهى التى جعلتها مسؤولة عن كافة الشرور والمآثم التى صاحبت هذه الحرب . لهذه الأسباب أقصيت وجهة نظرها . هل تكون هذه الوثيقة الإعلان الأخير فى سلسلة تطور الحقوق والحريات ؟ وهل القيم التى تتضمنها صحيحة ونهائية فى سلم القيم ؟ وهل تخطىء أمة إذا ارتضت بعضها ورفضت البعض الآخر ؟ من هو المسؤول عن تنفيذ هذه المبادىء أومخالفتها ؟ هل تكره الأمم على الأخذ بها أو أنها تظل لها حريتها ؟ من يعاقب الدول القوية التى تخرق حرمة هذه المبادىء ؟ ومن يدين الحكومات التى تعامل شعوبها معاملة مضادة لنصوص هذه البراءة وروحها ؟ .

وستجد فى الفصول التالية مايقنعك ، ويقوى إيمانك بهذه الفكرة السليمة ، التى يؤيدها العقل والبحث الصحيح .



صفحة جديد فى تاريخ البشرية

فتح الإسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حافلا : بأروع جهاد عرفته الإنسانية وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء . وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان ، واستعباد القوى للضعيف . : ثورة أنقذت العالم من حياته الذليلة البدائية وأحالت ظلام الحياة نورا . وخوفها أمنا وسلاما ، وظلمها عدلا وإنصافا وحرية عما شهد به أفذاذ المفكرين المؤرخين ، ودعاة الإصلاح .

ومن أولى من محمد بن عبدالله صلوات الله عليه بأن يرفع فى العالم منارة السلام ، وراية المدنية ، وأن يصل الأرض بالسماء . ويسمى بالإنسان ليبلغ ما كان ينتظره من حياة زاهرة ، وحرية نادرة ، وحضارة باهرة ، فيها الأمن والامل والاطمئنان والرجاء ؟.

لقد كانت رسالة محمد صلوات الله عليه ، أول إعلان عالمى لحقوق الإنسان وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، وإصلاحا شمل جميع ميادين الإصلاح .

صلوات الله عليه ، ورفعه إلى أعلى عليين ، وأكرمه فى أمته كما أكرم أمته به . إنه على ما يشاء قدير .

جاء الإسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ولا شريعة اجتماعية عادلة منظمة . فبدلهم من ذلك كله نظاما موحدا ، وحياة كريمة مهذبة ، فى الاجتماع والسياسة ، وفى الدين والدنيا .

واعترف الإسلام للانسان : بحريته ، واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى وجعله حرا طليقا من كل قيد ؛ إلا من الخضوع لدين الله ؛ وللحاكم الأعلى الذى يحكم بشريعة الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس . فرفع بذلك من كرامة الإنسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والإخاء ، التى هى أسباب وثيقة للمدنية والحضارة .

ونظم الأسرة على أسس اجتماعية سليمة ، فشرع الزواج وجعله رباطا مقدسا بين الرجل

والمرأة ، وجعل الأسرة هي الوحدة الصغيرة التي يتكون منها المجتمع والشعب ، وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها . وحرم العلاقات الآثيمة والبغاء ، لحفظ الأنساب ، ودعم كيان الأسرة . ورفع من شأن المرأة ، وجعلها شريكة لرجل في الحياة وفرض نفقتها ونفقة الاولاد على الزوج ، وحتم عليهما حسن التعهد الأبناء ، والقيام بتربيتهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، حتى يبلغوا مبلغ الشباب .

ودعا الإسلام إلى أن يكون الناس إخوة متحابين متعاونين في الحياة ، وساوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وحرم دعوة العصبية واستبدل بها دعوة الدين ، والطاعة لحاكم واحد يلزم شريعة الله ، وشرع كثيرا من الشرائع الاجتماعية ، التي تزيد في قوة المجتمع ووحدته ؛ كالحج والزكاة وصلاة الجماعة والإحسان . وحارب الرذائل الاجتماعية ، والعادات الفاسدة والتقاليد الجامدة ، وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم وحرياتهم وأباح الطيبات من الرزق . ومكاسب الإنسان الشريفة . وأيقظ الضمير وهذبه وجعله رقيبا على أعمال الإنسان ، كما ألقى عبء حفظ النظام ، والسهر على الأمن على كاهل الحاكم الأكبر ، ومن يعاونونه في خدمة الأمة ورعاية مصالح الناس .

وحارب الإسلام الأديان الفاسدة ، والعقائد الزائفة : وجه الناس كافة إلى الله وحده لاشريك له ، فرفع من كرامة الإنسان وشخصيته في الحياة ، ونبه من شأن العقل ، وحكمه في كل شيء ، فحارب التقليد والجمود ، ودعا إلى استقلال الإنسان بالتفكير ، وبذلك بعث العقل البشرى قويا فتيا يبحث في أسرار الوجود والحياة وطارد الأوهام الفاسدة التي تضعف من شأن الفكر ، وتدعوه إلى الكسل والخرف ، وتحمله على الإيمان الأعمى . والتسليم المطلق .

وبهذا أسس النهضة العالمية الكبرى التي يحيا الغرب والشرق في ظلالها

مبادئ الإسلام

هى السبب فى انتشاره

كان المسلمون منذ بدأوا حياتهم الحافلة ، بعد أن انبثق نور الإسلام وبزغ على العرب فجر عهد جديد ، فى كفاح ونضال وجهاد مستمر : حاربوا طغيان الأفراد والجماعات والشعوب فظفروا ظفراً مؤزراً « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » واكتسحوا الدول والأقطار ناشرين لهداية الله مؤيدين بروحه وأمنه ، حتى انتشر الإسلام فى كل مكان ، وعم ضوؤه الآفاق .

وكان هذا النصر العظيم معجزة كبرى بهرت الناس ، وحيرت المفكرين ؛ لأنه نصر خارق ، شمل جميع الميادين : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » فشملت الدولة الإسلامية أكثر أمم العالم المعروف آنذاك ، وكانت العواصم الإسلامية هى محور السياسة العامة ، ومحط أنظار الناس والنظم الاقتصادية التى شرعها الإسلام كانت هى النظم السائدة بين جمع هذه الشعوب ، والثقافة الإسلامية كانت هى المنهل العذب الذى ترنو إليه العقول والعيون ، ويستمد منه الناس ثقافتهم وعلومهم وفنونهم وآدابهم ، والنظام الاجتماعى الذى وضعه الإسلام وكفل به التضامن الاجتماعى بين الأفراد والجماعات والطبقات ، وجعل الغنى والفقير والكبير والصغير والأمير والعامل إخوة متحابين فى الله ، هذا النظام الرائع هو الذى كانت تحلم بأن تحيا فى ظلاله امبراطوريات كسرى وقيصر وشارلمان ، والذى ارتمت فى أحضانه كثير من البلاد والأمم ، وكذلك مناهج التفكير العامة وألوان الحضارة المشرقة عند المسلمين كانتا هما السائدتين فى البلاد الخاضعة لنفوذ الإسلام . فوق أنهما من الآمال العزيزة التى كان يحلم بها وبالعيش فى ظلالها الملوك والأمراء والعلماء والعامة فى جميع الأقطار .

هذا التقدم العظيم والروح الوثاب ، والنهضة الجبارة كان منشؤها الدين نفسه ، وشريعة الإسلام بما اشتملت عليه من آداب ونظم وأخلاق ومثل وعادات ونواميس وأهداف . . . فمبادئ الإسلام هى السبب الأول فى نشره وارتماء الأمم فى أحضانه .



لقد حارب الإسلام الضعف بجميع صوره وألوانه .

حاربه فى الفرد . فدعا إلى أن يكون المسلم قويا عزيزا كريما كما يقول الرسول الكريم : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف » ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » أى المعطى خير من السائل ، ودعا إلى العمل والجهاد فى سبيل العيش : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقدس حرمة الأموال والأعراض : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

وحاربه فى المجتمع ، ليقضى على الرذائل والشرور ، وعاقب عليها عقابا صارماً ، وأمر بشتى الفضائل الاجتماعية ، التى تكسب المجتمع قوة وأمنا وطهرا وخيرا ، وشرع قاعدة اجتماعية مثلى ، تصور لك آداب الإسلام وأصول دعوته ، وتبين لك إلى أى مدى كان التضامن الاجتماعى يسود الطبقات والجماعات فى ظلال الإسلام ، وهى كما يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وكما جاء فى الأثر : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » وهذا نظام اجتماعى أساسه حب مصلحة الغير ، والمحافظة على حقوق الناس وتعود الايثار والبر والخير والرحمة والتعاون ، ومقت الاثرة ، وبهذا وثق الصلات بين الأغنياء والفقراء ، كما قضى على العصابات ، ونشر الإنصاف والعدالة والحق والمساواة بين الناس جميعا ودعا الرأى العام الذى ربى على أصول دعوة الإسلام إلى أن يكون قويا جريئا ، لا يخشى فى الله لومة لائم ؛ بل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقف فى وجه الظلم والطغيان .

وحارب الضعف فى الأمة ، فجعل راعيها هو القوام على حقوقها ، والأمين على مصالحها ، والذائد الحامى الذمار عن أحسابها وشرفها وكرامتها ، والحاكم العادل الذى ينشر الأمن ، ويبعث الرحمة ، ويسوى بين الناس ، ويعطى كل ذى حق حقه .

ودعا الناس - مع دعوته إلى تكوين الأخوة الإسلامية القوية - إلى إخوة إنسانية عامة شاملة ، لا فرق بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

وهذا كله هو السبب فى مجد المسلمين الأولين وسيادتهم ، إذ آمنوا بهذه المبادىء ونهجوا على طريقها فى حياتهم وآدابهم وسلوكهم ، وهو السبب فى إنتشار الإسلام بسرعة خارقة للعادة فى جميع الأقطار والأمصار .

دفاع عن الإسلام

لايزال الإسلام كما كان حارس المدنية الأمين ، والمنقذ الأكبر للناس من الفوضى والانحلال ، والداعى للنهضة والتقدم والرقى ، والباعث على الخير والبر والإحسان والرحمة ، والمقوم لأفكار المسلمين من الزيغ والضلال والهوى والشر ، والحائل بينهم وبين المبادىء الهدامة ، والأفكار الباطلة .

هو الساعد القوى للحكومات على نشر الأمن والسلام والحب والتعاون فى قلوب المسلمين كافة ، فهو الذى يثقف العقول ويهذب النفوس ويحيى الضمائر ويرهف الإحساس ويحفز إلى الخير ، ويقيم من المجتمع الإسلامى وحدة تامة يسودها الإخاء والمساواة والحب والتعاون .

الإسلام حقائق واضحة ، وروح سمح ، وتجديد مستمر فى بناء النهضة ، ودفاع عن العدالة والحق والسلام . وليس طغيانا وعدوانا ، وإزهاقا للأرواح وسلبا للأموال ، وحبا للجريمة ورغبة فى الإفساد .

وإذا كانت العامة لا تفهم الدين فى الزمن الماضى ، فما أجدرهم بالوقوف على حقائقه وفهمه حق الفهم فى عصرنا الراهن ، بعد أن يسرت أسباب الثقافة الإسلامية وفهمها . ولقد كان انحراف العامة من المسلمين عن الدين سببا فى هذه التهمة الباطلة التى رددها المتعصبون من الأوربيين ، وهى أن الإسلام يقف فى طريق النهضة والحضارة لأنه دين الجمود والخمول .

ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، قل لى بربك : متى وقف الإسلام فى طريق النهضة ؟ ، وهو الذى نشر الحضارة والثقافة فى العالم ، ورعى العلوم والآداب فى عصور الظلام والفوضى ، ومهد لعصر الإحياء ، وساعد على حفظ وتجديد تراث الإنسانية الروحى والأدبى ، وقل لى بربك : متى كان الإسلام دين الجمود ؟ وهو الذى دعا إلى أروع المبادىء الروحية والاجتماعية والسياسية والإنسانية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ونشر مبادىء الحق والعدالة والإخاء والمساواة والديمقراطية الصحيحة قبل الثورة الفرنسية بأجيال مديدة .

لايزال الإسلام كما كان وكما يصوره أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود حين سأله هرقل عن دعوة محمد فقال : « يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم ». ولم يكن رسوله الأكبر زعيما دينيا متعصبا ، بل كان ملكا رحيما بالناس والحياة ، فأنقذ البشرية ودعا إلى تحررها وتجديدها ، وكان كما يقول حتى خصومه فى وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر »

ومع ذلك كله فلابد من أن نفهم ديننا فهما صحيحا ، وأن يكون سلوكنا فى الحياة وفق نواميسه ، حتى لا يرمى الإسلام بسببنا بتهم باطلة .

ما أجدرنا أن نؤمن بالدين إيمانا صحيحا ، وأن نفىء إلى الله وإلى الحق والإسلام .

الإسلام

دين الحق والقوة

ضربت لنا الأمم العظيمة فى الأرض أروع مثل . وأظهرت أمجد آيات القوة والبطولة والعزة والإباء ، فضحت بكل شىء . وبكل عزيز فى سبيل مجد الحياة وعزة الأمم ، وتناضلت نضال الأبطال لتفوز بتقدير الاجيال .

كل هذا والمسلمون صامتون لا ينطقون ولا يعملون ، يضحكون ولا يبكون - ويلهون ولا يجدون ، ويتناصرون لا على مجد بلادهم ولكن على مجد أشخاصهم ، فويل لهؤلاء المسلمين الذين لم يبلغ الإيمان قلوبهم ، فرددوه أقوالا ، ولم يؤدوه شرائع وعبادات وأعمالا .

الإسلام دين القوة ، فما بال المسلمين اليوم أهون الأمم على الناس ؟ وهو دين الجهاد والكفاح والعزة الطامحة ، فأين هؤلاء المسلمون وأين أولئك المؤمنون وأين أبطال الأمس ، الذين التفوا حول محمد ينشرون دعوته ويبلغون رسالته ويمجدون شريعته . ويضحون بدمائهم وأرواحهم فى سبيل كلمة الله ودعوة الحق والسلام .

محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار . وهو الذى كافح كفاح الأبطال وجاهد جهادا خالدا لم تعرفه الدنيا ، لإنقاذ البشرية من ضلالاتها وأوهامها ، وهو الذى سخر بقومه وبكل ماحشدوه لمقاومته من ألوان الاضطهاد وقال لهم كلمته الخالدة « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ماتركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وشرع أصحابه ومن آمن به يؤيدون شريعة السماء بالسيوف وبالدماء الطاهرة ، والأرواح المؤمنة الغالية ، التى اقسمت أن تقيم على أشلائها المتناثرة صروح المجد الخالد للاسلام والمسلمين .

الإسلام دين القوة ، وهو دين الحق ، فاذا كانت بعض الحضارات القديمة أو الحديثة تؤمن بالقوة وحدها ، وإذا كانت بعض الأمم تؤمن بالحق وحده . فإن الإسلام يدعو إلى القوة وإلى الحق جميعا ويريدهما معا ويبنى على أساسهما صروح الخير للناس كافة .

الحق والقوة هما الإسلام ، والإسلام هو القوة والحق . فهو دين الحق لأنه الدين الطاهر المنزل من السماء ليدعو الناس كافة إلى الحق وإلى العدالة و لإيمان والفضائل الإنسانية العليا . وإلى تقديس الحقوق وحماية الحرمات وأداء الواجبات ، والإخلاص فى الطاعات والعبادات لله رب العالمين ، وليدعوهم إلى الاعتزاز بالشرف ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانات . ثم هو دين القوة لأنه يحارب الضعف الإنسانى فى جميع مظاهره ـ يحارب الضعف فى الأفراد ، فلا يريدهم مرضى ولا كسالى ولا عجزة ولا جاهلين ولا منافقين ولا ثرثارين ولا كذابين ولا خائنين ، وإنما يريدهم أصحاء فى أبدانهم أقوياء بأخلاقهم ونفوسهم وعلمهم ، يريدهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر وحافظين لحدود الله ، ويريدهم مثلا عليا فى صراحة القول وصدق الحديث وقوة الخلق ، والعطف على الفقير ومواساة البائس والمسكين ، ويأمرهم بالسعى فى سبيل الرزق ، وإليك ماجاء فى هذا المعنى من الكتاب والسنة ، فمن الكتاب قوله تعالى : «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه» ، وقوله : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله» . ومن السنة قوله صلوات الله عليه : « اليد العليا خير من اليد السفلى» وشتان عند الله بين المؤمن القوى والمؤمن الضعيف . « وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم لايقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ » ، وكذلك حارب الإسلام الضعف فى المجتمع ، فنظم شؤون الأسرة وساوى بين الطبقات ، وجعل أساس مجد الإنسان عمله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأساس العلاقة الاجتماعية بين الناس أن يحب المسلم لأخيه مايحب لنفسه ، فلا قتل ولا زنا ولا ربا ولا غش ولا خداع ولا شقاق ولا رياء ولا غرور ولا خيلاء ولا فساد فى الأرض ، ولكن إصلاح وخير وتعاون بين الناس ـ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وكذلك حارب الإسلام الضعف فى الأمة فوحدها وحفظ لها كيانها وحريتها وإرادتها ، وساوى بين الشعوب فلا سيد ولامسود ، وأمر المسلمين بأن يعدوا لأعداء الله ما استطاعوا من قوة . . وكذلك حارب الضعف فى الإنسانية كافة ، فوجه جميع الأمم والشعوب إلى التعاون وحب الخير ، وإيثار الحق ، والقضاء على أسباب الشقاق والنزاع ، وأن تولى وجهها شطر الخالق العظيم مالك الأرض والسماء .

فالإسلام دين الحق والقوة جميعا ، لأنه لايعتمد على الحق وحده ، وإن كان

الحق فى ذاته قوة ، ولا يريد القوة وحدها ، القوة الطاغية المدمرة التى تسعى فى الأرض لتفسد فيها وتهلك الحرث والنسل ، ولكن يريد القوة التى تأتمر بأمر الحق .

نعم : الإسلام حق وقوة ، وبهما ساد المسلمون وكانت لهم العزة فى الأرض والسيادة بين الناس ، ولكننا اليوم جهلنا أمور الدين وأصوله ، فذهب مجدنا التليد ، وتنكر لنا الماضى المجيد ، وتجهم فى وجهنا الدهر والناس ، وعاد الدين غريبا ، وإن اليوم الذى نكون فيه على الحق وتكون فيه معنا القوة ، لهو اليوم الذى يصالحنا فيه المجد ، وتبتسم لنا فيه الحياة . ونتبوأ فيه من جديد مكان السيادة والعزة بين الناس « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .



الإسلام

وأساس الحضارة

الحضارة فى مذاهب المفكرين يقصد بها هذه المنزلة العالية ، التى تبلغها بعض الأمم من الرقى العام ، والنشاط الفكرى الخصب ، والحرية الكاملة بأوسع معانيها .

وبقدر منزلة الأمة من الحضارة تكون مكانتها بين الدول والشعوب ، فالحضارة هى غاية مايبلغه الإنسان . وهى المثل الأعلى للجماعات ونهاية المطاف فى تاريخ الإنسانية .

وفى وسع الإنسان أن يخلق لنفسه ولمجتمعه ألوانا من الحضارة يتمتع بها ويعيش فى ظلها . ولذلك وجدت الحضارات القديمة من غابر الأجيال ، ولكن لا يمكن أن توجد شتى ألوان الحضارة فى عصر واحد . لأن الحضارة متجددة بتجدد العصور وتطور الإنسانية فى مدارج الكشف والابتكار . والذين يعيشون الآن يخالون من سبقوهم من أهل القرن الماضى بدائيين أو شبه بدائيين .

كانت الحضارات القديمة تقوم على المادة والاستعباد والفوارق الكبيرة بين الطبقات ، فلم يظهر أثر الشخصية الإنسانية أو الطابع الشخصى والفكرة الذاتية وحرية الخلق والابتكار .

أما الحضارة الإسلامية فقامت على أسس رفيعة من المثل العليا ، والآداب والمبادىء القويمة ، لجمعت بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

وفى عهد الثورة الفرنسية كانت الحرية والإخاء والمساواة ، أنشودة الأمم الساعية فى مواكب التقدم إلى المجد والحضارة .

ونحن الآن نسمع الآراء المتباينة عن الأسس الأولى التى تقوم عليها الحضارة الإنسانية ، أتقوم على المال أم على العلم أم على الحرية ، أم على البواعث الرفيعة التى تدفع الإنسان إلى الخلق والابتكار؟ ، ولكن الإسلام يجعل أساس الحضارة هو الشعور بالمسؤولية . شعور الفرد بواجبه والمجتمع بمهمته فى الحياة ، والأمة برسالتها فى خدمة البشرية كافة .

فشعور الفرد بمسؤوليته يحفزه إلى العمل لخير نفسه وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه والأمة التي هو مدين لها .

وشعور المجتمع بمسؤوليته يدعو إلى الإصلاح والتجديد والنشاط المستمر ، والعمل على رفاهية الشعب وخير الوطن ومستقبله ، فيحارب الجهل والفقر والمرض والخوف والاستعباد ، ويعمل على نشر الطمأنينة والأمن والسلام والحرية والكرامة.

وشعور الزعماء بمسؤوليتهم يدعوهم إلى الجهاد في سبيل تقدم الشعب وحريته ، ورفع منزلته بين الجماعات الإنسانية العاملة في ميدان الحياة .

وشعور الأمة بمسؤوليتها يدعو إلى المحافظة على حريتها والذود عن كرامتها ، والحرص على أمنها وسلامتها ، والعمل الجاد في سبيل رفاهيتها وعزتها ومجدها ، لتسير إلى الحياة الكريمة مع السائرين في مواكب الإنسانية والحضارة ، ولتدعم مكانتها بين الشعوب الحية العظيمة ، ولتؤدي رسالتها الكاملة في الحياة .

الشعور بالمسؤولية هو الفارق بين الشعوب المتأخرة والشعوب الحية المتحضرة ، وهو أهم عنصر في الديانات والشرائع والقوانين ، وأول عامل على حفظ نظام الحياة وعلى بلوغ الإنسانية والحضارة أهدافهما الصحيحة ، وبحق هو أساس الحضارة

ويشتد شعور الرجل بالمسؤولية كلما عظمت رسالته في الحياة ، فالأنبياء والمفكرون والزعماء والمصلحون ، هم أكثر الناس جهاداً ونضالا في سبيل أداء ما حملوه من مسؤوليات جسام وتبعات كبيرة .

وكلما عظم إيمان الإنسان بدين أو مبدأ أو فكرة كان أكثر شعوراً بمسؤوليته ، وأسرع عملا من أجلها وأكبر نشاطا في سبيل أداء الأمانة التي حملها .

فلنستمد الشعور بالإنسانية من حرارة الإيمان وقوة العقيدة ، ومن مبادئنا القويمة التي نؤمن بها ، ونعمل لها ، ونضحي في سبيلها بكل شيء .

ولنرب الشعور بالمسؤولية في التلميذ والشاب والرجل والمرأة ، والعامل والتاجر والصانع والزارع ، والموظف الكبير والصغير والغني والفقير والرئيس والمرءوس ، فذلك هو السبيل إلى المجد وعظمة الحياة وخلودها .

لنمض في طريقنا ، تدفعنا قوة العزيمة وحرارة العقيدة وسمو الهدف وجلال الغاية

والشعور الكامل بالمسؤولية ، كل على قدر طاقته وحسب مستواه .

وصدق محمد رسول الله فيما قال : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته . فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

حرية وإخاء ومساواة

٢ — حرية العقل والفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحريات العامة ، والحرية الشخصية ، كل هذه الحريات قد كفلها ووعاها الإسلام وكتابه الكريم ، ولعلك قرأت كلمة عمر الخالدة لواليه عمر بن عبد العاص : كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟ » . لا يقيد الإنسان أى شىء من قيود السياسة والحكام والطغاة ، ولا يحجر عليه رجال الدين ، ولا يحول بينه وبين التصرف أب أو جد ما دام قد بلغ سن الرشد ، ولا يمنعه من التصرف فى ماله أحد إلا بأسباب شرعية وفى ظروف خاصة لكل فرد أن يبدى رأيه فى سياسة الحاكم ويناقشه الحساب ، ولعلك أيها القارىء تذكر كلمات عمر المأثورة : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » . « وإنى وليت عليكم ولست بخيركم » ، بل لعلك تعرف مناقشة المرأة له فى فكرة تحديد المهور ، وردها عليه ، وقبوله لها وقد ذكرته بالحق : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، الصلة بين الرؤساء والمرءوسين صلة الأب بابنائه والراعى برعيته : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » ، وأمور الناس تحكم بالشورى : « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، حتى حرية الدين نص عليها القرآن الكريم بقوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » ، مادام هذا الدين الذى يؤمن به الإنسان دينا سماويا صحيحا . أما الشرك والوثنية فلا يعترف بهما الإسلام لأنهما انتكاس فى الإنسانية ، وطمس للفطرة الإلهية ، وقضاء على كرامة الإنسان وعقله ووجوده الفكرى والروحى والأدبى والاجتماعى .

أين هذه الحرية الآن فى القرن العشرين ، عصر الكهرباء والذرة والعلم ؟ أين حريات الأمم السياسية وحريات الرأى والفكر والحريات الشخصية ؟ إنها أوهام وخيالات لا وجود لها فى كثير من الأحيان رغم أن المفكرين قد سئموا من الدعوة إليها ، ورغم حماية القوانين العامة للهيئات الدولية والأمم المتمدينة لهذه الحريات .

ليست الحرية فى الإسلام حرية فى الهدم ولكن فى البناء ، إنما الحرية التى لا يحدها شىء إلا توجيه الضمير ، ورقابة الروح الدينى فى النفس ، ونزعات الفطرة الإنسانية فى الإنسان .

حرية عامة شاملة تعم الحاكم والمحكوم، وتشمل الشعوب الصغيرة والكبيرة، ويطلقها الإسلام لكل مسلم ومسلمة، وتتناول الشعب الفاتح والشعوب المغلوبة على السواء، فأين هذا من الحرية عند الغرب، التى لا يتمتع بها إلا السادة المستعمرون، أما الشعوب المستعبدة فتعيش فى أشد استعباد، وأفظع ضغط على حريات الناس الخاصة والعامة فيها.

٢ — وأما الإخاء فى الإسلام فهو إخاء عام شامل، المؤمنون جميعا بل الناس كافة إخوة فى الله وإخوة فى الإنسانية، «إنما المؤمنون إخوة»، حتى الخدم جعلهم رسول الله صلوات الله عليه إخوان المخدومين، فقال: «إخوانكم خولكم».. ألغى الإسلام نظام الطبقات، وألغى العنصرية الكاذبة والعصبيات الحمقاء، وألغى نظام الألقاب «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، «والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، «ومثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد» «الناس من آدم وآدم من تراب».. الحسب والنسب والمال لا تغنى عن الإنسان شيئا. وهل فى ذلك أبلغ من قول رسول الله صلوات الله عليه لابنته: «يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا»، وقوله صلوات الله عليه: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء»، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

فأين هذا مما تعمله أمريكا الديمقراطية فى رعاياها اليوم: البيض لهم كل شىء فى الدولة، والزنوج السود لا حق لهم على الإطلاق، بل ليسوا مثل أولئك فى البشرية وفى الكرامة الأدبية فى الحياة؟

٣ — وأما المساواة فى الإسلام فهى مساواة كاملة، بين المرأة والرجل والصغير والكبير، والمحكوم والحاكم، بين جميع الطبقات والجماعات بين الأغنياء والفقراء. مساواة لا تعرف فيها ظلما ولا عنتا ولا آثاما، القانون الإسلامى يشمل الجميع لا فرق بين إنسان وإنسان، والعدالة تطبق على الجميع بلا محسوبية ولا استثناء، يقول رسول الله: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» - وزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على حد سواء؛ وفتح الإسلام آفاق الوصول إلى أسمى الغايات أمام المتنافسين من كل جنس ولون وأمة، حتى لقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، وبلال عبد حبشى اشتراه أبو بكر وأعتقه، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس، فلما مات أسندها إلى ابنه.. ويقول رسول الله فى سلمان الفارسى الأعجمى: سلمان منا أهل البيت.

وقد سار خلفاء محمد على نهجه فى المساواة التامة بين الناس والمسلمين كافة ، قال الحسن البصرى : حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام ، وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال من أولئك الموالى - أى الذين كانوا عبيدا قبل الإسلام ، وهم من عناصر غير عربية - وقد شهدوا بدرا ، فخرج عمر لأولئك الموالى وأخر السادة ، فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ! ! فقال سهيل وكان رجلا حصيفا : إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعو يوم القيامة وتركتم ؟

ألغى الإسلام الامتيازات الفردية والطائفية ، ومحا ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات ، ووحد الشريعة ، وأخضع لها الكافة ، لا فرق بين حاكم ومحكوم فى عصر كان الناس فيه يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى أرضه . . عدالة تامة بين الجميع . حتى لقد شكا يهودى على بن أبى طالب فى خصومة ، فأحضرهما عمر أمير المؤمنين ، وقال عمر لعلى : قف يا (أبا الحسين) بجانب خصمك فبدا التأثر على وجه على ، فقال له عمر : . أكرهت ياعلى أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيتك لم تسو بينى وبينه ، إذ عظمتنى بالتكنيه ولم تكنه ، ورأى عمر رجلا وامرأة على فاحشة فجمع الناس وخطبهم وقال : ما رأيكم إذارأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فنهض إليه على قائلا : يأتى على صحة قوله بأربعة شهداء وإلا فيقام عليه حد القذف .

إن المساواة تامة فى كل شىء بين الناس عامة فى الإسلام مساواة فى الحقوق والواجبات وفى الكرامة وأمام القانون ، لأن الناس خلقوا متساوين فى حكم الله ، « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ويقول عمر : أما والله ماأرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده إذن لاقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلوات الله عليه يقص من نفسه » ، ويقول الأستاذ الكبير محمد عرفه :

المساواة فى الإسلام مساواة بين البشر لا فرق عنده بين أبيضهم وأسودهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وخاصتهم وعامتهم ، فكلهم لآدم وآدم من تراب . حتى العرب الذين هم حاملوه وناشرون له ، والذين كانت لهم ولاية الحكم لاامتياز لهم على غيرهم

من الأمم « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة فى غير ما آية .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فهو يقول إنه جعلكم شعوبا وقبائل للتعارف فكيف تجعلونه سببا للتناكر والعصبية الممقوتة الذميمة ؟ !.

وقال : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » . فهو يذكرهم بأنهم أبنــاء أب واحد وأم واحدة ، فهم مهما بعدت ديارهم واختلفت أجناسهم وتباينت ألوانهم إخوة وذوو رحم ، ولعل وصايته بالأرحام بعد ذلك وصاية ببنى الإنسان جميعا ، إذ قد أثبت لهم قبل ذلك قرابة ورحما .

جعل الإسلام المساواة مبدأ . وأخذ يصدر عنها فى كثير من الوقائع والأحكام ، قال قتادة : كان أهل الجاهلية فيهم بغى وطاعة للشيطان . فكان الحى إذا كان فيهم عزة ومنعة فقتل عبد قوم آخرين عبدا لهم قالوا لا نقتل به إلا حرا ، تعززا لفضلهم على غيرهم فى أنفسهم ؛ وإذا قتلت لهم امرأة قوم آخرين قالوا لا نقتل بها إلا رجلا.

فأنزل الله : « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » . نهاهم عن البغى والعدوان وألا يقتلوا غير القاتل ، وألا يتعدوا على غيرهم فيقتلوا بعبدهم حرا وبالمرأة منهم رجلا ، وبالحر الواحد منهم أحرارا كثيرا ، وأنزل لتقرير هذا المبدأ : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » . وفى هذه الآية تقرير للمساواة فى النفوس والأعضاء والجوارح .

لقد سوى الإســلام بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وجعلهم سواء أمام الشريعة ، فالشريعة ماضية عليهم جميعهم .

روى أن امرأة من بنى مخزوم سرقت فقالت قريش : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أى ليضع عنها الحد ؛ ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلم رسول الله ، فقال الرسول : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ! ثم قام فخطب فقال « يأيها الناس إنمـا ضل من كان قبلكم أنهم

كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

هذه مساواة بين الشرفاء والضعفاء فى الحدود ، فلا توضع عن شريف لشرفه إذا ارتكب موجبها ، وبين الرسول أن التفرقة بين الضعفاء والشرفاء فى الحدود كانت العلة فى ضلال الأمم السالفة » .

ويقول عبد الرحمن عزام يصف المساواة فى الإسلام من كلمة له :

« أشير إلى معنى أساسى من معانى الإسلام هو من أعظم مبادئه فى مقاومة الشرور الاجتماعية ، ذلك هو مبدأ المساواة الذى يسيطر على تصرفات المسلمين فى عباداتهم ومعاملاتهم وآدابهم ، فالمسلمون جميعا عباد الله يسعى بذمتهم أدناهم وأفضلهم عند الله أتقاهم .

ذلك المعنى متى رسخ فى أذهان الملوك والأمراء والحكام ، والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال كما يريده الإسلام ، استحالت معه الفرقة الاجتماعية وما يترتب عليها من حسد وبغض وخلاف وشر ، ثم قتال وفساد للمجتمع بتسلط الأقوياء على المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء .

إن مبدأ المساواة شائع الآن بشرائع مصطنعة ومظاهر فى القول والقانون ، ولكنه لم يستقر فى النفوس والضمائر ، ولم يختلط اختلاطا كليا بجميع مصادر الحياة ومواردها كما هو فى الإسلام .

فالمسلم يحس فى قرارة نفسه أنه مساو لخادمه ، وأن الخادم قد يكون أفضل منه عند الله ، ويخشى أن يصيبه شك فى هذا مخافة غضب الله الذى خلق الناس من نفس واحدة متساوين أحرارا .

فالمساواة بهذا المعنى العظيم هى فى نظرى أكبر الضمان ضد الشرور والآفات الاجتماعية التى زلزلت الأمم ، والتى قد تكون أساسا لأكثر هذه الحروب المهلكة للبشر .

فالديمقراطية الإسلامية التى هى أساس الحكم الصالح والحياة السعيدة ، هى ديمقراطية لا شبيه لها ، وليست المظاهرة الخادعة من أشكال الحكم على تنوعها بواجدة مثل تلك الديمقراطية ، فإن أساسها فى الضمير ، فلو أنها استقرت فى الحياة الحالية

واتخذت سبيلها الذى أراده الإسلام ، لكانت كفيلة بالقضاء على أعظم مصادر الشر وآفاته الاجتماعية » .

والفروق الطبيعية بين الناس من الذكاء والحسب والجاه والمال والعلم ، حاول الإسلام تخفيف أثرها ، بتقريب الطبقات بعضها إلى بعض ، وباشتراكية الإسلام العادلة فى الزكاة والضرائب وأموال المسلمين وردها على الفقراء ، وصرفها للمساكين ، ومما فرضه الإسلام على العالم أن يرشد الجاهل ، وعلى الصحيح أن يواسى المريض ، وعلى الغنى أن يعطف على الفقير ، وعلى الكبير أن يرحم الصغير .
حرية وإخاء ومساواة لم يعرف للاسلام فيها نظير أو شبيه ، لأنه دين الحق والبينة والإخلاص ، الدين الذى جاء لانقاذ البشرية والنهوض بها من الذلة إلى العزة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفقر إلى الرخاء ، ومن البداوة إلى الحضارة ، حتى لقد قال برناردشو : لابد أن تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا القرن ، ولو أن محمداً بعث فى هذا العصر ، لقاد العالم إلى السلام والسعادة المنشودة .

وقال توماس كارليل : « لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر ، أن يصغى إلى ما يقال من أن الدين الاسلامى باطل ، وأن محمداً خداع ومزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل تلك الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ، مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا » : وقال تولستوى « إن النبى محمداً من عظام الرجال المصلحين ، ليكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى الحق ، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام » .

ليست الثورة الفرنسية ، ولا مبادىء عصبة الأمم ، ولا صكوك هيئة الأمم المتحدة ، ولا قرارات لجنة حقوق الإنسان ، هى التى أذاعت هذه المبادىء ، ولكن الذى سبق فأذاعها ونشرها وطبقها تطبيقاً سليماً قوياً عاماً ، هو محمد وشريعته الإسلام ، الدين الخالد الكريم من نحو أربعة عشر قرناً من الزمان .

الإسلام

يسوى بين الناس بين يدى القانون والعدالة

حق وكرامة وإنصاف ورحمة وحرية

وهل بلغت الديمقراطية والعدالة فى أمة من الأمم ، أو شريعة من الشرائع الحد الذى وصلت إليه عند المسلمين ، وفى شريعتهم ودينهم الكريم .

عدل مطلق ، لا يقيده قيد ، ولا يحده حد ، لا يقف عند طائفة أو بيئة أو عنصر ؛ ليس أمامه شريف ووضيع ، ولا أبيض وأسود ، بل ولا مؤمن ومشرك . عدل كامل ، وحرص شامل على إعطاء الحقوق لأصحابها ؛ فالناس سواء أمام القانون وبين يدى العدالة . يقول عمر من وصيته لأبى موسى الأشعرى : « لا يطمع شريف فى حيفك . ولا ييأس ضعيف من عدلك » . ويقول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن - أى لا يحملنكم عدواة - قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » وقصة عمر وعمرو بن العاص مشهورة ؛ فقد حدث أن ضرب ابن لعمرو رجلا من العامة لأمر حدث منه . قائلا له : أنا ابن الأكرمين ؛ فلما جاء موسم الحج ذهب الرجل إلى المدينة ليرفع شكاته إلى عمر أمير المؤمنين . فبلغ عمر مظلمته ، وهو فى حشد من زعماء المسلمين وفيهم عمرو بن العاص وابنه ، فعلم عمر الحق فى الشكوى ، فناول الرجل درّته ، وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، ثم قال لعمرو ، « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وفى المأثور عن رسول الله : أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

ويقول عمر فى وصيته لسعد بن أبى وقاص : « إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء »

ويقول فى وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، ولاتبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله »

وفيما يؤثر عن رسول الله : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب »

ويروى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى المشهور لماحج قدم المدينة للزيارة ، وبعث إلى أبى حازم وعنده ابن شهاب الزهرى ، فلمادخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم ، قال : فيم أتكلم ياأمير المؤمنين ، قال : فى المخرج من هذا الأمر ، قال : يسير ،إن أنت فعلته ، قال : وماذاك ؟ قال : لاتأخذ الأشياء إلامن حلها ، ولاتضعها إلافى أهلها ، قال : ومن يقوى علىذلك ؟ قال :من قلده الله منأمرالرعية ماقلدك ، قال : عظنى ياأباحازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلابموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ماصار إليك ، قال ياأباحازم أشر على ، قال إنما أنت سوق فماانفق عندك حمل اليك من خير أوشر ، فاختر أيهما شئت .

ولماأرسل قيصر رسولا إلى عمر ، لينظر أموره ، ويشاهد عدله ، دخل المدينة فسأل عن أهلها ، وقال : أين ملككم ؟ فقالوا قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فخرج الرسول فى طلبه فرآه نائما فوق الرمل وقد وضع درته كالوسادة ، فلمارآه قال: رجل لايقر لجميع الملوك قرار من هيبته ، وتكون هذه حالته !! ولكنك ياعمر عدلت فأمنت فنمت .

لقد نهى الإسلام عن تعذيب الناس ، وضرب أبشارهم ، والتمثيل بأحد حتى بالحيوانات ، وذلك حفظا لكرامة بنى الإنسان . ويقول عمر فى ولاته : اللهم إنى لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولاليضربوا أبشارهم » .

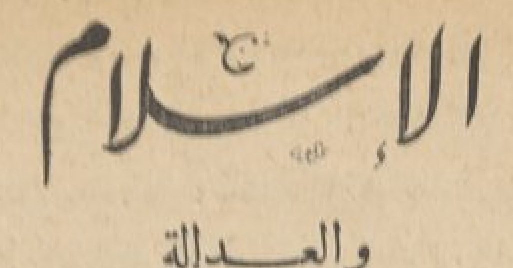
وجعل الجميع بين يدى القانون سواء ، يتساوون فى حقهم من حمايته لهم ، دون تمييز بينهم ، ولهم الحق كلهم فى حماية واحدة دون أى تمييز ينقض مبادئه ، ومن أى تحريض على هذا التمييز .

ونهى عن ظلم الناس وتشريدهم واعتقالهم ونفيهم تعسفا وظلما وبهتانا .. وجعل لكل إنسان الحق على قدم المساواة التامة فى أن يرفع مظلمته إلى الحاكم أومن يعينه لولاية القضاء ، وفى أن تنظر مظلمته بإنصاف وبعلانية ، وفى أن يقف

خصمه معه أمام القضـــاء حتى ولو كان أمير المؤمنين نفسه ، وحرض القضاة على أن يقضوا بالحق ، وبما حكم الله ، بطلاقة رأى ، ونزاهة غرض . فما أروع الإسلام ومبادئه !!

وأين هذا من التشريعات الحديثة ، التى تحابى الرؤساء والحكام ، والتى تجعل القاضى خاضعا لسلطان رجال السلطة التنفيذية ، والتى تخضع السلطة التشريعية لهوى رجال السياسة والأحزاب ، والتى تجعل الأمير والوالى فوق القانون ، وتلف نواب الأمة وشيوخها بالحصانة البرلمانية ، وتتستر على الجرائم الكبرى ، وتحول دون نشرها على الرأى العام ؟

الإسلام ومبادىء الإسلام ، هى العلاج الأول والأخير أيها الناس لكل مشكلاتنا الآن .



الإسلام والعدالة

يقول الإعلان العالمى الأخير لحقوق الإنسان ، الذى وضعه أعلام الفكر البشرى فى القرن العشرين ، ما نصه

« لكل متهم بجرم الحق فى أن تفرض براءته ، حتى يثبت جرمه قانونا فى محكمة علنية ، تؤمن له فيها جميع الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه ».. وهذا هو نفس ماأوجبه الإسلام من نحو أربعة عشر قرنا من الزمان ، من أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، ومن عدالة القضاء وحق المتهم فى الدفاع عن نفسه .

ويقول عمر بن الخطاب من رسالته إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه قضاء البصرة ، أى من نحو ألف وثلاثمائة وخمسين عاما هجريا تقريبا :

« أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، آس — أى سو — بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولاييأس ضعيف من عدلك .. الخ »

ويقول على من عهده إلى الأشتر النخعى والى مصر من قبله : «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم ؛ ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حربا ، حتى ينزع ويتوب ، وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم .. واختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ، ممن لاتضيق به الأمور ، ولاتمحكه الخصوم ، ولايحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه .. أوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم . ممن لا يزدهيه إطراء ، ولايستميله إغراء . ثم تعاهد قضاءه . له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل

معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك .
ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك . فانظر فى ذلك نظرا بليغا ، فان هذا الدين
قد كان أسيرا فى أيدى الأشرار ، يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا ».

وعن على بن أبى رافع ، قال : « كنت على بيت مال على بن أبى طالب وكاتبه ،
فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ؛ فأرسلت إلى بنت على ابن
أبى طالب ، فقالت لى : إنه قد بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ ،
وهو فى يدك ، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به فى يوم الأضحى ، فأرسلت إليها .
عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يابنت أمير المؤمنين ، فقالت نعم : ، عارية
مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام ، فدفعته إليها ، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه ،
فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت استعرته من أبى رافع خازن بيت
مال أمير المؤمنين لأتزين به فى يوم العيد ثم أرده . فبعث إلى أمير المؤمنين ،
فجئته ، فقال لى : أتخون المسلمين يا ابن أبى رافع ، فقلت : معاذ الله أن أخون
المسلمين ، فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين
بغير إذنى ورضاهم ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين : إنها ابنتك ، وسألتنى أعيره لها
تتزين به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن ترده سالما إلى موضعه . .
فقال : رده من يومك ، وإياك أن تعود إلى مثله ، فتنالك عقوبتى ، ثم قال : ويل
لابنتى ، لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونة ، لكانت إذن هاشمية
قطعت يدها فى سرقة ، فبلغت مقالته ابنته ، فقالت له : يا أمير المؤمنين . أنا ابنتك
وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه منى ؟ فقال لها : يا بنت ابن أبى طالب : لا تذهبى
بنفسك عن الحق ، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين فى مثل هذا العيد بمثل
هذا . . فقبضته منها ، ورددته الى موضعه » .

وكتب عمر إلى عامله أبى موسى الأشعرى : قد بلغ أمير المؤمنين أنه نشألك
ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها. فإياك ياعبد
الله أن تكون البهيمة التى مرت بواد خصب ، فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حتفها
فى السمن . واعلم أن للعامل مردا إلى الله ؛ فاذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن
أشقى الناس من شقيت به رعيته .

ويروى أن أبا يوسف حين حضرته الوفاة قال : « اللهم إنك تعلم أنى لم أمل فى

قضائى إلى أحد الخصمين حتى بالطلب ، إلا فى خصومة النصرانى مع الرشيد ، ولم أسو بينهما ، وقضيت على الرشيد ، ثم بكى .

وهناك آثار مروية كثيرة لقضاة المسلمين وخلفائهم فى تحرى العدالة ، وإنصاف المظلوم ، وهى مفاخرة تشهد بعدالة الإسلام ، وعظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، وجلال غاياته .

إن العدالة فى الإسلام لم تقف عند غاية ، ولم تنته إلى حد ، ولم يستثن من حكامها فرد أو طائفة أو عنصر أو شعب . ولا اعتبار الفتح والغلبة والسيادة ..

عدالة نحن فى حاجة إليها الآن ، لنقضى على الفوضى ، ويشيع الأمن والسكينة والهدوء والنظام والرضى ، وينبعث الاطمئنان النفسى فى كل إنسان . وما أجل قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ؛ وقوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ؛ وقوله : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . وما أجل قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » . ولما قال أعرابى لرسول الله اعدل ، قال له : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل . ولما قال له أعرابى آخر : ومن أحق بالعدل من رسول الله ؟ قال صدقت . ومن أحق بالعدل منى ؟

الحريات العامة للإنسان

وأمر كفالة الاسلام للحريات العامة للفرد مشهور مأثور ، لا نفيض فى الحديث عنه فى هذا المقام .

لم يضع الإسلام حدودا تفصل بين بنى البشر ، أو تحول دون تفاهم أبناء الإنسان ، فكان الناس يجولون فى بلاد العالم الإسلامى ، من كل عنصر وجنس وملة ، دون قيد أو حجر أو صعوبة فى الانتقال ، أحرارا فى تنقلاتهم من مكان إلى مكان .

ونهى عن تتبع عورات الإنسان ، والتجسس عليه ، ودخول منزله إلا باذن منه ؛ وفرض حرمة المسكن . وحرمة العرض ؛ وحرمة الدم ،وحرمة المال ،وحرمة الملكية ، وحرمة التدخل فى شئونه الخاصة أو شئون أسرته .

وفرض حماية الجار واللائذ والمستعيذ والمضطهد .. ولم يعترف بالعنصرية ولا بالجنسية ، بل جعل الناس إخوة فى الإنسانية وفى الله وفى الإسلام .

وجعل لكل إنسان حق التملك ، وحرم أن يحرمه أحد من ملكه تعسفا وظلما

وأوجب حق الفرد فى حرية الفكر ، والضمير ، وحرية الرأى والتعبير ، وحرية الاجتماع ، وحرية تكوين الجماعات والنقابات والشركات والهيئات والمساواة .

وجعل له الحق المطلق فى أن يصل بكفايته إلى أعلى المناصب فى الدولة ، دون نظر إلى جنسه ولونه .

ومنحه كافة الحقوق الاجتماعية والثقافية الاقتصادية ، التى لا تستغنى عنها كرامته ولا شخصيته فى نموها المطلق

وأطلق حريه الإنسان المطلقه فى كل ناحية ، وكل مرقى .

وقرر جميع الحريات العامة له وفرضها ، وألزم الدولة بالدفاع عنها ،

وأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مواكلتهم . وإن أوصى بالرفق فى معاملتهم ؛ كما أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم ، كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ونهى

عن كل إكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى قوة فى الحمل على الإسلام ، فان نوره جدير أن ينفذ الى القلوب والأرواح والنفوس .

إن الإسلام لا يعترف بأى قيد من القيود التى تفرض على الحريات العامة ،

وإن على الدول الإسلامية المعاصرة أن تعود إلى الإسلام ، بالغاء النظام الأقطاعى فى بلادها ، فتلغى القيود على الحريات ، وتفرض القانون على الجميع . وتحد من عبث الكبراء بالقانون وبحق الشعب ، وترفع عن الفلاحين والطبقات الصغيرة عبء الاضطهاد والاستعباد والرق النفسى والاقتصادى .

وبذلك يعود المسلمون سيرتهم الأولى ، فى بناء مجد الإسلام . ورفاهية المسلمين وتجديد عناصر الحضارة ، وهداية الإنسانية ، والسير فى موكب الأمم المتمدينة المهذبة العاملة على خدمة العلم والعمران وبنى الانسان .

الناس في الإسلام سواء

حق الإنسان فى الحياة حق طبيعى ، وهو من أبسط مبادىء العدالة . ولكن بعض الأمم القديمة حرمت من هذا الحق بعض الناس .

كان العرب يئدون بناتهم فى الجاهلية خوف الفقر أو العار ، فنهى الإسلام عن ذلك أشد نهى ، وأوعد عليه أشد وعيد : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » ، وقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئا كبيرا » ، وقال تعالى : « وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » ، وصور سوء فعلهم ، وشناعة جرمهم فقال : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » ، وقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » . . وكرر الله تعالى النهى عن ذلك فقال : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ، وقال تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم » . . إلى غير ذلك من الآيات .

وذكر القرآن الكريم نبأ ابنى آدم الذين قتل أحدهما الآخر « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ، وقال الله تعالى بعد ذلك . « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا » .

وكان الناس فى العصور القديمة لا يبالون بإزهاق الأرواح ، وسفك الدماء ، وكان السادة يحلون لأنفسهم قتل من يشاءون من المحكومين وتسخيرهم فى شتى أعمالهم الخاصة ، وإذلالهم إذلالا شديدا ، فجاء القرآن ينهى عن القتل وسفك الدماء : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » وقال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » . وشرع شريعة القصاص « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص » . وقال صلى الله عليه وسلم من خطبة حجة الوداع ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

فهل بعد ذلك دليل على أن الإسلام رعى حق الإنسان فى الحياة ؟

وأما حق الإنسان فى الحرية ، فقد كفله الإسلام وأيده ودعا إليه .

رعى الإسلام الحرية السياسية فجعل لكل فرد عاقل رشيد الحق فى أن يشترك فى إدارة شئون الدولة ، حتى قال عمر من خطبة له : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان استقمت فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » . وقال عثمان : « إنى أتوب وأنزع ولا أعود لشىء عابه المسلمون ، فاذا نزلت من منبرى فليأتنى أشرافكم ، فليرونى رأيهم . فوالله لئن ردنى الحق عبدا لأذلن ذلة العبيد » .

ورعى الإسلام حرية الفكر والرأى ، وفى القرآن الكريم نعى شديد على المقلدين والجامدين ودعوة إلى تحرير العقل من شتى القيود .

حتى حرية العقيدة والدين نص عليها القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . . وهذه هى نصوص مما جاء فى عهد الرسول الأعظم للنصارى فى جزيرة العرب ، « هذا كتاب كتبه محمد بن عبدالله إلى كافة الناس أجمعين ، كتبه لأهل ملة النصارى ، ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها ؛ قريبها وبعيدها ، فصيحها وعجميها ، معروفها ومجهولها . جعل لهم عهدا إن احتمى راهب أو سائح فى جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة ، فأنا أكون من ورائهم ، أذب عنهم من كل غارة عليهم ؛ بنفسى وأعوانى وأهلى وملتى وأتباعى ، لأنهم رعيتى وأهل ذمتى . وأنا أعزل عنهم الأذى فى المؤن التى يحمل أهل العهد من القيام بالخراج ، إلا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شىء من ذلك . ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا حبيس من صومعته ، ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شىء من مال كنائسهم فى بناء مساجد المسلمين ، ولا فى بناء منازلهم ، فمن فعل شيئاً من ذلك ، فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد ، جزية ولا غرامة ، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر ، فى المشرق أو فى المغرب والجنوب والشمال ؟ وهم فى ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه . وكذلك من يتفرد بالعبادة فى الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه خراج ولا عشر ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم ولا يلزمون بخروج فى الحرب ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم أذية المكروه ، حيثما كانوا ، وحيثما

حلوا . . . وإن صارت النصرانية عبيد المسلمين ، فعليهم برضاها ، وتمسكينها من الصلاة فى بيعها ، ولا يحال بينهم وبين هوى دينها .: ومن خان عهد الله ، واعتمد بالضد من ذلك ، فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونوا على مرمة بيعهم ومواضعهم ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح ، ولا يخالف هذا العهد ابدا إلى حين تقوم الساعة ، وتنقضى الدنيا » ... وكتب عمر إلى أهل بيت المقدس عقب فتحه له أمانا تعهد فيه بالمحافظة على حرياتهم وأموالهم ودمائهم وكرامتهم وحرياتهم الدينية، وذكر أن النصارى أكثر أهل الأديان قربا ومودة للمسلمين : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » .

ورعى الإسلام الحرية الشخصية ، ونهى عن الاعتداء عليها . بل أوجب على الحاكم الرفق بالمسلمين ، وفى ذلك يقول الرسول الأكرم : اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق عليه » .

وكان هدف الاسلام من تعاليمه فى ذلك رفع القوة المعنوية للمسلمين ، والمحافظة على كراماتهم وإشعارهم بالعزة والسيادة والقوة والحياة

واما حق الإنسان فى الأمن ، فهو أشد التزاما فى الإسلام ، فقد حارب الإسلام الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وأوجب القصاص والحدود وألزم المؤمن بأن يعامل أخاه برفق وفرض عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . يقول الرسول الأعظم لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وجعل الحاكم مسئولا عن الأمن والنظام . «الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عن رعيتها ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ونهى الإسلام عن استهزاء المرء بأخيه ، والتنابز بالالقاب ، وأخذ الناس بالشبهات ، وعن الغيبة والنميمة؟ والخوض فى أعراض المحصنين والمحصنات، وقال رسول

الله صلوات الله عليه : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وحرم على الحاكم أكل مال رعيته والتطاول عليهم ، كما حرم أكل مال الناس بالباطل وأوجب حق الفقير والصغير والمرأة والرقيق ، مما يوفر على الناس الأمن ، وأوجب الحدود لمن تعدى حدود الله ، كل ذلك لحفظ الأمن ، ورعاية حق الفرد فى أن يعيش آمنا مطمئنا فى الحياة .



والحروب

حق الإنسان في الحياة ثابت لا ريب فيه ، فى الحرب والسلم على السواء ، ولكن أوربا وشرائعها الحاضرة تتنكر لهذا الحق البدهى، ولا تعترف به إبان الحروب.

وعبر الحرب العالمية الأولى والثانية لاتزال شاهدة بجرائم أوربا وشعوبها المتحضرة ، وما ارتكبته فى حق المدنيين المسالمين من فظائع تقشعر من هولها الأبدان .

المدن تدمر بالقنابل ، والأرواح تزهق بلا حساب فى البر والبحر والجو . والأطفال والنساء والكهول يقتلون بلا ذنب جنوه ، والحقول الخضراء تحترق ، والقنابل تقذف على المعابد ، إلى ما سوى ذلك من الجرائم الإنسانية التى يعجز العقل عن تصور مدى فظاعتها .

فأين هذا من الإسلام وشريعته الكريمة ، التى فرضت على المسلمين احترام حقوق الإنسان حتى فى الحروب ، وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب .

يقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . فانظر كيف نهى القرآن الكريم عن الاعتداء وحرم وحذر منه ، لأن الاعتداء ليس سبيل الإسلام ، إنما سبيله الحق والرحمة والإنسانية والعدالة .

وانظر إلى قول الرسول صلوات الله عليه لقواد جيوشه فى غزوة مؤتة ، ووصيته لهم بترك كل ما ينافس مبادىء الإسلام والإنسانية فى الحرب ، قال :

« أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » . .

فستجد شريعة السلام والوئام والعدالة حتى فى معاملة الخصوم والأعداء .

واقرأ كلمة أبى بكر ووصيته إلى أمراء جيشه التى يتجلى فيها روح الإسلام

ومبادىء الرسول العظيم وحق الإنسانية على المتحاربين بوضوح لالبس فيه . قال أبو بكر الصديق خليفة رسول الله :

« لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا طفلاصغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا إلا لمأكله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له ».

فأى روح إنسانى أعظم من ذلك الروح ، وأية مبادىء أجل من تلك المبادىء ، وأية شريعة تحمل هذا السمو وذلك النبل وتلك العدالة ؟

إن هو إلا الإسلام الذى رعى حق الإنسان فى الحياة وفى الحرب ، كما رعاه فى السلم . وأكد شريعة الإنسانية ورحم الاخوة البشرية على الناس كافة فى كل وقت ومكان .

وما أجل مايقول الله تعالى فى كتابه المحكم الكريم : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » . فهذه الآية الكريمة كما توجب حق أهل الأديان الأخرى المسالمين ، الذين يعيشون فى كنف المسلمين من الرعاية والبر والعدل . كذلك توجب حق المدنيين المسالمين الذين لم يحملوا السلاح ، ولم يحاربوا هدى الله ، فأولئك لهم الأمن والبر والرعاية ، ومن حقهم أن ينعموا بالعدل الذى أمر به الله .

الإسلام

ونظام الرق

كان الرق دائما قبل الرسالة المحمدية فى كل مكان، وكانت أسبابه متعددة كثيرة ، فهناك أسرى الحرب الأرقاء ، والأرقاء بالسبى والخطف واللصوصية ، والأرقاء بسبب إجرامهم ، والرق بسبب الدين والرقيق بالوراثة . وكان يجوز للانسان أن يبيع نفسه وأولاده على أنهم أرقاء ، وكان بعض الأغنياء يعدون الفلاحين فى مزارعهم رقيقا مملوكا لهم ، وبعض المجتمعات تعد المرأة فى منزلة الرجل المملوك .

وقد ظهر الاسترقاق منذ العصور القديمة ، وألفه بكثرة المصريون القدامى والبابليون والبراهمة والفرس واليونان والرومان . وأقره أفلاطون وأرسطو ، الذى ذهب إلى أن أرواحهم كأرواح الحيوانات غير مخلدة .

واعتبرته الديانة المسيحية شرعيا ، واستمر المسيحيون على تلك الشريعة . وكان الأوربيون يسترقون سكان أمريكا بعد كشفها ويعاملونهم أسوأ المعاملة .

أما الإسلام فقد حرم شتى أنواع الرق ، عدا الرق بسبب الأسر فى حرب إسلامية عامة بين المسلمين والمشركين ، وماعدا الرق بسبب الوراثة والتناسل .

ومع ذلك فقد قيد الإسلام بعد ذلك كله نظام الرق، بقيود شديدة ، فجعل المملوكة بسبب الوراثة يولد ابنها من سيدها حرا إذا ألحقه السيد بنسبه ، وتنال هى حريتها بعد وفاة السيد ؛ وجعل الرق فى الحرب قاصرا على الحرب فى سبيل الدين ، الحرب التى تحدث بين المسلمين والمشركين أو الملحدين وأهل الكتاب ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله . وهى الحرب التى تكون للدفاع عن الدين من اعتداء معتد أثيم ، أو مكيدة دولة كافرة ، أو للحنث بالعهود والالتزامات ، والتى ينص القرآن الكريم على مشروعيتها بقوله : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» وبقوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله» ، «وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون» .. وجعل للامام الحاكم الحق فى أن يمن على الأسرى وفى قبول الفداء .

ثم فتح الإسلام الأبواب للحرية والعتق ، وحث على تحرير الأرقاء بكل طريق وسبيل .. وجعله مغنيا عن كثير من الأخطاء وفرض على الدولة أن تقوم بتحرير الأرقاء من أموال الزكاة . وحث السادة على تحرير عبيدهم إذا كاتبوهم على مال معلوم .

فالإسلام إذن ضيق حدود الرق إلى أبعد حد ، وفتح أبواب العتق إلى أوسع مدى ، وحث السادة على عتق عبيدهم تقربا لله أو نظير مال يكاتبونهم عليه أو تكفيرا عن بعض السيئات ، وجعل الدولة قوامة على تحرير الرقاب بدهم مما يجبى من أموال الزكاة .

فأى شىء يعمله الإسلام أكثر من ذلك ، أيحرم الرق جملة ؟ كلا فان من يصد الناس عن عقيدتك ودينك ، ويؤلب عليك القوى ، ويحاربك بالسلاح ، جزاؤه أن تضمه اليك ، لتحول بينه وبين الشر ، ولتؤدبه وترعاه وتوجهه إلى الهدى .

ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على المسلمين حسن معاملة الرقيق وتأديبه وتربيته وتهذيبه ، وجعله عضوا صالحا فى الحياة ، وأن لا يكلف السيد عبده بما لا يستطيع ، وأن يعطيه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، وأن يحفظ كرامته ، . قال رسول الله : لا يقل أحدكم : عبدى . أمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى ، ، وقال : من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار .

وقد صعد كثير من العبيد فى الإسلام إلى منزلة لا يبلغها أحد ، فوصلوا إلى قيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وتبوءوا أمور الملك والولاية . بل إن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، كان إذا سار هو وعبده ، تعاقبا على ركوب الناقة ، وعندما ذهب عمر إلى بيت المقدس ليبرم الصلح مع أهلها ، ركب عمر مرة ، وركب عبده مرة ، أثناء الطريق ، حتى لقد بلغ عمر المدينة وغلامه على الدابة وعمر الخليفة يسعى بين يديه .

ويقول رسول الله : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » ، « إتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة » ، « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » ، « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وتزوجها ، كان له أجران فى الحياة الدنيا والآخرة : أجر بالنكاح والتعليم . وأجر بالعتق .

وعن أبى مسعود قال : بينما أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى : اعلم يا أبا مسعود — مرتين — فالتفت ، فاذا رسول الله ، فألقيت السوط من يدى فقال ، « والله لله أقدر عليك منك على هذا » .

إن الإسلام قضى على الرق قضاء إلى حد بعيد ، فما ظنكم بامم الغرب اليوم التى تعامل بعض الطبقات معاملة أدنى من معاملة العبيد . فأمريكا موقفها من الزنوج الحمر معروف ، وعداؤها لهم بسبب اللون مشهور ، حتى لتحرم عليهم الوظائف العامة والتعليم ، وتنزلهم إلى درك الحيوانات .. وأسرى الحرب العالمية الثانية لايزالون يهيمون على وجوههم فى سهول سيبريا وسواها من شتى بلاد الاتحاد السوفييتى عمالا أرقاء للدولة . بل وفى الهند طبقات المنبوذين ، الذين لايعاملون معاملة الرقيق فى الإسلام .

فأين هذا من عدل الإسلام وسماحته ، ودعوته للاخاء الحق ، والمساواة الصحيحة ، والحرية الكاملة .

بل إن الغرب قد حرم رق فرد ، وأباح استعباد أمة ، وأطلق حرية الإنسان ، وقتل حريات كثير من الشعوب ، وحرم نهب مال الواطن ، وأباح لنفسه أن ينهب ثروات المستعمرات الواسعة . وقضى على أسواق الرقيق فى إفريقيا ، ولكنه حجر على رجال الفكر والعلم والاختراع من شباب الألمان ، الذين أسرهم فى الحرب العالمية الثانية ، وجندهم مأسورين مساقين لخدمة المرافق العامة فى روسيا وانجلترا وأمريكا وفرنسا ، بل ألقى عليهم أشد التبعات والأهوال والأعمال ، خلال الحرب وبعدها .

الباب السادس

الإسلام رسالة البشرية عامة

دعوة انسانية عالية

مضى على وفاة محمد صلوات الله عليه نحو أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولا تزال ذكراه الخالدة ملء القلوب والأسماع ، وحديث الإنسانية الذى لا ينسى. ونشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الإلهام الكريم . وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا العربى الأمى ، تقديسا للرسالة التى حملها وبلغها عن الله ونشرها فى الخافقين . وإيمانا بسمو ما أتى به من دين .وأداه من عقيدة . فإن الإنسانية كلها لتذكره لأنه رسولها الفذ الكريم . وأبوها البر الرحيم .والعلم المفرد فى تاريخها الحافل المديد .

إن عظمة محمد بن عبد الله ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال . ليس مرجعها عظمة الأمة التى ظهر فيها ... وليس مردها فحسب إلى جنسه وشرفه وجلال شخصيته وسمو خلقه وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للانسان الكامل المهذب فى الحياة ، وأنه عاش مع فقره مجاهدا ، ومات مجاهدا فى سبيل الله والحق والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك الى أنه رسول الله الذى اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ كلمة الله إلى الأرض على فترة من الرسل، وانقطاع الوحى عن البشر، وبعد أن ضل الناس وجهلوا هداية السماء التى بشر بها من قبل الأنبياء والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات ، وخاتمة النبوات، وبشر بدين الله بين الناس وإلى أن هذه الرسالة التى أداها عن الله هى دين البشرية عامة، وعقيدة الإنسانية قاطبة، وفطرة الله التى فطر الناس عليها . بما حوته من دعوة إلى التوحيد المطلق ،

وحرية العقيدة ، وتقديس للشرف والكرامة والمروءة والفضيلة ؛ وتقرير لمبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة . . وبسمو روحها ؛ وجلال نزعاتها ، ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان الأدبية فى الحياة .

وباشتراكيتها العادلة ، وديمقراطيتها الحقة ، وما سنته من حب ورحمة وتعاون وشورى بين الناس .

وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسؤولية ، وتقدير للعهود والحرمات ، وللعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك والضلال والفساد والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة والشهوات الجامحة ، والأساطير الكاذبة والتقاليد البالية والأوهام الضارة .

وبحسب محمد عظمة ، أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية المطلقة ، والزمالة البشرية المشتركة ، وأنه حارب العصبيات والقيود الجائرة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله ، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله .

فكانت هناك أخوة إسلامية كاملة ، لوحدة الأمة وحفظ كيانها . «إنما المؤمنون إخوة » ، وبجانبها أخوة إنسانية عامة ، تجعل الناس جميعا على اختلاف نزعاتهم وعناصرهم وأديانهم وألوانهم إخوة فى الإنسانية . . يفرض الإسلام أن يكون لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا» .

هذه الدعوة الجديدة التى دعا إليها الإسلام كانت منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفى عصر يستحيل فيه التفاهم والتقارب والوحدة ، لسوء المواصلات ، وكثرة الجهل ، وقلة العمران والمدنية والحضارة ، وانتشار العصبيات ؛ ولم يدع المفكرون إلى

بعض مبادئها إلا فى القرن العشرين ، بعد أن هيأت الحضارة أسباب التقارب والمودة والإخاء ، وكانت دعوة الإسلام إليها منذ ذلك العهد البعيد ، معجزة لهذا الدين ولرسوله العظيم ، الذى جعل الناس أخوة لا فرق بين أبيضهم وأحمرهم وأسودهم ، وأعجميهم وعربيهم ، حتى لقد غضب رسول الله إذ أهان صحابى من صحابته عبدا أسود زنجيا فعيره بأمه ، وقال له : يا ابن السوداء ، ورؤى الغضب فى وجهه ، وقال : «طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بتقوى الله أو بعمل صالح » .

ثم لم تهدأ شعلة هذه الحياة المتقدة ، ولم ينطفىء مصباح حامل تلك الرسالة السماوية العظمى ، إلا وقد جمع محمد العرب عليها ، ودعا الملوك والأمراء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أروع مايقول فى رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ؛ وسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين (عامة الشعب) ، يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

ثم حمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم إليها وحمل الإنسانية عليها ، فوصلت عقيدة محمد إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل هذه الرسالة عقيدة أكثر من سدس العالم المعروف اليوم ، ولن تزال حية بما فيها من حياة وحرارة وتجدد ونمو .

ولقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة ، وبأياديه الجليلة على الحضارة ، يقول تولستوى : مما لاريب فيه أن النبى محمدا من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة إلى الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام . ويقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال : إن الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا ، لاكثر

من مائتى مليون من البشر ، وإن رجلا كاذبا لايستطيع أن يوجد دينا وينشره ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ، فلم يقتبس من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الانبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور .

وصدق الله العظيم حين يقول : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعيا الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .



دعوة إلى السلام العالمى

قال صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

ويقول الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ، بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ، فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

إن الإسلام دعوة إلى الأخوة الإنسانية العامة ، وإلى الزمالة البشرية المشتركة ، وإلى وحدة الأديان والعقائد . . وهو دعوة إنسانية عالية إلى السلام العالمى المنشود .

أوليس هادى البشر للسعادة الأبدية من دعا إلى الديمقراطية الصحيحة ، وقرر الحكم الشورى وهدى الإنسانية بعد الشرك والوثنية ، والضلال والهمجية والوحشية ، وأنقذها من الاستعباد والظلم والهوان والمذلة .

رفع أيدى الحكام عن الشعب وأمواله ، حتى لقد قال محمد صلوات الله عليه لابن اللتبية وقد استعمله على صدقات بنى سليم ، فلما جاء إلى النبي وحاسبه فقال : هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت لى ، هلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟ وفى بقية الحديث : أنه قام فخطب الناس ، ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه .

وساوى الفقير بالغنى ، والصغير بالكبير ، والمحكوم بالحاكم ، والمرأة بالرجل

والأعجمى بالعربى ، والوضيع بالشريف ، ولقد قال لفاطمة بنت محمد : يا فاطمة ، إنى والله لا أغنى عنك من الله شيئا » .

إن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقا صحيحا ، كما هى ، لتسعد البشرية ، ويستقر السلام العالمى المنشود ، فالعالم لن يحيا من موته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، والتى لا بد أن ينتهى إليها فى يوم من الأيام ، كما يقول برنارد شو الفيلسوف الإنجليزى العظيم ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

إن الإسلام أسس امبراطورية ، ولكن أية امبراطورية هى ؟ وشيد حضارة ، ولكن أية حضارة هذه الحضارة ؟ وهو دين عام ، ولكن أى دين وشريعة هو ؟ « فأقم وجهك للدين القيم ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

حرية وعدالة ، وإخاء ، وعلم وثقافة ، وشعور بالمسئولية ، وتربية للوجدان والمشاعر ، وإرهاف للادراك وللاذواق والفطر الإنسانية السليمة ، ومؤاخاة للعقل لا حد لها .

إن الإنسانية لا بد أن تتأدى إلى هذه الشريعة وفق ناموس التدرج والارتقاء ، وإن أصولها العامة لا بد أن ترد ، « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم ، وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

إن الغرب تعلم عن الإسلام كيف يرفع بصره إلى السماء ، وكيف يدرك أن انتصار العقل المادى لا قيمة له ، إلا إذا اقترن بانتصار العاطفة والروح ، واتجه وجهة إنسانية لمصلحة الفرد وخير المجموع البشرى . . وأخذ عنه ميراث الحضارة .

ولكنه لم يأخذ عنه النزعات الصوفية ، ولا الجوانب الروحية ، التى تتجه بالمدنية وجهة الحق والخير والعدل والجمال والكمال الروحى .

لقد بلغ الغرب أوج التقدم العقلى والمادى ، ولكن ما زالت عوطفه متبلدة وأرواحه هائمة حائرة .

إن الكمال الروحى الذى كان بالأمس مثل الشرق الأعلى ، قد أصبح اليوم

قبلة طائفة كبيرة من الغربيين ، تحاول أن تدمجه فى عقيدة القوة والتقدم المادى ، لتؤلف من المزيج مثلا إنسانيا أعلى .

ولكن مهمة التوفيق هذه يجب أن تكون رسالة الشرق الجديد . لتحقيق الرسالة الإنسانية الكبرى . بالجمع بين حضارة الغرب والشرق ، بين العلم والعاطفة ، بين العقل ونزعة التأمل ، بين الفكر التجريبى والفكر الصوفى ، بين قوى الذهن المادى المبتكر وقوى الروح النبيل ، الساعى لتحويل جهود الذهن لخير البشرية جمعاء .

إن الإسلام ودعوته هى الباعثة على التقدم العالمى ، والسلام البشرى ، والحضارة الحقة ، والعلم الصحيح .

فاتجهوا إليه ، وآمنوا به ، وسيروا فى أضوائه ، تصلح الحياة ، وتسعد البشرية .



الإسلام

مفاخره ليس لها نهاية

الإسلام اليوم غريب من جماهير المسلمين ، غريب عن عقولهم لا يألفهم ولا يألفونه ، يرتلون اسمه فى المحافل ترتيلا ، وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه .

الإسلام الذى أحدث أعظم انقلاب عالمى ، وأكبر ثورة بشرية ، والذى بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ، ومن المواءمة لروح الإنسانية ونظريات الاجتماع ومذاهب التفكير الحديث ، ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون فى كل جيل ومكان ، هذا الدين السماوى الخالد هو الذى ينبذه المؤمنون به اليوم وراءهم ظهريا ويحرمون أنفسهم من الإفادة بتعاليمه ، بل ويجاهر بعضهم أحيانا بأنه دين الرجعية والجمود ، كذبوا وأيم الله ؛ فالإسلام لم يكن فى يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الإنسانى والعزة والكرامة والمجد ، وإن أوربا لم تنهض نهضتها الحديثة إلا بعد أن فهمت أصول الإسلام ، واقتبست من شريعته فى الإصلاح ، بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين ، يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة .

وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق ، وأصول البحث والتفكير ، وسبق «الديكارتيين» إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد وإلى الإيمان بما يؤدى إليه الدليل . كما سبق «بيكون» إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حدا لما يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف ؛ وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب ، دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء التى هى الآن أساس المدنية الغربية .

يفاخر العالم الغربى بمجانية التعليم التى سبق إلى تعميمها منذ عهد بعيد ؛ وأنتم تعلمون أن المدارس والجامعات الإسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعليم بها ،

بل وتزيد على ذلك ، فتصرف لطلابها الغذاء والكساء وتهيء لهم السكنى فى مساكن مدرسية خاصة .

ويفاخرنا بمجانية العلاج وهو نظام سبق اليه المسلمون فى العصور القديمة .

ويفاخرنا بنظام الضمان الاجتماعى الذى عمموه فى بلادهم مع أن المسلمين هم أول من طبقوه ونفذوه ، فقدكان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء والمساكين ، واليتامى والأرامل وأبناء السبيل ؛ كما كان لهم نصيب فى الغنائم ونصيب فى الزكاة ، وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد » . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة والوصية والوقف والإرث ، ودعوته الى الإحسان ؛ وفرضه حقا معلوما للفقراء فى أموال الأغنياء .

ويفاخرنا بنظامه الديمقراطى . مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية ، التى كان دستورها القرآن . والتى اختفت فيها الفروق والامتيازات ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء . وجعل فيها الحاكم والمحكوم جميعا على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ؛ بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم ظل الله فى الأرض ، وبأنه فوق القانون والمسؤوليات . ولعلكم على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » . ولعلكم قرأتم بإمعان قول عمر : « إن رأيتمونى على حق فأطيعونى وأن رأيتمونى على باطل فقومونى . وقوله لعمرو بن العاص : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر . وغير ذلك مما يعد دستورا خالدا فى تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون فى القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم من الإسلام ورسوله الكريم ، الذى دعا إلى أخوة المسلمين فى الدين ، وأخوة الناس جميعا فى الإنسانية ولم يجعل لعربى على أعجمى فضلا إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وألغى الفروق بين الطبقات والعناصر والألوان والأجناس والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامى المحافظة على الكرامة الإنسانية ونشر كلمة الله والهدى والنور ، والحق والخير والمعرفة . الدين واحد والناس جميعا إخوة ، يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله .

ولا يزال الغرب يدعى بأنه أول من أعلن حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة منذ بدء الثورة الفرنسية حتى اليوم .

وما أشد جرأة هؤلاء على الحقائق ، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال وقرون إلى إعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها .

وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجل وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان فى الحياة والأمن ، وحقه فى الملكية وفى الكرامة الإنسانية ، وفى تكوين الأسرة وفى الاشتراك فى إدارة شئون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها وإلى الإخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة والمساواة الشاملة والاشتراكية العادلة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى ، وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات وحقوق .

لقد كان أفلاطون وارسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالى من الحقوق المدنية ، لانحطاط ما يمارسونه من المهن .. فأين هذا من سماحة الإسلام وجلاله وسمو مبادئه ، الذى ساوى بين العامل والأمير والغنى والفقير والكبير والصغير .

وأوربا المتمدينة اليوم لا ترى بأسا من فرض الرق البشرى على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات والحجر على الحريات ، فى سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض .. فأين هذا من عدالة الإسلام التى حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال فى شتى صوره ، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للمسلمين الحاكمين .

والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم ، لا ترى أيضا ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول ، وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب ، فى حروب منظمة ، يعجز العقل عن تصور هولها وفظاعتها . فأين هذا من شريعة الإسلام التى فرضت على المسلمين احترام حق الإنسان حتى فى الحروب ، وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب ، حتى لقد أوصى رسول الله صلوات الله عليه جنده فقال لهم : «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، أغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء» .

لقد بلغت المساواة فى الإسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله : «أيها

الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد . ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسى ولاية اليمن ، وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر وهو خليفة لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب .

وبلغت العدالة فيه المدى الذى يصوره قول محمد بن عبدالله : «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ، وأن يغضب «على» لأن الخليفة عمر كناه بأبى الحسن فى خصومة بينه وبين يهودى ، وأن يقول عمر فى وصيته للخليفة من بعده : «اجعل الناس عندك سواء ، لاتبال على من وجب الحق ، ثم لاتأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

فضلا عن تحريم الإسلام للنظم الاقتصادية الجائرة : من ربا واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل ، وقاعدة الاقتصاد فيه «فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون» ، كما أن قاعدة الإسلام فى أصول الاجتماع قوله صلى الله عليه وسلم : «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» . هو بحق دين اشتراكى عادل ، بما شرعه من زكاة وإحسان ووصية ووقف ، وبجعله بيت المال فى خدمة المسلمين عامة ، ومساعدتهم على الحياة .

إن مفاخر الإسلام فى احترامه لحقوق الإنسان ، وتأييده وحمايته لها ، وفى وضعه لأصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وفى إيقاظ الروح الإنسانى العام ، لهى مفاخر جديرة بالإشادة والتقدير ، حرية بأن نفهمها ونتدبر معانيها ونقتبس من أصولها مايحيى الروح ويوقظ العزيمة ، وينبه راقد الفكر فى شتى أرجاء العالم الإسلامى .

إن الخير كل الخير فى أن يتنبه الشرق الراقد الى أصول دعوة الإسلام ، التى جهلها وتناساها وتركها ، وإنه لحرى بالمسلمين جميعا أن يأخذوا بتعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقا صحيحا ، ليسعد الناس وتستقر الجماعات ، وتهدأ الفتن ،

وتصحح الأوضاع ، فالعالم لن يحيا من موته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، التى لابد أن ينتهى إليها فى يوم من الأيام «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

وصدق الله العظيم حين يقول : «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .



يحرر المراة من الرق البشرى

إن موقف الإسلام من المرأة موقف خالد ، فقد كفل لها جميع الحقوق المدنية ، وأطلق لها الحرية فى التعلم والتعليم وخدمة المجتمع ، وأعطاها حقوقها المالية والاجتماعية التى حرمتها الشرائع الأخرى منها ، واحتفظ لها بحريتها الشخصية وكيانها المعنوى ، وساواها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، وأعطاها حقها فى الميراث : للأنثى نصف ما للذكر بقدر أعبائها المادية فى الأسرة . وقد حرم الإسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة ، فحرم البغاء والزنا ، وجعل صلتها بالرجل مبنية على أساس رباط مقدس أباحه الإسلام وأكده ورعاه ، وهو رباط الزواج الذى لا يتم إلا برضاها ، وجعلها راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وأطلق لها حرية الرأى والتعبير ، حتى قال عمر : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، وأباح لها الإرشاد والفتيا والقضاء والقيام بشتى الخدمات الاجتماعية الملائمة لأنوثتها ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الأساسية هى القيام بشئون البيت وتربية الأبناء ، والتعاون مع الرجل فى الحياة لخدمة الأمة . . ويفرض الإسلام نفقة المرأة على أبيها أو ولى أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده ، غنية كانت أم فقيرة ، فان لم يكن لها عائل فنفقتها ونفقة أولادها من بيت المال .

والأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأولى فى الأمة ، وقد أحاطها الإسلام بشتى ضروب الرعاية ، وجعلها تعاونا تاما بين المرأة والرجل فى ظل الزواج ، وتربية وتهذيبا للأبناء حتى يبلغوا سن الشباب ، وقيد تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة ، لأغراض اجتماعية سامية .

والإسلام يعترف للمرأة بحق اشتراكها فى الشئون العامة ، وإن كان لا يخصصها لهذا العمل ولا يوقف حياة امراة عليه ، لأن ذلك محاربة الأنوثة وواجباتها ، إن الله عز وجل خلق الجنسين ليتعاونا فى الحياة لا ليتنافسا ، ومقتضى التكوين الطبيعى اختصاص المرأة بالحمل والرضاع وحضانة الأطفال وتربيتهم وتدبير شئون المنزل ، فكيف تحمل مع هذه الواجبات الثقيلة واجبا آخر ، هو كسب العيش والكدح فى

الأرض ، إن الناموس الطبيعي الذي يخصص المرأة للحياة المنزلية لم يتغير ، كما يقول أوجست كونت ، وإن المرأة تهدم مملكتها حين تحاول القبض على زمامنا كما يقول كانابليس ، وإن منح المرأة الفرنسية الحقوق السياسية لم ينشأ عنه أي خير ، بل ازدادت متاعب فرنسا على أثره ، كما تقول مدام بول هيرفور .

وموقف الإسلام من المرأة هو موقف المصلح المدبر الحكيم ، الذي ينظم الحياة على الأسس الاجتماعية السليمة ، وأصول الفكر الرشيدة ، ولقد اهتدت كثير من المدنيات الحديثة بآرائه في الإصلاح فكسبت الخير الكثير .

إن بعض المبادىء والمدنيات الحديثة التي تلقي عبء الحياة العامة على المرأة تظلمها كثيرا ، فما بالكم إذا عدت المرأة مسئولة عن حياتها ونفسها ونفقاتها ومعيشتها ولو كانت متزوجة ، كما تفعل الشيوعية ، التي تجبر المرأة على العمل أيضا كما تجبر الرجل ، وإلا نفذ عليها وعليه حكم القانون ، الذي يوجب أن « من لا يعمل لا يأكل » ، وتجعل لكل من الرجل والمرأة حرية التصرف خارج الدار وداخلها ، وحرية الانفصال كل عن الآخر متى شاء بدون إبداء الأسباب ، أليس ذلك وما شابهه منطقا مقلوبا مضطربا يخالف سنة الله والحياة والاجتماع ؟ يقول أوجست كونت الفرنسي : « ينبغي أن تكون حياة المرأة بيتية ، وأن لا تكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ويفسد مواهبها الفطرية » ، ويقول جون سيمون : « إن الحكومة قد استخدمت عددا كبيرا من النساء فاكتسبن بهذا دراهم قليلة ، ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم الأسرة من أساسها » ، وتقول مدام بول هيرفور من زعيمات الحركة النسائية في أوربا : « إن مهمة المرأة الأساسية هي المحافظة على النوع ، وأما ما عدا ذلك مما يزعمه لنا المغالون من المفتونين بها ، فهو كلام أدباء وشعراء ، والماضي برهان على ذلك ، فإنه لم ينبغ من بين النساء مثل شكسبير ؛ إذ ليس فيهن محامية عظيمة ولا طبيبة ذات صيت » ، ويقول شوبنهور : « أتركوا للمرأة حريتها ، ولا تجعلوا عليها رقيبا ، ثم قابلوني بعد سنة وأخبروني بالنتيجة » .

إن عمل المرأة خارج البيت ظلم للمرأة لا حد له ، وقيام دور الحضانة على حضانة الأطفال وتربيتهم مفسد للطفولة وحياة الأبناء ، وكل المناهج الحديثة والقديمة ظلمت المرأة وجارت عليها ، ما عدا الإسلام وشريعته الحكيمة ورسوله الكريم .

الصوم

مدرسة الأحرار

ليس الصوم فى معناه الأكبر إلا انطلاق الروح من أغلال الجسم الإنسانى وقيوده ، وإلا حرية الفكر وتحرير العقل من العادة المستمرة المسيطرة على حياة الإنسان ، ومتى انطلق الإنسان من إسار الشهوة واللذة ، ومتع العيش وترف الحياة ، استعاد كرامته الإنسانية ، وصار أقرب إلى فهم واجبه ، وإدراك مسئولياته ، وصارت الحياة عنده لها غاية ورسالة وهدف ، وأصبح لا يؤمن بماديات الحياة التى لا تتحكم إلا فى العبيد ، وعاد إنسانا أشبه بالملائكة وبشرا لا يعيش فى الأرض ، ولكن يحوم بفكره فى كل أفق ، ويسابق بنزعته المتحررة الزمن ، ولم يعد يحيا فى نطاق محدود من الجمود والخمول والكسل العقلى والروحى ، ولكن ارتد إلى الإيمان بالعمل والتجديد ، والى متابعة الحياة فى توثبها وتقدمها المستمر ، وهكذا يصير الصوم لذة روحية صادقة ، وصفاء ذهنيا متجددا ، وقدرة على التفكير والكفاح والعمل من أجل رسالة الحياة ، وعادت حياة الإنسان — التى تبدو هادئة أو كالهادئة — ثورة وحربا على رجعية الضمير والعقل والعادة والفساد .

ومن أجل ذلك كان الصوم مدرسة الأحرار ، ومظهرا لعقيدة الإيمان بالحرية والابتكار والخلق والإبداع ، وتقديس الواجب والحرص على إرضاء الضمير ، وكانت هذه الشريعة الحكيمة ركنا من أركان الإسلام وشعيرة من شعائره النبيلة ، وعبادة من أسمى عباداته ، فليست الصلاة فى الإسلام وحدها هى العبادة ، ولكن شريعة الصوم كذلك عبادة كبرى ، يتعلم المسلمون فيها معنى الحرية والكرامة الإنسانية والإيمان بالعمل من أجل رسالة الله التى استخلف الإنسان عليها فى الأرض .

والصوم معروف فى جميع الشرائع القديمة ، والأديان السماوية المنزلة ، ولكن الإسلام يدعو إلى الصوم لا على أنه تكليف وتعذيب ، ولكن يدعو إليه على أنه مظهر من مظاهر الحرية التى يجب أن يؤمن بها المسلم ويحرص عليها ، ويدعو الإسلام كذلك إلى الصوم على أنه صورة من صور الخير والجمال فى الحياة ، الخير الذى يدع

المسلم يؤمن بأن له إخوانا فى المجتمع يجب أن يشاركهم آلام الحياة ومسراتها ، والجمال الذى تتراءى صوره ومثله أمام الصائم : فى إشراقة الشمس ، وضوء القمر ، وابتسام الزهر ، وحفيف الأشجار ، وخرير الأنهار ، وتعاقب الليل والنهار ، وفى كل لون من ألوان الحياة التى دبر الله أمرها ، وأحكم بالنظام والقانون الإلهى الحكيم سيرها ، والأنبياء والفلاسفة والمفكرون وأصحاب الدعوات والرسالات ، كلهم كانوا فى حاجة إلى الصوم ، ومن أجل ذلك نجد فى حياتهم فترات مستمرة يحرصون فيها على الصوم ليجددوا للعقل الإنسانى حكمته وعزته وكرامته ، ومن أجل ذلك كان اعتكاف محمد بن عبد الله صلوات الله عليه فى غار حراء ، قبل أن تنزل عليه الرسالة وبعد ذلك ، والمفكرون الذين يحاولون كشف أسرار الحياة يعيشون مع نظرياتهم ومذاهبهم صائمين أو كالصائمين ، لأنهم فى شغل شاغل عن كل متع الحياة وزينتها وماديتها .

أيها المسلم المؤمن بشريعة الإسلام ، ليكن شهر الصوم مدرسة روحية كبرى لك ، تتعلم فيها مذاهب الحياة النبيلة وعقائدها المثلى ونزعات الخير والإيثار التى يجب أن تتأصل فى نفس كل مسلم ومسلمة ، وليكن شهر الصوم مجالا لتحررك الكامل من الأوهام والأكاذيب والأضاليل ، ولثورتك المشتعلة على عبدة المتع المادية وطلاب الشهوات الجسمية ، ودعاة الجمود وأعداء التقدم ، ولتحارب بكل قواك فى شهر الصوم نفسك الأمارة بالسوء ، وحياتك التى تحياها وأنت أسير لها وعبد لا يقدر على مخالفتها ، ولتحارب مع ذلك أعداء الحرية من المستعمرين ، الذين يهدمون السلام ويعوقون ركب الإنسانية المنطلق إلى غاياته .

الإسلام

وأثر الصوم في حياتنا الروحية

الحياة الروحية للأمم هى دعامة كيانها الذاتى ، ومبعث حياتها ووجودها القومى والإنسانى ، فهى التى تغذى العواطف ، وتثير الشعور ، وتهذب الوجدان ، وترقى بالملكات الإنسانية فى الفرد والجماعة ، وتبعث على العمل والطموح والعزيمة والإقدام .

وناهيك بالإسلام دينا ، له أثره البعيد فى الحياة الروحية فى الشرق والإنسانية كافة ، فهو الذى وجه الحضارة البشرية نحو المثل العليا ، التى كانت تحسب فى العصور القديمة ضلالات وأوهاما ، وهو الذى سما بالشعور الإنسانى فى الفرد والجماعة إلى آفاق كريمة زاخرة بمعانى الحق والخير والإيثار والمساواة ، وتضامن الناس جميعا فى العمل على تقدم الإنسانية والحضارة ، وسعادة جماعات العالم وشعوبه .

وأول ما يبهرك من شرائع الإسلام وشعائره التى لها الحظ الأكبر فى حياة المسلمين الروحية ، هو فريضة الصيام السامية الحكم والأهداف .

فالصوم رياضة روحية كريمة تمتد شهرا من الزمن ، فتصل الإنسان بربه وبالملكوت الأسمى والنور الأقدس ، فتملأ النفس طهراً ، والقلب نورا ، وتتلاشى ظلمات الحياة أمام نور المعرفة الخالد . وتفنى أشباح المادة المسيطرة على الناس ، ويستعيد الصائم إيمانه العميق بالله والدين والخير ، وبكل ما هو حق وجميل فى الحياة .

والصوم مظهر من مظاهر حب الفرد للجماعة ، والصائم ينسى نفسه وينسى شهواته ، فيتحول تفكيره من الشعور بالذات إلى الشعور بالجماعة ، ومن الإمعان فى الترف إلى حب البساطة ، والسير مع نواميس الحياة الأبدية الصحيحة ، ومن ثم يتعود الإيثار . ويكره الغرور والكبرياء والكذب والنفاق والرياء ، لأنها من مظاهر الذاتية

المنكرة فى الإنسان، ويعشق البطولة والتضحية والتفانى فى خدمة المجتمع وحب الخير والبر والإحسان ، لأنها كلها شعور بالواجب المقدس المفروض على الفرد المجتمع .

وفى رمضان ولياليه المطهرة يتجه المسلمون بشعورهم بالواجب المقدس المفروض على الفرد للمجتمع .

وفى رمضان ولياليه المطهرة يتجه المسلمون بشعورهم ووجداناتهم نحو القرآن، يتلونه ويتدبرون آياته ، فيزيدهم ذلك حرصا على السمو بالنفس والروح، ونكران المادية الجامحة القاتلة لجمال الحياة ، ويؤثر العابدون التهجد والصلاة وذكر الله، والاعتكاف فى بيوته الكريمة ، فيزيد ذلك فى ازدهار الحياة الروحية الرفيعة ورقيها

وليلات رمضان المحبوبة هى مواسم معروفة للبر ولذكر الله ، واسماع كتابه الحكيم وآثار الثقافة الدينية التى يظمأ إليها الناس ، ولتزاور الناس وتصافحهم، وللتضامن الاجتماعى بين الغنى والفقير . ولا نزال نحب أن تكون كما كانت أوقاتا مبرأة من الإثم والفجور والعدوان .

لقد كان آباؤنا يحفلون بهذا الشهر الكريم ، ويولونه حظا كبيراً من العناية والاهتمام ، ويسعون فيه إلى الصلح بين الناس ، وإلى الترفيه عن الفقراء ، ومواساة البائسين والمنكوبين ، وإطعام الجائعين والمحتاجين ، وقلما كان الرجل يخاصم فيه أخاه ، أو يسعى إلى اقتراف ذنب أو ارتكاب معصية ، فكان الشهر كله طهراً وخيراً وبركة ورحمة ومحبة بين الناس ، وإيقاظا لضمائرهم ، وكانت أيامه كالربيع الباسم والزهر الناضر والواحة الخضراء فى صحراء الحياة .

وبعد : فحسب رمضان نصيبه الأوفى فى حياتنا الروحية ، وأثره البعيد فى ماضى العالم الإسلامى وحاضره ، بما فرض فيه من شريعة الصيام . وبما تبعها من آثار بعيدة فى حياتنا الخاصة والعامة . وفى مستقبل الجماعة الإسلامية منذ نشأ الإسلام .

فلنتدبر هذه المعانى العظيمة ، والتقاليد الطاهرة الكريمة . التى غرسها ونماها فينا الصيام ، ولنستمد منها القوة التى تعيننا على شدائد الحياة، والإيمان الذى يقودنا إلى مجال الحق الكريم ، والثقة بالروح التى تدفعنا إلى البطولة الدائمة وحب الجماعة وكل ما يساعد على رفاهيتها ، وغير ذلك مما يجعل الحياة أمنا وسلاما وسعادة .

نصوص

من الإعلان العالمى الجديد لحقوق الإنسان

الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨

وهى لا تخرج عن أصول الإسلام الكريم

أما وأن الاعتراف بكرامة الإنسان المتأصلة فى كيان الأسرة البشرية جميعا ، وبحقوقهم المتساوية ، التى لا انتزاع لها عنهم ، إنما هو أساس الحرية والعدل والسلم فى العــالم .

وأن تجاهل حقوق الإنسانية واحتقارها قد أفضيا إلى أعمال همجية استثارت ضمير الإنسانية ، وأن انبثاق عالم ، يتمتع فيه المرء بحرية القول والمعتقد ، ويتحرر من الخوف والعوز ، قد أعلن أرفع ما يصبو إليه الناس .

وأن سيادة القانون لابد منها لصيانة حقوق الإنسان ، حتى لا يلجأ المرء مضطرا فى آخر أمره بالظلم والطغيان ، إلى دفعهما عنه بالثورة ، وأن من الجوهرى تعزيز نمو العلاقات الودية بين الأمم .

وأن شعوب الأمم المتحدة قد جاهرت فى الميثاق ، كرة أخرى بإيمانها بحقوق الإنسان الأساسية ، وبكرامة شخص الإنسان وقدره ، وبالتساوى بين حقوق الرجل والمرأة ، وأعلنت عن عزمها على تعزيز الرقى الاجتماعى وعلى رفع مستوى الحياة تحت ظل من الحرية أوسع مدى .

وأن الدول الأعضاء قد قطعت على نفسها عهدا بأن تؤمن — بالتعاون مع الأمم المتحدة — الاحترام العالمى الفعلى لحقوق الإنسان وللحريات الأساسية .

وأن الفهم المشترك لهذه الحقوق والحريات ذو أهمية عظمى للايفاء بهذا العهد إيفاء تاما . فالجمعية العامة تنادى بهذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، على أنه للشعوب والأمم قاطبة . مثل للتحقيق مشترك — كيما يسعى جميع الأفراد وجميع هيئات المجتمع . وهذا الإعلان دوما نصب العيون لان يعززوا بالتعليم والتربية احترام هذه الحقوق والحريات ، ويؤمنوا بتدابير تدرجية فى النطاقين : الوطنى والدولى .

للاعتراف بها وتطبيقها على نحو عالمى فعال . سواء فى ذلك شعوب الدول الأعضاء نفسها وشعوب الأقاليم الداخلة فى عهدتها .

المادة الأولى : يولد البشر كلهم أحرارا ، متساوين فى الكرامة وفى الحقوق وقد وهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء .

المادة الثانية : لكل إنسان جميع الحقوق والحريات المثبتة فى هذا الإعلان ، دون أى تمييز . لا سيما فى العرق ، واللون ، والجنس ، واللغة ، والدين ، وفى الآراء السياسية أو غيرها من الآراء وفى الأصل القومى أو الاجتماعى ، وفى الثروة والنسب أو ما إليهما .

وفوق ذلك ، لن يكون هنالك أى تمييز يستند إلى الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو الإقليم الذى ينتمى إليه المرء ، سواء أكان ذلك البلد أو الإقليم مستقلا ، أم تحت الوصاية ، أم غير متمتع بالحكم الذاتى ، أم مقيدا فى سيادته بأى قيد آخر .

المادة الثالثة : لكل إنسان الحق فى الحياة ، وفى الحرية . وفى الأمنة على نفسه ،

المادة الرابعة : لا يسترق ولا يستعبد أحد ، فالرق والاتجار بالرقيق ممنوعان على مختلف أشكالها .

المادة الخامسة : لا ينزل التعذيب بأحد ، ولا يعامل أحد أو يعاقب بشكل شرس أو وحشى أو محط بالكرامة .

المادة السادسة : لكل إنسان الحق فى أن يعترف له ، فى كل مكان ، بشخصيته القانونية .

المادة السابعة : ألكل واحد بين يدى القانون . متساوون فى حقهم من حمايته لهم ، دون تمييز بينهم .

ثم تحدث «الإعلان» عن حق الإنسان فى إنصاف القضاء له ، وحقه فى التنقل بين البلاد ، وفى الزواج وتكوين أسرة له ، وفى الملكية ، وحرية الدين والرأى وانتقل إلى حرية الاجتماعات فقال :

المادة العشرون : (١) لكل إنسان الحق فى حرية الاجتماعات والجمعيات المسالمة .

المادة الحادية والعشرون : (١) لكل إنسان الحق فى أن يشارك فى تدبير الشئون العامة فى بلده ، سواء أ كان ذلك على يده أم على أيدى ممثلين يختارون اختيارا حرا .

(٢) لكل إنسان الحق فى أن يتوصل على قدم المساواة إلى المناصب العامة فى بلده .

(٣) قوام الحكم مشيئة الشعب ، ويجب لهذه المشيئة أن تتبين بانتخاب نزيه يأتى فى مواعيد دورية ، ويكون على طريق الاقتراع العام السرى المساوى فيه بين المقترعين ، أو على أسلوب آخر معادل له ، يكفل حرية الاقتراع .

المادة الثانية والعشرون : لكل إنسان . من كونه عضوا فى الهيئة الاجتماعية الحق فى الأمنة الإجتماعية ، وله الحق فى أن ينال بفضل المجهود القومى والتعاون الدولى ، ووفقا لحال الدولة بنظمها ومرافقها ، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، التى لا تستغنى عنها كرامته ولا شخصيته فى نموها المطلق .

المادة الثالثة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق فى العمل وفى الحرية على اختيار نوع العمل ، وفى أن تكون شروط العمل عادلة مواتية ، وفى الحماية من البطالة ،

المادة الخامسة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق فى مستوى من العيش كاف لضمان الصحة والهناءة له ولعائلته ، بما فى ذلك الغذاء ، والكسوة ، والسكن والعناية الطبية . والخدمات الاجتماعية اللازمة ، وله الحق فى أن يؤمن أمره عند البطالة ، والمرض ، والعجز ، والترمل ، والشيخوخة ، وفى كل حالة أخرى يفقد معها أسباب معاشه بعلة لا يد له فيها .

المادة السادسة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق فى التربية

(٢) يجب فى التربية أن تعمل على نمو الشخصية الإنسانية نموا تاما ، وعلى تقوية الاحترام لحقوق الإنسان والحريات الأساسية ؛ وعلى تعزيز التفاهم والتسامح والصداقة فيما بين الأمم جمعاء ، وفيما بين كل الجماعات ، وعلى دعم مجهود الأمم المتحدة لتوطيد السلم .

المادة السابعة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق فى أن يشترك بحرية فى حياة المجتمع الثقافية . وأن يتمتع بالفنون ، وأن يكون له نصيب فى الرقى العلمى وفى الخيرات الناجمة عنه .

(٢) لكل إنسان الحق فى أن تحمى المصالح الأدبية والمادية الناجمة عن كل نتاج له فى العلوم والآداب والفنون .

المادة الثامنة والعشرون : لكل إنسان الحق فى أن يسود نظام اجتماعى ودولى يتأتى معه تحقيق تام للحقوق والحريات المثبتة فى هذا الإعلان .

المادة التاسعة والعشرون : (١) على الفرد واجبات نحو المجتمع الذى فيه يحيث يتاح لشخصيته أن تنمو نموا حرا تاما .

(٣) لايخضع أحد فى ممارسة حقوقه وحرياته إلالما يفرضه القانون من قيود ، غرضها الأوحد إنماهو تأمين الاعتراف بحقوق الآخرين وحرياتهم واحترامها . وتحقيق ماتقتضيه عدلا الأخلاق والنظام العام والخير العام . فى هيئة اجتماعية ديمقراطية .

(٣) لايجوز - فى حال من الأحوال - ممارسة هذه الحقوق والحريات على ماينافى أغراض الأمم المتحدة ومبادئها .

هذا هو وربك بعض نصوص من هذا الإعلان العالمى الجديد والأخير لحقوق الإنسان .. الذى لايخرج فى مبادئه عن أهداف الإسلام وغاياته و نصوصه .

الكلمة الأخيرة

بسم الله ، والحمد لله ، والتوفيق من الله ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، وإليه ننيب . .

هذا الكتاب « الإسلام دين الإنسانية الخالد » . قد جمعنا فيه كثيراً من أصول الإسلام ومثله وأفكاره ونزعاته فى الإصلاح ، ودعواته للنهضة والتقدم ، مما فتح المسلمون الأولون به صفحة جديدة فى تاريخ البشرية كافة .

وكنت أريد أن أتحدث فيه بإفاضة أكثر مما أفضت ، لولا الشعور بأن هذا الكتاب يجب أن يخرج كما خرج : كما وكيفا ومنهجا ، حرصاً على الفكرة العامة ، التى ألف من أجلها هذا الكتاب ، وحرصا كذلك على وقت القارىء والباحث .

والله المأمول أن ينفع به ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم . .

المؤلف

فهرست الكتاب

ص الموضوع

ص الموضوع

كتب جديدة للمؤلف

١ ــ مأثورات نبوية .
٢ ــ من تاريخ الأدب العربى بعد ظهور الإسلام .
٣ ــ تطهير الاعتقاد ـ للصنعانى اليمنى ـ شرح المؤلف .
٤ ــ رائد الشعر الحديث ـ طبعة ثانية ١٩٥٥ .
٥ ــ الإسلام دين الإنسانية الخالد
٦ ــ المحسن الإسلامى الأكبر